

ليو تولستوي

٧٥

ليلا ارفا

www.liilas.com/vb3
^ RAYAHEEN ^



كل القليل
سيرة - لبنان

ملاح

هَذَا الْكِتَابُ

على انه كل مرة حول ان يفتح زوجته بالامر كان يشعر كأن روح الشر
التي تهيم على مشاعرها قد انتقلت اليه هو ، وانه اضحى مثلها منافقا مرثيا ،
ولولا ذلك لما غير الموضوع وخاض في حديث آخر غير الذي بدأ فيه ؟

وهكذا مر الوقت ... مريوما اثر يوم .. ودارت عجلة الزمان ..
والرجل حائر في امره . والمرأة سادرة في هواها ، ماضية في طريقها .. لائلوي
على احد .. فإلى اين تقودها قدماها الى اين يفضي بها غرورها ، ومتى
تستفيق ؟ هل تراجع ؟ ام تقذف بنفسها في الاتون ؟

على مفرق طريقين . ألفت انا نفسها ..

الى اليمين طهر وعفة ونقاء ..

والى اليسار فحش وذنس ورجس ..

فإلى ايها تتجه الغانية ...

انها على مفرق طريقين تقف ..

والقدر ينتظر .. وزوجها الملهوف ينتظر !

كانت عائلة « اوبلنسكي » مضطربة غاضت سعادتها ، وتلاشى استقرارها ، وحف بها الشقاء من كل جانب .
فالزوج حاد عن الصراط ، والزوجة اكتشفت ما نزع اليه قلب قريبها ، فقد كلف المربية الحسنة التي كانت ترمي اولاده ، وهام بها ، وعاشرها معاشرة الأزواج .

وشاع الحزن في قلب المرأة المهیضة ، فشعرت بالهانة ، وجهرت بعزمها على صد زوجها عنها ، والانفراد بعيشها ، وكانها لم تنجب اولادا !
وانقضت ايام ثلاثة عمت خلالها الفوضى ، وثبت ان لا مندوحة للزوجين من الانفصال .

ولاذت الزوجة بفرقتها فلم تبرحها ، وهام الزوج على وجهه وجعل يقضي سحابة نهاره متنقلا من مكان الى مكان . فاذا ما قفل راجعا ، قضى ليلة في غرفة اخرى غير مخدعه .

وفي صباح اليوم الثالث لنشوب النزاع استيقظ الامير « ستيفان اوبلنسكي » ، كما اعتاد ان يستيقظ كل صباح ، فتشاءب وتمطى ، واستعاد الى الذاكرة صورا من الحلم الذي الم به ، والاشباح التي طوقت بمخيلته ، ثم تذكر فجأة انه لا ينام الى جانب زوجته بل على الأريكة الجلدية في مكتبه . فتتململ في مكانه متضررا ، الا انه عاد فانطرح على وجهه ، وما عتم بعد قليل حتى دفن رأسه في الوسادة ، وغاص في لجة الفكر ...

فتذكر تلك الليلة السوداء التي حولت حياته الى جحيم .. وصاح بصوت اليائس الولهان : « انها اصعب مراسا من كل امرأة سواها ، ولن تغفر لي ! » .

عاد في تلك الليلة التعسة من ملعب التمثيل وهو يمشي بزهو ولا يكاد يبط الارض عجبا وسعادة .. ودلف الى البيت بخطاه الثابتة ويده اجاصة كبيرة ...

وبحث عن زوجه فلم يجدها في الردهة ، فولج غرفة المائدة ، فلم

يلقها هناك ايضا .. وهجست نفسه اليس مدنبا هو ؟ الا بحسبما ينتظره ؟
الا يلمس موطن الخطر المائل امامه ؟

حدس هو ما جرى ، ولما دخل مخدعها ، ايقن ان كهاتنه قد اصابت
كبد الحقيقة ، وها هي زوجته تحمل في يدها ذلك الكتاب الملعون الذي اصاب
لها اللثام عن قصة الخيانة .

ووجب قلبه ، فتمعن في وجهها ، ولكنه لم يجد فيه الا الاصفرار
وحزنا يكاد ينفجر .

ولكنه كان مرحا بطبيعته، لا يحمل الهم الا فينة، ولا يحزن الا هنيهة،
ويضحك اذا الت به المصائب !

وقالت امراته بصوت صارم : « انت هنا ! انت ايها الانسان الغادر ؟
قل ، اجب ... ما هذا الكتاب ؟ » .

فغفر فاه ، وحملق اليها دون ان يجيب .. ثم ابتسم ابتسامة بلهاء،
وتقل طرفه بين زوجة والكتاب الذي اظهرها على انحرافه وارتمائه في
احضان النعمة المحرمة ، وجنوحه الى الفجور يختلسه في غفلة من زوجة ،
ودون وازع من ضمير ، او حافز من شرف .

وابتسم ابتسامة بلهاء ، فكانت ابتسامته كلمة القضاء .. لقد حكم بها
على نفسه فادانها وخطاها ، واكتفت وزوجه واقتنعت .

وتنفس الصعداء وهو يفكر الان بمصيبته ، وينحي على ابتسامته تلك
بالالئمة ، ويتساءل والحيرة مستحوذة على مشاعره ، عن انجع الطرق التي
تشد هذه العقبة فتلاشي الخصام وتزيل القطيعة .

وتساءل مليا .. ثم فكر .. ولكنه لم يهتد الى حل وقال يحدث نفسه
« لقد هدمت صروح احلامي .. وكدرت لذة الحياة لي ولاولادي ، ولن
يجدي معها الكلام .. وبهما جهدت في حل هذه العقدة فلن اجد لها حلا ،
وستعتبر زوجتي كل قول اقوله ضلالا » .

كان ستيفان رجلا صادقا فيما بينه وبين نفسه ، ولهذا لم يكن في
وسعه التفرير ببله النفس وخدعها .

وكان في الرابعة والثلاثين من عمره ، وكانت زوجته في الثانية والثلاثين .
وقد رزق منها سبعة اطفال مات منهم اثنان .

وغشيه من الهم وهو يضرب من الحيرة اخماسا لاسداس ما لم يبيل
مثله من قبل ، فقد فكر بأولاده ، وفكر بامراته ، وفكر بنفسه ! ولم يكن
مبعث همه عدم ميله الى زوجته ، بل كان مثارة قدمه لاقدمه على الاقتران
بها !

ولو تكن ان خيانتة ستحشي بشر وغدر ، لفكر مرارا قبل ان يقتحم
الصعاب ، ولحرص كثيرا حتى لا ينكشف السر !

بيد انه لم يتبع العقل ، ولعله كان يظن فيزوجته القاعة ببيتها وولدها
ما بصرفها عنه وعن مبادئه ، وما يجعلها الا تكثرث بفسقه .. وذهب به
حسن الظن كل مذهب ، فكان يثق انها تتغاضى عنه حتى يتفجع غليله ،
فيظل الرجل المستسلم لها بضفتها ربة الدار ، المنصرف عنها بصفته تهوى
الحسن والدلال !

واستوى جالسا ، وراح يحدث نفسه ويقول : « هذا مربع ! وانسى
احس بالخيال .. اليس من السخف والافن ان يعشق الانسان مربية او
خادمة ؟ ولكن .. ولكن .. اي مربية هي ؟

وافتر تفرد عن ابتسامه رضية ، واغمض عينيه ، وحلق في عالم
الاحلام ، كأنه يرى جسد المربية الغض ووجهها الناصع الناعم وعينيها
المشرقتين الصافيتين ...

وهتف على حين فرة : « ابن المفر ، وما العمل ، حتى اصون نفسي
من الانهيار ؟

وتحير بتلفت بمنة وبسرة ، ثم دق الجرس ، فهرع اليه خادمه
« مانفي » - ذلك الشيخ المخلق الودود - يحمل له برته وحذاءه .. ويحمل
ايضا له برقية وتبعه الحلاق داخلا وهو يشيل عدة الحلاقة .

ورنا اولينسكي الى خادمه مستطلعا ، وقال : « ما وراك يا مانفي ؟
امعك اوراق بجدر بي قراءتها ؟ »

وفض اولينسكي البرقية ، وما كاد يطلع على محتوياتها حتى هتف
بارتياح : « اي مانفي ، شكرا لله ان اختي قادمة في الغدادة - ان اختي
« انا كارينا » قادمة لتمتكت معنا ردحا من الزمن » .

وعاد الخادم يقول متسائلا : « الآتية وحدها ؟ »
فلم ينسن لستيفان ان يرد ، فقد كان الحلاق حينئذ يعمر الموس على
ذقته . ولكنه رفع اصبعه ، ففهم الخادم انها قادمة دون زوجها .

ولم يلبث ان قال : « وهل أجهز لها الغرفة العليا ؟ »
فأجابه ستيفان : « سل زوجتي (داريا الكسندروفنا)
فقال الخادم في تعجب واضطراب : « اسألها ! »
« أجل ، وخذ لها البرقية »

ومضى الخادم يقدم رجلا ويؤخر اخرى الى حجرة المرأة المهيضة
الجانب وعكف ستيفان على ارتداء ملابسه .

ولما قفل الخادم واجعا ، بدا من تقطيعته ومبوسه انه عمل عملا لم
يحكمه . ولما نطق قال بلسان متعلم ينم عن حزنه : « لقد اعطيتها البرقية ،
فلم تمن بقراءتها ، بل قالت انها مرتحلة وان الحياة في المنزل لن تروق لها
بعد اليوم » .

وكان الخادم رساه بثلاثة الاتافي بكلماته تلك ، فأسى وحزن ، ثم
ابتسم كما يبتسم دائما في وجه الخطوب وقال مختارا : « لقد اخفق المسمى ،
فما العمل ؟ »

فصعد فيه الرجل بصره واجاب : « اولى بك ان تسلم المسألة للقدر
فالزمان كغيبيل بحل امقد المشكلات » .

وصمت ، وذهبت به افكاره كل مذهب . التفت الى خادمه الواجم
المترقب . واذا هو يهم بالكلام ولجت عليه المكان الحاضنة « ما ترينا
فليمنونونا » وعليها ثوب واسع فضفاض .

مع ان ستيفان اطاع دواعي الحب وخفر عبد زواجه ، الا ان جميع
اهل البيت وخدمه كانوا يعطفون عليه ويشعرون معه ويودون لو يختار
هذه العقبة منتصرا . ودخلت الحاضنة وفي امائرها ما ينم عن هم . وانشات
تقول وهي تكاد تنسلخ :

« سيدي ! ارى ان تحاول .. حاول مرة اخرى .. اني اعوذ بك .
فافعل ، ما يخمد نار كربها ، افعل ذلك ناشدتك الله من اجل بيتك واطفالك ..
افعل ذلك حتى ينسري نعمنا ! »

فاهتز الرجل من شدة الانفعال ، واجاب وهو يتكسر راسه : « انها
تابى مخاطبتي فضلا عن مقابلتي .. فما العمل ؟ ماذا اصنع ؟ »
قالت : « ما يحتمه عليك الواجب ، لان التحرق على نار الحزن والندامة
لا ينفع في مثل هذه الحالة .. »

قال : « انت ذلقة اللسان يا عزيزتي ، ماهرة في الاداء .. فاذهبي الان

وسأفعل اللازم ! » . وما لبث بعد ذهابها ان ضمخ نفسه بالطيب ، وسرح لحظة من النافذة هنيهة كالمفكر ، ثم دلف الى حجرة المائدة بخطوات ثابتة مرحة ، ووجه متائق يتضح بالبشر والاطمئنان !
ما كان ستيفان اوبلنسكي رجلا ذا وجهين ، وما كان منافقا مخادعا ، ولكنه كان يتبع بفريرته من ترجح كفته ويشتد ساعده .
فهو مواظب على قراءة صحيفة حزب الاحرار .. ولا يرجع ذلك الى مشايخته لمبادئ حزب دون حزب ، بل لان كفة هذا الحزب هي الكفة الراجحة وصحيفته المنتشرة على اوسع نطاق .

وما كان لستيفان اوبلنسكي نظرة بارعة في عالم الفن والادب ، ولا راي حاكم في مجال السياسة ، لهذا اكتفى بان يكون تابعا لتلك الاغلبية القوية ، يتلون بحسب لونها ، تماما كما كان موقفه ازاء قبعته كلما قدمت وحيال لونها . ومن يعلم ؟ لعل حالته الخاصة في بيته ، حفزته ايضا الى الميل مع الاحرار والى مشايختهم !

ومن يدري ؟ لعل معيشته الخاصة ولهفته الى نيل الحرية والانطلاق من قيود الزوجية ، وهو الحاقز له على التغني بفلسفتهم ! ومن يدري : لعل اعباء الديون الكثيرة التي رزح تحت ثقلها جعلته يعوج قلبه ولبه الى ناحية الاحرار ! ألم يناد هذا الحزب بضرورة تجديد النظام ، والعرف والقانون ، والسياسة ، والحياة برمتها ؟

الم يناد بضرورة ازالة شوائب الماضي ؟ وديونه ، ليست من اقدار الشوائب ؟!

الم يجهر حزب الاحرار بضرورة تعديل قانون الزواج ؟ فلم لا يبلا هذا المبدأ عينه قوة ، وهو من اشقى الأزواج ؟

الم يسخر حزب الاحرار من الدين ، ويستهنج الصلاة والعبادة وهو طالما تبرم اضطراؤه للمكث فترة طويلة يستمتع فيها الى موعظة حسنة ، ويصفي الى كلام منمق عن الدنيا والاخرة .. وما جدوى ذلك ؟

ثم اليس لحزب الاحرار تلك الروح المرحة الطيبة الفكهة التي تدع رجاله البارزين يطلقون التكتة دون خوف او مبالاة ؟ لقد كتب زعيم في الحزب ، في جريدة الحزب فقال : « انظروا الى رسم الامير « روك » ، ثم احكموا . داروين ، اليس هو على حق في نظريته ؟! »

والقى اوبلنسكى الجريدة من يده ووضع قبعتها على راسه وتاهب
ليغادر بيته !

ولكنه تلفت حوله محتاراً ، وتربث متعلماً وتساءل : « انمة امر
نسيته ؟ اهنالك ما يخلق بي تنفيذة ؟ »

وجاءه الجواب - وجه مقطب تسح من عينيه الدموع اطل عليه فضرب
على جبهته بيده وعلم انه لم ينس الا زوجه .. اهم ما كان عليه ان يذكر .
انه واثق من ان شيئاً لن يعيد المياه الى مجاريها ، او يربا الصدع او
يلاشي غضب زوجته وباسها .

وتناهى اليه في تلك اللحظة اصوات صخب وضجيج ، فادرك ان
اولاده يلعبون في الحديقة ، وايقن ان لا بد مما ليس منه بد ونقب في دماغه
المضطرب عن مخرج لهذه المشكلة فسدت في وجهه المنافذ والابواب ، لكن
ما ذئب الاولاد ؟ ما ذئب اطفاله ابرياء ؟

وهز راسه ولوح بيده ، ثم مشى الى مخدع زوجه بعد ان اشعل
سيجارته .

وقفت داريا الكسندروفنا بين اكوام من الامتعة والملابس ، وهي متلغفة
بثياب السفر . وكانت الافكار قد هجن همها وبرين وجهها ، وكان شعرها
المديس ينطق بذات نفسه عن ماض له مجيد ، وكان وجهها الشاحب التحيل
بشيراً بما عانته صاحبته من مضض .

فلما ولج زوجها عليها الفرقة ، حاولت ان ترمقه بنظرة احتقار
واستهجان ؟ ولكنها اخفقت في جهودها ، وانغرورت عينها بالدموع فكرهت
ان تستوقفها ، فاشاحت عن زوجها وهي تشعر بالخوف والاشفاق . كانت
تخافه .. وكانت ترتجف فرقا كلما فكرت بهذه المقابلة المحتومة بعد
انكشاف امره ..

وظالما وطنت النفس في الايام الثلاثة المنصرمة ان تغادر البيت ، ولطالما
رتبت امرها وحزمت رايها وجمعت ملابسها وملابس اولادها وهي ترمع
على الانفلات الى منزل امها والاقامة فيه ، ولكنها كانت تنهار وتنهافت
ويغشاها من الشجن ما يفت في عضدها ويوهن عزيمتها . وما اكثر ما
استلقت على الاربكة في كل مرة انتاب ارادتها التخاذل ، وتأوهت وزفرت ،
ثم قالت تحدثت نفسها :

« من المحال استمرار الحال على هذا المتوال . . . يجب ان اذله واقهره ،
يجب ان انتقم منه !

وقد انبعا فكرها ، فعولت على وضع حد لهذه العلاقة ، ولكن ،
كيف تصل الى هدفها ، وهدفها كربه مجوج ؟ كيف يطاوعها قلبها ، وقلبها
رقيق مرهف الاحساس ؟ .

فوق ذلك ، ماذا تفعل بالعادة ؟ لقد مضت سنون عليهما وهما زوجان
سعيديان ، يعيشان تحت سقف واحد ، وتنقلهما الايام تارة من التفاؤل
الى التشاؤم ، وتارة اخرى تغفر بهما من حرقه الكرب وشدتها الى روح
السرور والبهجة !؟

انه زوجها رغم الحوائل كافة ، انه زوجها رغم ما خطر خاطرها من
خيائنه وغدره . . وهو والد اطفالها الخمسة ، ولو شاءت ان تعطن بيت
امها ، فهل يتسنى لها اصطحاب اولادها جميعا ؟

ومع ذلك فما انفكت طيلة الوقت تستعد ، وتعد الثياب وتجهز الامتعة .
وتعيد الترتيب من اوله ، فهل تخدع مشاعرها ؟ وكانت تزعم البقاء ، وتنوي
الرحيل في آن واحد ؟

واحست بزوجها يدخل ، فتغيبت بداها في خزانة للثياب ، وكأنها تريد
منها شيئا لاستكمال الابهة .

ووقف الرجل ، والتفتت هي اليه ، وعبرت نظرتها عن دهشة وتعجب
وحيرة ، مع انها كانت تود ان تطالعه بوجه مريد ، وعينين صارمتين
قاسيتين ، يفيض منهما الاحتقار والازدراء .

وقال بصوت خفيض لطيف امل هو ان يوصله الى نيل المراد :
« داريا . . »

واغض بظرفه محاولة منه الظهور بمظهر النادم ، وتاوه وكأنه
يتحسر على نعم ولي !

على ان حيوته لم يستطع ان يبدد من مظهرها ، ونشاطه عجز عن
اخفائه ، والعبير الذي كان يفوح من ملابسه وشعره ، الا يدحض هذا ما
حاول اظهاره ؟

وتفحصته زوجته وصعدت فيه نظرها ، فأحفظتها قوته وفتوته ،
وكدرتها ملامحه المرحلة التي تخلق له الاصدقاء والمحبين وعجبت فيما
بينها وبين نفسها من هذا الاشراق الذي لا يخبو .

أحنت عليه ، ولعل سخطها كان الحافز اليه غيرتها ، ولعله كان نتاج
الفارق بين نضرتها الدابلة ، وشبابه المتألق .

وقالت له بصوت سريع ، غير طبيعي : « الك حاجة ؟ أتريد شيئا ؟ »

فأجاب متلعثما : « أنا قادمة يا عزيزتي ، قادمة غدا » .

فتفتت محتدمة : « وهل يعني امرها ؟ دعها تأتي .. فهي اختك ! »

« ولكن حري بك أن تمكثي ، أن تربها ، أن تحدثها » ..

فصرخت دون أن تنظر اليه ، وكان صرختها كانت عن ألم جسماني

حاد « اذهب .. اذهب .. اذهب .. »

كان في وسع ستيفان أن يحتفظ بهدوئه حين يفكر بامرانه ، وكان يأمل

أن يصدق حدس ماتفي خادمه فترجع اليه راضية غافرة ، ويرجع هو إلى

جريدته هادئا مطمئنا ، ويستأنف شرب قهوته في دعة وسكون ، وينصت

إلى ضجة اولاده في حنان وابتسام .

ولكنه لما رأى وجهها المتعذب المتألم ، واستمع إلى نبرة صوتها المستسلم

للقدر ، أحس بشيء يقف في حلقه حتى ليكاد يكتم نفسه .. كما أن العبرات

لمعت في مقلتيه ، وكأنها توشك أن تسيل من عينيه .

وسمع نفسه بعد قليل يهتف متضرعا :

« داريا ناشدتك الله أن تشفقي ! انظري ! انظري ! »

فصفت داريا باب الخزانة بعنف وواجهته بنظرة صارمة ، ولم

تنبس بكلمة .

وأردف هو بنفس الهمجة : « ماذا أقول غير شيء واحد ؟ ماذا أقول

سوى إبداء الندم واستجداء المغفرة ؟ » .

وانتظر هنيهة وعاد يقول : « تذكرني .. تسع سنين قضيناها سويا ..

الا تستطيع أن تشفع لزلّة واحدة ؟ »

وأطرقت المرأة الموزعة الفكر إلى الأرض ، وهي تتوقع بل ترجو من

كل قلبها أن يقول شيئا يثبت به براءته .

ولكنه عوضا أن يتنصل اندفع يثبت التهمة بطريقة دامغة ، فقال :

« نزوة طارئة .. شهوة ساعة .. فس من جنون .. الا .. الا »

« أغرب عن وجهي ! »

« داريا ... »

« اذهب .. غادر الغرفة ، ولا تحدثني عن نزواتك وسقطاتك .. لا

تحدثني عن مجونك وفسقك ... »

وتحركت لتذهب ، ولكنها ترنحت في مكانها ، وكادت تسقط ، لولا
اسراعها بالامساك بظهر الاريكة .

واجهش هو ، وكاد أن يلرف الدمع ، وانشأ يقول مستعظفا : « داريا
اولادك اكيادك .. داريا ! فكري فيهم .. ماذا اقترفوا حتى تعاقبهم ؟
انهم ابرياء يا عزيزتي ، والمذنب هو انا ، فلا تقوضي مستقبلهم .. واني لعلي
اتم استمداد للقيام بما تفرضين .. قولي افعل ، مري انغد .. فانا الملام ،
وليس غيري .. فسامحيني واصفحي لي ! » .
فعمدت على الاريكة وهي تلهث من الاعياء ، ولهتت نفسه وتولته
موجة عارمة من الحزن والاشفاق ..

وبلدت الزوجة وسعها لتتكلم ، فلم تجد الى الكلام سبيلا ، فتعلمت
في مكانها وتلفتت وتالت .
وظاظا اوبلنسكي رأسه شأن المجرم المعترف ، ونكس طرفه كمن ينتظر
الحكم النهائي ، وانتظر ..
وتناهى اليه اخيرا صوتها المنهدج نائرا وانفعالا :

« ستيف .. ومنى فكرت بالاطفال الا لترجي وقتنا قصيرا معهم في
المبت واللعب ، اما انا ، فانا افكر فيهم بكرة وعشيا . انا ابغى خيهم
وساعمل على اتقاذهم .. » .
وتذكرت ان فكرة ايداء الاطفال قد عاقتها عن الذهاب .. واستعبرت
عينها . لقد ذكرت اسمه مصغرا - ستيف - ورتا هو اليها في شكر
وعرفان ، وتحرك ليتناول يدها ، ولكنها انكشيت على نفسها نافرة
واستتلت :

« لا انقطع لحظة عن التفكير في اطفالي ، بودي لو اقتديتهم بحياتي ..
بيد اني لا ادري كيف السبيل الى اتشالهم من الوحدة التي طوحت بهم
فيها .. اخلاصهم هو في اتزاعهم من ابيهم ، ام في ابقائهم مع اب فاسق
اناني ؟! اخبرني ، هل بعد الذي جرى امل في البقاء معا ؟ اتظن استئناس
تلك الحياة امر محتمل ، هل يمكن هذا ، قل ، هل يمكن ، بعد كل ما بدا
من ترديك في حماة الرذيلة ؟

وجعل الرجل يبلع ريقه في حيرة وارتيباك ، وقد اتقبض واعرض عن
زوجه اعراض المثقل بشعور الخزي .. وقال وهو يتجه بنظره الى الحائط :
« فما العمل ؟ ماذا استطيع الان ان اعمل ؟ »

وانحنت سعدته ، وغض بنظره .

فزمجرت مهتاجة : « يا للرجل الكرهه ! يا للزوج المقيت ! وما عبرانك
الا ستاراؤمك وخبيثك ! انك لم تحبني قط ، بل كنت متصرفا عسني الى
شؤؤك الخاصة وتظاهرك بالحب ، الا ناحية اخرى من نواحي خستك !
انت غريب عني .. غريب .. غريب ! »

وغصت ، واحتقن الدم في وجهها ما اصعب الكلمة ! ما اصعب الكلمة
تقولها لرجل عاشرته وعاشت في كنفه وانجبت منه اطفالها !

ودهش ستيغان لهذه الثورة الجامحة التي واجهته بها ، ولم يفهم
كيف اثار اشفاقه غضبها وحقها - لقد وجدت فيه شفقة عليها لا حبا ..
وجدت رثاء لا عشقا . وناجى نفسه والاسى يحز في صدره :

« انها تزدريني ، ويا ليتها تفعل بل انها تمقتني مقتنا عظيما ! » وطفق
يردد بصوت القائط المستسلم : « هذا مربع ! مربع ! »

ويكى في تلك اللحظة طفل في الغرفة المجاورة ، وربما يكون قد سقط
الى الارض ، واصاخت داربا ، ولائت نظرتها ورقت اساريرها ، وتحفزت
ثم نهضت مسرعة الى الباب .

واشرق وجه اوبلنسكي ، وراى في هذا التبدل المفاجيء نوعا من الامل
في عودة المياه الى مجاريها ، وقال يحدث نفسه :

« انها ام ، وهي تحب الاولاد - اولادي انا كيف تقتلونني ؟ »

وسارع يقول قبل ان تخرج :

« لي كلمة يا داربا ، كلمة فحسب » .

فحدجته بنظرة صارمة متوعدة وصاحت :

« اياك .. اياك .. لا تتبعني والا دعوت الخدم لاعرهم حقيقة

نفسك ، وانظلمهم على نذالتك ! »

وخرجت وصفقت الباب وراءها بعنف .

وتنفس ستيغان الصعداء وتعمغم باسمها :

« وقال ماتفي خادمي الامين ان الزمان كفيل بحل اعقد المشكلات ،

فكيف ؟ وقال انها سترجع من تلقاء نفسها ، فكيف ؟ لا امل في ذلك ، بلى ،

لا امل .. اواه ، كيف صاحت ، لا شك ان الخدم سمعوها وهي تصرخ بعلاء

فيها وتقول - ايها النذل .. هذا مربع مربع جدا ! »

وما عثم ان يخرج من الحجره ، فاستدعى ماتفي وقال :

« عليك يا مائقي ان تعد غرفة الضيوف لاقامة شقيقتي انا ، فلا تنس ذلك ، انها قادمة اليوم » .

قال : « لا تخش يا سيدي ، فاحسب لكل شيء حابه » .

والقى ستيفان معطفه على منكبيه ، ودلف خارجا .

وتبعه الخادم المعجوز وساله وهو يهم بركوب العربة :

« وهل نزمع العودة لتناول الطعام ؟ »

« قد افعل ، فيخذ هذا المبلغ - واعطاه عشر روبيات لنفقة البيت وكن

مقتصدا ! » .

« كعادتي دوما ! »

واغلق الخادم باب العربة ورجع ادراجه .

وكانت داريا في تلك الاثناء قد تدبرت امر الطفل الباكي ، وعلمت من

صوت العربة ان زوجها غادر البيت ، فرجعت الى مخدعها . وكان المخدع

ملجأها الذي تلوذ به هربا من متاعب البيت والاولاد حتى الخدم كانوا

يسبون لها الاما كثيرة .

واصابها خوف طاغ - لقد ذهب على الا يعود ؟ هل عزم بعد ان ينس

منها ان يفصم العرى ويقطع الوشائج ؟ ولكن لو سلمت جدلا بانه سرجع

ويقيم هنا واقم انا ايضا ، فهل يمكن ان ننسى الماضي ؟ اواه ! يا الهي ،

يا الهي ! » .

وظفرت الدموع من عينيها ومضت في نجواها : « لقد احببته ولا ازل

احبه ، بل ان حبي له تضاعف الآن ... »

وقطعت عليها حبل فكرها خادمتها « مائرينا فيلمونونا » وهي تفتح

الباب وتقول : « دعيني ارسل في طلب اخي ، ففي استطاعته تجهيز بعض

الاطعمة للاولاد ، وبذلك نجنبهم قضاء النهار طاووين ساعتين » . فقالت :

« اصعبت يا مائرينا ، فابعثي في طلبه .. ولكن ، هل جئت بالحليب ؟ »

وقاب من بالها انها غاضبة ، فائمهكت في اعمالها ، واقبلت على تصريف

شؤون بيتها واولادها .

كان ستيفان اوبلنسكي بالرغم من الكسل الذي عراه في الصغر ، قد

شغل منصبا ساميا في موسكو . وما كان توفيقه في حياته تلك الا بفضل زوج

شقيقتي أنا ودمي اليكسي كارين ، وكان قطبا من اقطاب الحكومة في ذلك
الحين .

وما كان ستيفان ليقتصر عن الظفر بمثل هذا المنصب لو لم يعنه
اليكسي في ذلك ، فثمة مئات غير اليكسي كانوا على تمام الاهبة ليقدموا له
المساعدة اللازمة .

فانصف اهالي موسكو وبطرسبرج كانوا من ذوي قرابته . واعسى
بالنصف ، جميع الطبقة المترفة التي تضع يدها على مقاليد الامور ، وتهيمن
على شؤون الدولة لهذا كان خليقا به ان لا يشقى في الحصول على ما ينبغي
شرطه ان لا يشرب بعنقه الى اعلى . . اي عليه ان يقنع بالذي ظفر به .

وكان ستيفان عند حسن ظن الجميع ، فهو مسالم بطبعه ، وينفر من
المشاحنات ، ويحرص على تجنب ما يريب ، حتى وفق بحسن اخلاقه الى
استلال كل حذر ينوب رئيسا او مرؤوسا .

كان يصدف عن المجادلة ، ويتعد جهده عن المناقشة ، ويتكلم بلسان
خاضع وصوت لطيف . . ويضحك في وجه كل انسان ، ويعفو ويصفح مهما
كانت الاساءة بالغة ، ثم انه كان شابا ، مرحا ، يوحى بريق عينيه ببياض
قلبه .

حتى ان كل صديق كان يقابله بتحية حارة ، فيقول : هذا انت يا
ستيفا . ويتشم الصديق ابتسامة مخلصمة وبربت على ظهره متوددا
متحبا . واستطاع ابان الايام الثلاثة التي قضاها في الوظيفة ان يوظف
مركزه في قلوب الجميع ، وان يدمم مستقبله بطريقة فعالة . . فهو يفضي
حتى لا يجلب المضرة للغير والقدر لنفسه . . وهو يتواضع حتى لا يتضاعف
كرهه الفطري من التعالي والعجرفة . . وهو يحب الجميع ويحب نفسه . .
كان اولينسكي كما قلنا يحيا حياة سطحية ، كان يحيا بجسمه مع
زوجته ، وقلبه فارغ من الحياة . فلما وقعت الواقعة ، ومضى في ذلك الصباح
المشؤوم الى مقر عمله ، كان شارد اللب زائغ البصر يضرب اخماسا
باسداس ، كمن يظهر شيئا ويريد غيره .

فلما دخل مكتبه حياه الجميع ورحبوا به . ثم دخل عليه شاب كان
اشدهم ظرفا ، فمثل بين يديه ومرض عليه مختلف الاوراق .
واتمت اولينسكي او تظاهر بالاتصاف ، ولكنه لم يفقه ما يقوله
الشاب ، بل مضى يهجنس في مصيبتته ، ثم تاجى نفسه باسم :

« او استطيع ان اعمل ؟ او اطلع هؤلاء الشبان على جريرة رئيسهم ،
واستطاعوا ان يروه وهو يقف في مدلة امام زوجته لكان موقفهم مني غير
موقفهم ، ونظرتهم الي غير نظرتهم »

ومضت الساعة ، ثم دخل عليه في ساعة الظهر شاب مديد منتصب
بدل مظهره على القوة والعزم ، ينبي سيماه بالصراحة والحزم .
وما كاد ستيفان يشعر بمقدم الرجل حتى انتصب واقفا ومد له يده
مصافحا ، وقال : « على الرحب ، على الرحب ، متى قدمت ؟ »
فاجابه الشاب : « مند يسير وها انذا آتي اليك ؟ » .
وصمت فينة ثم اتم :

« ولي عندك مارب ، فهل لديك فسحة من الوقت لتسمع ما اقول ؟ » .
وكان هذا الشاب ، يدعى ليفين وهو اقرب اصدقاء ستيفان الي قلبه .
فقد تبادل الشبان الحب وهما طفلان ، ولما ترعرعا وشبا عن الطوق ما حض
الواحد منهما الآخر الود والصفاء . وعمل ستيفان في الحكومة ، اما
صديقه ليفين ، فقد فر هاربا من موسكو ، واتجع الريف حيث عاش هائنا
سعيدا مرتاحا من مشاكل المدينة ومتاعبها .

ولما استتب بالشاب المقام عاد ستيفان يقول بلهجة تشف عن طبيته
وصراحته : « اني سعيد برؤيتك يا صديقي ، فآين كنت ؟ وما الذي حبسك
عنا ؟ » .

فاجاب ليفين : « كنت في الريف كما تعلم ، اما مشاعري فقد كانت
في موسكو ! »

« سنتناول طعام الغداء اليوم » .

« بودي لو قدرت ، وما سوف اقله لك ، لا يستغرق بشه اكثر من
دقائق » .

« قل ما تشاء بايجاز ، ثم باسهاب حول مائدة لعشاء »
فتعلم ليفين متخرجاً ، ثم تخرج وجهه حياء ، والجسم لسانه ..
ولكنه استجمع قواه بعد جهد ، وقال وهو يطرق :
« اردت ان اجتمع اليك لآخبرك اني .. اني ! .. »
وصمت كان القول ارتج عليه ، وما عثم ان اردف بقول :
« لن اكثر القول فيما لا منفعة فيه ، فماذا تستطيع ان تزف الي من
اخبار الامير شريانسكي ومائلته . قل كل شيء ! »

فضحك اوبلنسكي ضحكة المرح ، وكأنه نسي مشكلته المستعصية
وقال :

« انهم على خير ما يرام » .

واستعرض في ذهنه صورة كاترين ابنة الامير وشقيقة داريا زوجته ،
وفكر في تعلق ليفين بها وتدلله بحبها .
وصعد في صديقه بصره ، ثم بش ثانية وقال بوجه طلق :

« ان شئت رؤيتها ، فما عليك الا ان تؤم حلبة التزلج في حديقة
الحيوانات . . فهناك تجدها ، هناك تلقى كاترين كل يوم قبل الاصيل ،
بين الثالثة والخامسة ! »

فاستشعر ليفين الانشراح ، وشعث عيناه بنور الجبور ، ولكنه تنبه
الى عيني صديقه المترقبين ، فتضرج وجهه ، وايقن ان شوقه قد فضحه .
ولكنه انشأ يقول وهو بغالب حياءه : « وسألتك هناك اذن في الحلبة . .
اليس كذلك ؟ »

قال : « اجل ، اجل . . وسنتناول طعام العشاء معا فيما بعد »
وانسرى هم ليفين ، وتلاشى اضطرابه ، واقبل على صديقه بصافحه
ويشكر له صنيعه . وما ابظا ان انصرف لا يلوي على احد ، وقد انحى على
نفسه باللائمة ، وعذلها على ترددها وخورها وحياؤها . . . وعنف تلك النفس
الخائرة على فقدائها معاني الشجاعة ، والا لكان ابتدر صديقه اوبلنسكي
بالواقع ، وقال : « ما جئت الى موسكو الا لها ، وما جشمت مشاق السفر
الا لاكحل عيني بمرآى كاترين ، فما قولك ؟ » .

كانت عائلتا « شربانسكي » و « ليفين » من العائلات القديمة المعروفة
في موسكو ، وكان بينهما من اواصر القربى والصدافة الوشيحة ما جرى
مجرى المثل . وقد توثقت عرى المحبة والالفة بين ليفين الشاب ونيقولا
شربانسكي ، شقيق داريا شقيق الحساء كاترين التي افتتن بها ليفين .
والعجيب في الامر ان ليفين تعثر قلبه في هوى داريا قبل زواجها ثم
لم يلبث ان تحول الى شقيقتها .

وظفق من بعد بتردد على بيت العائلة ، وهو يحاول ان يحوز مغنما ،
ولم يزل ألم لها من ظلها كلما ام موسكو ، حتى ايقن الجميع انه لا بد
متقدم الى اولياء امرها لخطبتها ، وانه لن يلبث طويلا حتى يطلب يدها .
ولكنه وقد لزمها شهرين ، وراقبها عن كثب ، وسبر غورها وأصفي

لحديثها راعه ما رآه من سمو خلقها ، وحصافة تفكيرها ، والتزامها جادة الشرف والاستقامة .

ولما من الله عليه بتقوية نفسه ، أفاق من غيبوته التي رماه فيها الحب وعجب كيف داخل حسه وتفكيره ان كاترين لن تحبه قط ، ولن تقبل به زوجا كما ان افراد عائلته سر فزون طلبة ويردونه خائبا . اليس هو شاب ينتمي بعمله الى طبقة الفلاحين ، اليس هو شاب منسي ، لا تتعرف عليه اندية موسكو الفيلية الا يعني بالسامة ، فريبها ويتمهدا ويتاجر بها : فأين هو اذن من كاترين ؟ وأين مكانته المرموقة في الحكومة ؟

فما ان قفل راجعا الى موسكو حتى هاج الحنين بلبه ، وشارت كوامن شوقه وحنينه ، وعزم وقد دثفته هذه التباريح ان يستطلع محبوبته، ولكنه رأى أهلها في شخصيته ، وليفعل الله ما يراه امرا مقضيا ، ليقتضيه عليه بالذي يراه . وقرر ان يتقدم من أوبها فيطلب يدها ، فمن يعلم قد بكرمان وفادته ، ويستجيبان الى طلبه ، فيحققان بذلك سعادة قلبه !

فاذا رفضا ، واذا رفضت ؟

وبلاه ! ماذا هو صانع ان رفضوا ؟

وطرد من رأسه هذه الافكار ، وفوض أمره الى الله !

استقل ليفين العربة في الساعة الرابعة ، وترجل منها في مكان بعيد من حلبة التزلج ، ثم مشى اليها بخطوات بطيئة مترددة ، حتى لا يهدم بحيائه وتردده ما سعى اليه للمرة الأخيرة ، وحتى لا يندب . المستقبل نفسه التي أضاعت بجنينا منية قلبه وهناءة روحه . . وقد يقيه الله ، ان أقدم ، مرارة الخيبة ، فينجبه من العثرات ، ويوصله الى شاطئ السلامة .

وقال وهو يشرف على الحلبة : « وبك يا نفس ، لا ترامي ، وازدري الخوف كما ازدويت من قبل زخرف الحياة !
وضعت ثقته بنفسه ساعة ظهر الناس لبعصره .
وأيقن من لمحات فكره واضطرابات احساسه ان حبيبة قلبه موجودة لا محالة .

فمن ، من يوصله الى الامام متقلبا على حيائه وفزعه .
وما هي الا دقيقة حتى بدت له كاترين ، وتراوت كاتها وردة بين حشائش

وكل شيء سطم حولها ! وكانت كالإبتسامة التي أضفت النور على من يحيط بها .

« فهل يمكنني ان اسير اليها ! هل أجرؤ على الاقتراب منها ؟ » جعل ليفين يناجي نفسه .. وخيل اليه ان المكان الذي احتلته ما هو الا محراب مقدس لا يرنى اليه احد .. واستحوذ عليه الهلع ، وانثنى يزعم الرجوع من حيث أتى ولكنه تغلب على خوره ووهن عزيمته ، وتذكر وهو يتسم ابتسامة فائرة ان غيره يحوم حولها رغم ضيائها وبهاؤها وروائها ! ومشى من بعيد ، مشى لدقائق عديدة يرنو ولا يدنو ، ويختلس النظر ولا يتقدم !

وفي مثل ذلك اليوم من كل أسبوع كان يؤم حلبة التزلج خليط من الناس . كان منهم أبطال اللعب على الثلج ، وكان منهم المبتدئون . وكان منهم الباحثون عن الشهوة .. ورمق ليفين حبيبة قلبه ، وتفرد في القوم الآخرين ، وأيقن ساعتذاك انه يحبهم جميعا ، لانهم يحيطون بها احاطة الهالة بالقمر .

وبينما هو منصرف الى هواجسه وافكاره ، اذ بقائل يهتف :
« هذا هو بطل روسيا الاول في التزلج ! فمتى قدمت يا ليفين ، وكيف ؟ لم نسمع بقدمك ؟ »

وكان المتكلم يدعى « نيكولاي شربانسكي » وهو ابن عم كاترين . واقتربت كاترين في حذر كأنها تخاف السقوط ، ووجف قلب ليفين ، وطفق بتأمل صامتا في هذا الحسن الرائع .. ثم صعد طرفه الى عينيها اللتين تنطقان دوما بالطيبة والاباء والصدق .

وقالت بصوتها الحنون الهادي :

« ومتى قدمت موسكو ؟ وأعطته بدعا ، واستتللت وهو يقدم لها مندبلها الذي سقط منها : « لك شكري وامتناني » .

قال : انا ؟ لم أت .. الا .. الياحة .. اعني اليوم .. وكنت انوي زيارتك ! « وكأنه تذكر انه كان هازما على الاجتماع اليها ، فتخرج وجهه حياء !

وتأملت شفتاها بابتسامة ساحرة خالصة ، فمادت الارض تحت قدميه ، ولكنها انقلته فقالت :

« انا جد مسرورة بمجيئك ! »

فقال : « لم أكن أعلم انك ماهرة في التزلج ؟ »

فتعنت في وجهه ، وكأنها تروم سبر غوره وما لبثت ان اجابت :
« لئاه علي ، له قيمته ، فكل امرىء يصرف انك امهر من تزلج في
موسكو » .

فقال : « لقد استهوتني هذه الرياضة ، وملكت لبي ، لهذا عزمت منذ
زمن على التفرغ لها والتعرس فيها » .

فاجابت ضاحكة : « كل ما يستهويك تصر على نقله كما ارى ،
فاهل ، ضع في رجلك عدة التزلج ولتلعب معا » .

وفكر ليفين نزلج معا ! انا وهي ! هل اصدق سمعي !
وما عثم ان ذهب الى مكان استبدال الملابس . فرحب الخدم وجاؤوا
اليه بما اراد ، وساعده على الاستعداد . ثم خرج الى الحلبة ، فدنا من
كاثرين بخضوع العبد وورقته . ولكن ابتسامتها شددت قلبه وعزمته ،
فامسك يدها وانساب معها على الثلج ببطء ثم بسرعة متزايدة .

وبرعت عينا الحسناء وجعلت تضغط على يده وتقول : « معك استطيع
ان ابد قيرى ، قالت حقا من امهر من تزلج . اما تراني كيف انساب دون
وجل ؟ »

فاجاب : « وانا اشعر بالثقة وانت بجائبي ! »

وقد اثرت هذه الكلمات على الصلة التي تربط بينهما ، فهي ما كادت
تسمعها وتفهمها حتى قطبت حاجبيها ، وفقد وجهها تلك المسحة الواضحة
من الصداقة . ورأى ليفين ذلك ، فابقن انها تفكر ، فقال مترددا : « ائمة
من يزعبك ! هل هناك ما يقلق بالك ؟ » .

فاجابت بشيء من الجفاء :

« لا ، لا شيء البتة ! »

وصمتت ثم استتلت :

« وهل ترمع المكث في موسكو طويلا ؟ »

فاجاب :

« لا ادري ! »

« وكيف لا تدري ؟ بين لي ما تقول ! »

« لا ادري متى ارحل ، لان ، رحيلي ، مسألة لا يبت فيها قبل التثبيت

من امرك !

وأجفل .. وعجب لاقدامه على الانصاح عما يخالجه من مآرب
واوطار ...

فلما سمعت الحسنة ذلك ملت فيه نظرة متاملة متفحصة ، وكانها
اجمعت أمرها على تغيير الموضوع فقالت وهي تشير بيدها :

« هذه امي قادمة ، ألم تراها »

وذعر الفتى ومد يده في شرود فصافح المرأة الكهله ، وحنى لها راسه ،
وهو لا يعلم ان كان قد جنى من تهوره خبرا ، وان كان أجدر به لو انعم
النظر قبل ان يصنع ما صنعه حتى ترضى محبوبته ، فتقر لرضاها عينه
وارتفع صوت الام يقول :

« ما ارى فيك الا الاجتهاد في الابتعاد والانزواء ، وليس لك في نفوسنا
يا سيدي الا الشوق والاخلاص ! »

فأحنى راسه ثانية ..

واردفت وهي تنثنى الى ابنتها : « علم يا كاترين ، فقد حان وقت
الذهاب »

ثم عادت تحدث ليفين بلهجتها الجافة :

« واتنا يا عزيزي نستقبل الضيف في يوم الخميس من كل اسبوع »

فقال : « يوم الخميس ! اليوم ... »

قالت : أجل اليوم ، واعلم اننا نسر بمجيتك ، ان طاب لك المجيء ! »

وفكرت كاترين في امها وكلامها المقتضب ، فاشفقت على الشاب ،

وقالت في دعة :

« ولن تسول لك نفسك ان تمتنع عنا ، فالى اللتقى اذن في بيتنا »

وهمت بالمضي مع امها ، الا ان ستيفان اوبلنسكي وصل في تلك

اللحظة ، فتربثت الام وطلبت اليه ان يحدثها عن ابنتها زوجته .

فلم يجد الرجل بدا من كتمان ما شجن بينه وبينها ، وزعم لها انها

على خير ما يرام وليس لها حاجة الى مزيد من سعادة وهناء .

وانبسطت اسارير المرأة لما بلغها هذا القول ، فرمقت زوج ابنتها

بنظرة الاعجاب والشكر ، وذهبت مع ابنتها مولية وجهها شطر البيت .

وابتمها ستيفان بعينيه ، فلما غابا عن بصره تابط ساعد صديقه ليفين

وقال :

« لقد سمعت كلاما لم اصدق فيه كثيرا او قليلا .. »

وضحك مقهقها وأردف :
« هيا بنا .. هيا بنا .. فلك علي حق الصديق ، ولي عليك حق
الإطلاع على ما جرى وما سوف يجري !

ومشيا صامتين ، ثم استقلا العربة الى مطعم فخم ، ولجآه وانتبذا
ركنا متعزلا منه .

ولاحظ ليفين وهما يدلغان الى المكان ان وجه صديقه ينم عن
اضطراب فحدثته نفسه ان يستفسر منه عما يشغل له ، ولكنه أرجأ ذلك ،
وجلس مع صديقه وطلبا من التدل ان يأتيهما بكأسين من الخمر . ثم ما عتما
ان طلبا الطعام .

« هل تزمع الليلة الذهاب الى منزل كاترين شريباتسكي ؟ »
فاجاب ليفين : « أجل ، اني ذاهب ، مع انه تراءى لي ان الاميرة الام
قابلتني بوجه منقبض ، ودعتني الى زيارتها »

« لا تعجل في الحكم ، فنلك عاداتها ، تقطيب مزمن ، وانا الآخر انوي
زيارة القوم ، الا اني سآني متأخرا بعض الشيء .. والان أخبرني ، كيف
تسول لك نفسك مبارحة موسكو في المرة الاخيرة ، فما أكثر ما سألني
عك الاصدقاء ، وخاصة أسرة شريباتسكي .. وكنت اتهرب من الجواب
لحيرتي فيما يكون الجواب ! انت نسبح وحدك في اطوارك وأعمالك
وأفعالك ؟ »

« لا انكر ما جبلت عليه يا صديقي .. وعودتي الفجائية اليوم لابلغ
دليل على شذوذي .. لقد عدت ، عدت من أجل .. »
فقاطعه اوبلنسكي : « لكم أعبطك على حظك المشرق ايها الصديق ! »
وحقق الى عينيه .

« لماذا ؟ »

فقال اوبلنسكي ضاحكا :

« أعرف الجواد الاصيل من خطواته .. »

واستلنى : « والفرصة متاحة لك فاقدم ؟ »

« وانت ، اولت فرصتك في الحياة ؟ »

« كلا ، بيد ان المستقبل لك والحاضر لي .. الحاضر - ماذا اتقول ؟
قد تقع اعجوبة » .

« ماذا تعني اوضح ! »

« أحيانا تنعكس الريح على حين غرة .. على اني لا ارجب في التحدث
عن نفسي ، ولو اردت لما تسنى لي رسم صورة صادقة عن الحالة .. والان
اخبرني ما جاء بك الى موسكو ؟ »

فحدد الفتى طرفه في وجه اوبلنسكي واجاب :

« ألم تحزر منذ دقائق لقد اصاب حدسك ! »

« لا انكر اني علمت من الوهلة الاولى مايرك هنا ، بيد اني لم اتكلم ،
لانك الفريق الذي يخلق به ان يستهل الكلام . »

فاضطرب ليفين ، وصعد الدم الى راسه وقال :

« فما قولك اذن ؟ وكيف تنظر الى المسألة ؟ »

فجرع ستيفان اوبلنسكي ما تبقى في كأسه واجاب :

« هذا جل ما اتمناه ، اتمنى ان تبلغ وطرك »

فنظر اليه ليفين نظرة من غشية الامل والالم وقال متسائلا :

« اتمحضني كاترين الصدق ؟ ابادلني المحبة ! »

« اني لك ما حض كل اخاء يا صاح ، فاطمئن الي ، واعلم اني بامررك

عليم ! »

« وهل يستوي لي الامر ؟ »

« لا نتطايير ، فكل شيء جائز في الدنيا »

« لا تتعلق بخيوط الاوهام ، بل اخبرني صراحة ، هل تظن اني لسن

ارجع بخفي حينئذ ! هل ترجع القبول ؟ لشد ما اخاف الرفض . »

« ترهات ... »

« كلا ، كلا .. بل ان الرفض يضيرني ، وهو كذلك يحمل الاذى

لها . »

« ولم ذلك ؟ وهل تضار الفتاة متى كثر الراغبون في زواجها ؟ »

قد ينطبق ذلك على سائر الفتيات ، اما هي .. فلا .. لا ..

وابتسم ستيفان .. وقرأ افكار ليفين ، وايقن ان العاشق المتيم يقسم

فتيات العالم الى قسمين : القسم الاول ، جميع الفتيات الاها ، وهن

متصفات بالضعف البشري ، والخور ، والقسم الثاني : هي وحدها ،

القوية !

واستتلى ليفين يقول :

« واعلم ان المسألة ، هي مسألة حياة او موت بالنسبة لي . ولم يسبق ان بحث بسري لاحد قبل اليوم ، الا لك وحدك ، نحن ضدان في الطبع والعادة الا اني موثق بانك تحبني وتفهمني ولهذا تراني كلفاك واناشدك الله ان تصدقني القول ، كن صريحا معي ! »

فقال اوبلنسكي ضاحكا : ألم اكاشفك بما اراه واعتقده ؟ وازيدك الان فالبك ان زوجتي امرأة مدهشة . ولها القدرة على التكهن بما تأتي به الايام ، انها ترجم بالغيب وخاصة فيما يمت الى امور الزواج .. وهي تظاهرك الان وتحمس لك .

« اوضح ، اوضح .. »

« انها تميل اليك ، كاترين ستكون لا محالة زوجتك »

فأبسطت اسارير ليفين ، ولكنه كتم ما داخله وصاح بصوت متهدج منفعل :

« هذا ما تقوله ؟ اننى دائما جهوت برأى فيها - في زوجتك - انها امرأة رائعة مثالية . »

ونفض واقفا ، وجعل يذرغ ذلك الركن جيئة وذهابا ويقول :

« واعلم ان ما أشعر به ليس حبا ، انه قوة خارقة استولت على مشاعري ، واحاسيسي ، وارادتي .. وقد اختفيت من موسكو ظنا مني بان ما أتطلع اليه هو الثريا . وخلفتني الذكرى حليف عمرك ممض . »

واترورقت عينا ليفين بالدموع ، فقطع حديثه حتى يكفكفها ثم جلس ثانية ازاء صديقه واستغرق في الفكر .

وتعملل اوبلنسكي في مقعده ، وقال بصوت هادىء رصين :

« ولا بد من ان تطلع على جميع الامور يا ليفين : فهل لك سابق معرفة بالشاب « فرونسكي » ؟ »

« كلا ، لا اعرف ، فمن هو ؟ ولم السؤال ! »

« لان في نفسه حاجة .. لانه طالب زواج .. بصره وقلبه مطمئهما كاترين . »

واستحال وجه ليفين في مثل لمح البصر من النضرة والدعة ، الى الامتقاع والاحتدام والتوعد حتى ان ستيغان بهت مما رأى ، وسارع يقول : « وهو تجل الكونت « ايغان فرونسكي » - فتى شرائق بشده مرآة الناظرين

وهو كإبيه جواد لا ضهي له في بطرسبرج ، وقد تقابلنا في « تغير » . ونفود
لا يقارنه نفوذ في البلاد .. وتقدمه في مضمار السياسة والمراتب العليا امر
لا يشك فيه انسان ! »

نفحق قلب ليفين ولكنه لم يجر جوابا ، بل اخذ الى الصمت مفكرا .
واستمر ستيفان اوبلنسكي يقول :
« وجاء عقب رحيلك الى موسكو ، ففتنته الفادة واستولت على لبه .
وهو الآن غارق في حبا ، وانت تعرف ان امها .. »
فقاطعه ليبن : « كلا لا اعرف شيئا ! »

لا تسلم امرك للياس ، فما كان لي محيص عن كشف النقاب عن
جميع ما اعرف ، حتى تكون على بينة من امرك ، فتنصرف تصرف العارف
الملم . وانا ان اردت ان اسمع مني رأيي ، اعتقد يقينا ان كفتك هي
الراجحة ... »

وانم اوبلنسكي :

« وازجي اليك النصح في المبادرة الى اتمام الامر ، الليلة .. الليلة .. »
« شكرا .. لا اريد ان ازيد ، حتى لا تصعد صورة الشراب البسي
راسي . هلا اخبرتنني عن نفسك شيئا ؟ تكلم ايها الصديق ، قل لي
اخبارك » .

فلم يكثرث اوبلنسكي بكلماته التي اراد منها تغيير دقة الحديث ، بل
انشأ يقول :
« اجل ، انصحك بالتقدم الى امها في طلب يدها دون ان توجه المسالة
الى الغد ! »

فقال : « الا تاتي الينا في الربيع للتمتع بمباهج الريف ومزاولة الصيد
الذي حبستك منه شواغلك ؟ » .
ولا شك انه ندم كثيرا على اطلاق ستيفان اوبلنسكي على سره ، وخيل
اليه الزهو ان كرامته قد جرحها وجود منافس له في حب كاترين .
وقطن ستيفان الى ما دار في خلد صديقه من عوامل الندامة ، فتبسم
وقال :

« وسوف آتي في احد الايام ، تغير ان النساء با عزيزي هي المحور
الذي تدور حوله الدنيا بأسرها ، وعقدي في الوقت الحاضر كثيرة ، والسبب
في كارنتي هي المرأة .. »

واشعل ستيفان سيجارة واستطرد يقول :
« هب اناك رجل متزوج ، تحب زوجتك ، ولكن امرأة اخرى تستولي
على قلبك » ..
فعارضه ليفين قائلا :

« اصفح لي ان اعترضت عليك - فاني لا استطيع ان استوعب ما
قلت الان » .

فبرقت عيناى ستيفان اوبلنسكي اكثر من المعتاد وقال :
« ان زوجتك تتقدم في العمر ، انها تفقد رونقها ، وتخلف فتننها
ورائها ، بينما تحتفظ انت بحيويتك ورغبتك وشهوتك .. وقبل ان يسمح
لك الوقت بالالتفات الى الخلف ، تشعر بأنه يتعدر عليك بمبادلة زوجتك
الحب ، وعلى حين بغتة يتغلغل الحب من جهة ما الى قلبك .. وتلم
المصيبة ! » .

و تنفس ستيفان الصعداء من شدة الكرب واستطرد : « لقد قضى
عليك اذن متى وقعت ، فما العمل ؟ » .
فقال ليفين بإبتسامة عابسة :
« لا تسرق الخبز ! »

فاستغرب ستيفان ضاحكا وكأنه نسي مصيبتة ، وقال :
« لا تلجئني يا ليفين الى مبادلتك بدعابة ، فالموقف يستوجب الروية
هناك امرتان ، احدهما تطالب فقط بحقوقها ، وهذه الحقوق هي حبك
الذي لا تستطيع ان تتبرع به لاي كان والاخرى تضحي كل شيء من اجلك ،
ولا تطلب منك شيئا فماذا با ترى تفعل ؟ ان في هذا الامر مأساة » .

« لو عشت برأي ، فاني اقول صراحة ان لا وجود لهذه المأساة ، ان
الحب بحسب وجهة نظري .. الحب المتفرع الى فرعين الذي يضعه افلاطون
كمحك الرجل لا يفهم فرعيه احد ، بل هناك فريق يفهم هذا وفريق يفهم
ذاك .. اما اولئك الذين لا يعترفون بالحب الافلاطوني المجرى ، فليس لهم
ان يتكلموا عن المأساة ووجود المأساة لانه لا يعوزهم اكثر من بضع كلمات
يقولونها في مجال الترشية والاسترشاء ، كان يقولوا للمرأة المنكودة :
« لك منا ابلغ شكرنا ، فقد سرت لنا متعة ولذة وشهوة ! » .

« وكذلك لا ينطوي الحب الافلاطوني على المأساة ، لانه حب تقي ، طاهر
خال من الشوائب ، ومثل هذا الاحساس المصفى لا يمكن للمأساة ان تتغلغل
اليه ، او تتعرع فيه ! » .

واسترسل الانان في الفكر ، ولا ريب انهما بالرغم من الصداقة الوثيقة العرى التي تربط بينهما ، شعرا بالابتعاد والتناهي ، بل خيل الى كل منهما ان الآخر غريب لم يره من قبل وانه ذو مطامح ومطامع وميول . ولم يجدا مندوحة في نهاية الامر ، وقد ضاقا ذرعا بالصعمت الا ان يبرحا المكان ابقاء على ما ربط بينهما من الفة .

لا يختلف اثنان في ان كاترين شربانسكي زهرة اكتمل طالعها وسطع عيبرها ..

وما كانت امها لتصدق ، لولا وقوفها من المجتمع عن كذب ، ما لاقته كريمتها من اعجاب في الوسط الراقى ، فما من شاب في موسكو الا وزاره طيفها مرارا .

وسرعان ما برز الى الامام شابان من خيرة الشباب ، هما ليفين الشاب القوي الجاد ، والكونت فرونسكي المترف الاثيق .

ولم يكن ليفين من رهط اللهو ، بل كان طالب مصاهرة .. فما كاد يظهر رغبته في ترده على بيت كاترين ، حتى فطن ابواها الى اكتمال انوثتها ونضوج جمالها ، وحتى آلى كل منهما ان يبحث عن اكرم صهر ، لتسدوم بذلك سعادتها !

الا ان رغبتهما تشعبت ، وامر زواجهما من الرجل الافضل اثار بينهما عاصفة من الشجار والمشاحنة .. فالاب يعيل كل المبل الى ليفين ، ويرى فيه مثال الرجل الصالح الكريم .. والام .. هي الام .. وقبل ان تكون كذلك ، هي امرأة .. ومن عادة المرأة ان لا تستقيم على امر ، بل من شأنها ان تعاطل وتسوف وتتردد .

فكرة تقول : ان كاترين طفلة لم تبلغ طور الشباب ، واخرى تزعم ان ليفين محتار في امره ، يقدم ثم يحجم ، وان كاترين لم تظهر نحوه اي حجب وقد جابهت زوجها اخيرا برفضها ، واخبرته صراحة ان اخر زوج تمنناه لابنتها هو ليفين !

ودرى ليفين بما شجر من خلاف بين الزوجين بسببه ، فارتحل عن موسكو وكان رحيله البشير بزوال الغمامة التي ظلت سماء البيت السعيد ردحا من الوقت ولم تكتم الام فرحتها .

ولما بزغ نجم الشاب فرونسكي في موسكو ، وغدا مطعم انظار الحسان

تضاعف ارتياح الام الى ذهاب ليفين ، وجعلت تحتفي بفرونسكي وتظهر له الشيء الكثير من ضروب المودة .

فمن الذي يجرو على مقارنة بينه وبين ليفين ؟
كان ليفين خشنا ينفر من الناس ، ويبتعد طاقته عن المجتمع .. كان يعني بسائلته اكثر من عنايته بالناس . وكانت حظائر الخنازير ادعى لهثاته وراحته من ردهات الاستقبال !

ثم ، هل عزم على امر ، هل تقدم طالبا يد كاترين ؟ كلا . لم يفعل شيئا من هذا القبيل ، مع انه غشي منزلها اسبوعا واسابيع .. لقد تردد كثيرا ، وكأنه يضمن عليهم بهذا الشرف ، وكأنه يعتبر نفسه اعلى مرتبة منهم .. وكأنه لا يريد ان يفهم واجبه الذي يفرضه عليه العرف والعادة . وعلى حين فجأة يلوذ باذيال الهرب - يفر من المدينة ، لحوف غشبه من كاترين وعائلتها .

وعلى تقيضه كان فرونسكي - فهو في رايها الشاب السعيد الذي رزقه الله من العقل افضل الحظ . وبلغ الرتبة القصوى بافعاله وخصاله ! وقد انطعت في ذهنها صورة رائعة له كزوج لابنتها . وهو فوق هذا ضابط رفيع في البلاط ، ومستقبله في المجال العسكري يبشر بكل تقدم .. وحدث ولا حرج عن حسن طلعته واناقة مظهره .. وهذا ما ترغب فيه المرأة وتنوق اليه !

ولما فرغت مما ارادت من تكوين الراي ، بدأت تنظر اليه نظرها السي صهرها وتظهر كثيرا من ضروب الحفاوة والسرور ، لما جاء زائرا ، فتحيطه بعنايتها ، وتعمد له سبيل الخلوة بابنتها .. وقد وقعت كاترين في قلبه موقعا حسنا فهو لا يفارقها كلما اجتمعا في حقل ، وهو لا يراقص سواها ، وهو ينظر اليها نظره الى سيدة محترمة جديرة بالتقدير والتبجيل ، خليفة ان يتخذها الانسان له خليفة .

واستبشرت الام ساعة لمح لها الشاب برغبته . ولم يقل لها مباشرة انه يهوى ابنتها ويود لو بنى عليها ، بل قال من الكلام ما فهمت من فحواه انه يصبو الى تحقيق هذه الامنية .

فقد انتهز فرصة انشغاله بالحديث مع الفتاة ، فقال لها بانه لا ينقض راي والدته ، بل يستشيرها في كل صغيرة وكبيرة ، وان والدته ، آتية عن قريب الى موسكو ، وسيأخذ رايها في امر على جانب عظيم من الخطورة !

اليس هذا من قبيل التلميح ؟ الا يعني بكلماته انه تواق الى مباحثة
امه في امر زواجه من كاترين ؟ !

ولم تحدث كاترين مغزى كلماته ، بل انها نقلت عبارته لامها ، فما
كان منها الا ان مدحته واظرت شمائله وصفاته .

ولهذا ، فلما رجع ليفين الى موسكو حتى تولى الام قلق وانزعاج ،
وآلت ان تحول بينه وبين كريمتها ، حتى ولو قدر ان يجمع لها بين شرف
الدنيا والاخرة !

وقد جرى الحديث التالي بين الام والابنة اثناء اوبنتهما من حلبة
التزلج ! قالت الام متسائلة : « ومتى عاد ليفين لاهل تثبت من امره ؟ » .
انه جاء موسكو اليوم يا اماء .

« ثمة شيء اود ان اطلعك عليه .. »
فقاطعتها الفتاة ووجهها يتفرج حياء : « اماء ، ارجوك ان لا تقولي
شيئا ، فانا اعرف كل شيء ! » .

كانت رغبتها متففة مع رغبة امها ، المتها . وقالت الام : « وددت ان
اقول ان بعث الامل .. »

« ارجوك ، ناشدتك الله ان لا تفعلني ، فالتكلم في هذا الامر يكرهني ! » .
« لا تراعي يا حبيبتي ، لا تبكي ، فلن اتكلم مع انك طالما اكدت ان لا
يكون بيننا سر مكتوم » .

« كلا ، لن يحول بيني وبين قلبك امر يا اماء ، ولكنني لا اعلم ماذا
اقول ، ولو شئت الحديث لجهلت من اين ابدأ ، ولو خبرت بين امرين لاحترت
ولم اختر ! » .

انها صادقة . وابتسمت الام وهي ترمق ابنتها بنظرة المحبة
والاعزاز وتفكر فيما هي مقدمة عليه من زواج ، داعية الله فيما بينها وبين
نفسها ان يشهد امامها طريق السعادة والسلام .

* * *

بعد العشاء وفي الفترة التي سبقت الحفلة الساهرة كان شعور كاترين
اشبه بشعور الجندي المقبل على المعركة . وابتغت ان مستقبلها سيقرر
في تلك الليلة متى التقيا - متى التقى الشابان - فالتقاؤهما في صعيد واحد
هو كما ابتغت نقطة التحول في حياتها ..

وارتعتت من الهلع ، وانشأت تفكر في كل منهما على حدة وتقابل بين الدين .

وأثار ليفين حنانها وعطفها ، فهو صديق قديم ، صديق مخلص حميم وان لم يتمد الشعور نحوه فيخترق نطاق الشفقة والرأفة ، والتأسف على شيء لا تكن حقيقته .

أما فرونسكي فقد طلق قلبها بغموضه ، ولعل وراءه وحسن ديباجته خلقا في مخيلتها البكر نوعا من الاعتقاد الراسخ بأنه قادر على اسعادها ، فهو كما تراهي لها قد اجتمعت فيه خصلتان حميدتان - الجمال والكمال - وبهاتين الخصلتين يستطيع ان يركن الى حياة رضية رقيقة .

وصعدت في السلالم الى الطابق الثاني لاستبدال ملابسها استعدادا للحفلة . فلما نظرت الى نفسها في المرآة ، رأت السرور مستحوذ عليها ، انها في احسن حالاتها ، مطمئنة الى قوتها وارادتها - وهي في ميسر الحاجة الى العزيمة التي تخرج سالمة القلب والاحساس من معركة الليلة المعركة الفاصلة بالنسبة لها ولستقبلها ا

وما كادت تهبط الدرج في السابعة والنصف حتى اعلن الحاجب قدوم ليفين . ولم يكن في القاعة احد سواها ، ولم يكن لها ندحة من استقباله .

وما كان لها صديقة محضتها لفتها ، واصطفها لشورتها ، ولهذا اتجهت نحو الضيف ، ثم وقفت مترددة في منتصف الطريق ، وقد ألمسا ما شعرت به - ألمها ان تقرر مشاعرها الخفية ان الشاب المقبل نحوها ان يفوز منها بظائل .

ونظرت اليه بعينين متضرعتين ، ولكنه لم يفقه لغة الاحاظ بل مد لها يده مصافحا ، وقال :

« الملعرة ان بكرت في الحضور ، ولكني لم اجد ما يشغلني عن الشوق .. »

ولفت حوله في قلق ، ثم اردف : « واني وايم الحق تمنيت ان اجدك وحيدة ، ولست في شك من انك ستصفين الي ما اتول حتى النهاية .. » .
وتعلم في مكانه قلقا مضطربا . وقالت كاترين بصوت متهدج :

« لن تلبث امي ان تأتي يا سيدي ! » .

وتضرج وجهها ، واطرق هو برأسه . وقال بعد جهد :

« واعلمي ان مقامي في موسكو يطول او يقصر تبعاً لوقفك » .

وسرت قشعريرة باردة في جسمه كيف تجاسر على النطق بهذه
الكلمات !

وغضت كاترين من طرفها ، واختلجت اهدابها في انفعال وحيرة .
واردف بعد ان استعاد رباطة جأشه :

« اجل اود ان اقول .. بانى .. ان اسالك عن شخصي لو تقدمت
اليك بطلب الزواج ! هل تقبلين بي ؟ هل توافقين ؟ » .

وظهر عليه فجأة وجوم من اشتد همه ولكنه ظهر عليه ايضا الارتياح
لما قام به واداه ، وما عليه الا سوى انتظار الجواب ، فاما القبول واما
الرفض . فان اجابت بالقبول طابت نفسه ، وان ردت خائبا داخله من الشقاء
ما ينتزعه انزعاجا من موسكو !

والجم لسان كاترين ووجم قلبها ، وداخلها من الضر ما شل حركتها
وكبل ارادتها .

وظفى عليها على حين غرة شعور عجيب من الاعجاب والسرور
والزهو .. ثم رفعت اليه طرفها مخضلا ، فاذا بوجه فرونسكي يحجب وجه
ليفين عن ناظرها واذا بخياله الجميل يرنو اليها متسائلا واذا بها تتمتم
بجدع : « لا .. لا .. » .

وجمجم المسكين دون ان ينظر نحوها : « ان الفشل مأخوذ دائما
بفشله ، ان عائر الحظ لا يخطئه الاخفاق ... وهذا كان منتظرا » .

واحنى هامته باحترام ، وتحول عنها وهو يجرد وراء ساقيه المرتعشتين
اذبال الخيبة ، لكأنه كان يتحامل على نفسه حذر الانهيار !

ولكن دخول الام في تلك الهيئة ، واقترابها منه ، جعله يتريث مستمهلا
ويتماسك متجلدا . وصعدت الام عينيها في الشابين متوجسة ، ولكنها ما
همت ان اتبسطن اساربرها - فامائر الفتى تدل على انه لم يحظ من ابنتها
بطائل ، وتقاطيع الفتاة تشير الى انها لم تقض له من مآربه وطرا .

ولقد استجابت لها كريمةها واتخذت من مثالية فرونسكي نبراسه
تسترشده ! وما هي تضع حدا لاحلام ليفين ، وتفهمه صراحة انها لن تكون
له .. فنعم الابنة ابنتها !

وسرعان ما بشت له حين حياها ، وطلبت اليه بلطف ان يجلس ، ثم
اقبلت عليه تسأله عن حاله ، وتستوضحه امور القرية ، وما يفعله هناك ،
وما يقوم به من نشاط .

واقترض ليفين اجوبته ، وان حاول جاهدا ان لا يكون جافا في مقالته .
وما مضى من الزمن ساعة حتى توافد المدعوون والمدعووات ، وفي
مقدمتهم النبيلة « الكونتس توردسون » .

وهذه المرأة ، نصف بين النساء ، وهي نحيلة ، قيمته « حادة الطبع
ومتوترة الاعصاب كلفت بكاترين وآرتها بحبها ، حتى ان شوقها الى ضمان
المستقبل الزاهر لها فاق شوق امها . وكانت تشايح فرونسكي وتحقد على
ليفين » لهذا كرهت كاترين بالآخر ، حتى نفر قلب الغناة وخشيت الاقتراب
منه ناهيك عن الاقتران به . ولولا ما حظره الادب عليها من معاملة الناس
بالقسوة والشدة لما تورعت كاترين عن مجابهة ليفين بما لا يحب في حلبة
التزلج ! لقد اثرت عليها هذه المرأة تأثيرا كبيرا ، ولا غرو ، فالمرأة متى
مقتت كادت واوقعت .. وقد مقتت هذه المرأة ليفين ، قالت ان تقهره ..
وطالما رددت :

« اعجب بنا من ندين لا نجتمع ، هو يكرهني وانا ابادله بغض ، واجد
فيما يعتمل في صدرنا من نزع الكريهة والوجود كثيرا من المنعة واللهو » .
اما ليفين ، فلم يكن يعقبتها ، بل كان يحتقرها ، واحتقاره لها كان
لغرور ركب رأسها فاعماها عن حقيقتها وحقيقة سواها من الخلق .

فما كادت تبصر به في تلك الليلة حتى طابت لها الشحنة ، فهاجمته
متجمة وهي تصافحه ، وقالت :

« اراك رجعت الى « بابل » بعد ان هجرتها ونأيت عنها ، فماذا حدثك
على الرجوع ؟ ماذا حفرك الى طرق ابواب « بابل الفاسدة » - وكان ليفين
يشبهه موسكو ومباذله بابل وفسقها فهل تغيرت بابل هل اصبح من شأنها
المصلحون ؟ ام هل تدنيت أنت حتى اصبحت في مستوى اهلها الفاسدين ؟ » .
وكان ليفين فيما مضى قد فند آراء هذه المرأة الدعية ، وظاهر اهل
الريف ، فلما جابهته الكونتس بهذه الكلمات علم انها تحاول النيل منه على
دؤوس الاشهاد ، فلم يزد على ان قال :

« لما يملؤني زهوا ان كلامي راسخ في مخيلتك يا سيدتي » .
واعرض عنها ، كانه لا يرغب في متابعة الكلام . واسترعى انتباهه في
تلك اللحظة ضابط وسيم اتيق بدلف الى القاعة بخطوات متزنة قوية .
واتباه حسه ان الشاب هو منافسه في كاترين . وايقن من ذلك عندما
قابلته كاترين بوجه طلق ، واقبلت عليه تحييه وترحب به . وقارن بين

مقابلتها له ومقابلتها للضابط ، وادرك ان كاترين تحب فرونسكي ، وان أملة قد انطفا شعلتها الى الابد .

وتأهب ليذهب ، وتحرك من مكانه حتى يهرب من الجنة التي انقلت في مثل غمضة عين وفتحتها الى سعيير متلطي النيران . ولكنه عاد فكنتم ما في نفسه وعزم على اطالة مكثه ، ولو على مفض ، حتى يشاهد ما يجري عن كسب وحتى يلم بأحوال نده ويعرف المزيد من امره ..

واذا هاجت الاحزان في قلب امرىء ، واضحى الانسان احيانا خسيسا لا يرى الا السيئات والنقائص ، اما الفضائل فتصبح كالقذى في عينه كلما لمسها في غيره .

بيد ان ليفين كان من طينة اسمى ، فهو لا يرغب في التعرف على مواطن الضعف فحسب ، بل يود من صميم قواده ان يتحسس مكانن القوة في انسان غيره ، مهما تنافر في المزاج والطبع والهدف .

وحار ليفين في امره فلاشفاق يشبط عزيمته ، والشوق الى من خبيت رجاءه ينشط ذهنه .

وقد نظر بتمعن الى غريمه ، فالفاه شابا كامل الرجولة لا ينقصه منها منظر ولا ارادة .. والقى في روعه ان هذا الفتى لا يعيل كغيره من ابناء الطبقة المترفة الى تكلف ما ليس فيه ، فهو يتكلم مع الجميع بلهجة واحدة وابتسامة واحدة ، وهو يضافح الجميع بطريقة واحدة .

وتوغر صدر ليفين وهو يرى هاتين الفضائل ، الا انه لم يعقت غريمه بل استمر يراقبه بانتباه .. وقد رآه يقبل على الاميرة المضيفة فيصافحها بحرارة ثم يعطف على كاترين ابتها فيبادلها بعض الحديث ، ويضحك هو وتضحك هي ، وتخثر نفس ليفين ! وجلس فرونسكي في مقعد خال ، دون ان يتلفت الى ليفين او يشعر بوجوده الا ان المضيفة تنهت فجأة الى ما يجب عليها عمله فاسرعت تقول :

« لقد سها عن بالي تقديمكما الى بعضكما البعض » .. واومات الى ليفين ، واستثلت : « الكونت فرونسكي » « الكونت ليفين ! » .

وانتصب فرونسكي واقفا ، وحذا ليفين حدوه ، وتصافح الشابان ، واحنيا راسيهما قليلا . ثم قال فرونسكي ووجهه يطفح بشرا :

« كنا سنجتمع في هذا المنزل على مائدة الاميرة ، بيد ان رحيلك المفاجيء في ذلك الحين حبس عنا نفحة رؤياك ! » .

فقال ليفين : « وهذا من بواث اسفي ، الا اني اضطرت يومذاك الى السفر .

قال : « وردت ولا شك ارضك في الريف يوم ظننت عن موسكو ، واخل كل شيء في الحياة ملامضجرا ، هذا اذا مكث الانسان واقام بصورة دائمة ، وخاصة في فصلي الشتاء ، يوم يهبط القر وتنساقط الثلوج » .
قال : « ان للسعادة مهابا مختلفة ، وسعادة القرية في العمل والداب ومن يعمل هناك لا يداخله السام » .

قال : « ولا اخيفك اني احب الحياة الحرية في القرية الساكنة الهادئة المنحرة من القيود » .

وحانت من الكونتس نورديسون لفتة ، وسنحت لها فرصة القول فراحت تخاطب فرونسكي : « وهل تسول لك نفسك المكث في الحقل ؟ هل تستطيع ان تبقى هنا يا كونت فرونسكي لا تبرح ولا تريم ؟ » .
فاجابها الشاب وهو يهاجمها بطرف مستطلع : « هذا سؤال يستعصي الجواب عليه ؟ فما نزلت في الريف الا لاما ، وكلما قصدته زائرا ، والممت به عاملا ، اقمعت ردحا قصيرا .. واصدقك اني لم اعرف مذاق الريف في روسيا ، ولم اتعلق به الا بعدما قضيت في « نيس » شتاء العام الماضي .. هناك استطعت ان اقارن وهناك استطعت ان ارى الحقيقة واعلم ان ريفنا جنة نعيم ؟ » .

قال : « نيس مدينة صغيرة موحشة ، ولا تقر العين بملازمتها. زمننا طويلا . واصدقك ان ريفنا امتع منها وابهج من سواها من المدن ، كتابولي مثلا .

وازدلفت كاترين في تلك الاثناء الى المكان الذي وقف فيه ليفين ، ونظرت الى وجهه المنقبض ، والتقت العيون فجأة ، فبرز من عينيه اسي بالغ ، ونطق لسان عينها فقال :

« الا اصفح .. اغفر .. لقد تحققت الامال فلا تزجر ، ولا تنقم . » .
واجابها ليفين ، اجابها باللحظ ايضا فقال :
« الا تبا ! لقد جر علي حيك الفصص ، وكرهني الحياة .. فانا ابغضك ، وانا امقت نفسي ، وانا اكره الدنيا قاطبة ! » .

وتشعبت الاحاديث وتفرعت ، وطفق القوم يتبادلون الكلام من الحفلات الراقصة ، والصيد والقنص ، ثم عرجوا على الحلقة الساحرة التي يرمع

ان يحببها آل شرباتسكي بعد ايام قليلة لا تتجاوز الاسبوع .
واقتنم ليفين انشغال الضيف عنه بأحاديثهم ، وتسلل خارجا بعد
ان استاذن ربة الدار بالذهاب !

ولما ولى قطع كبير من الليل انفردت كاترين بأماها فأطلعتها على ما كان
بينهم وبين ليفين . ولم تكن الحسنة مغتبهة او مبتثسة ، بل ان احساسها
كان يضطرم بنار الانفعال ، فهي تسمع لأول مرة في حياتها عرضا للزواج ،
وممن أ من شاب تتمناه اجمل الفيد - من ليفين التيبيل الثري .
ولما لاذت بفراشها جفاها الكرى فجعلت مضجعا هاجسة بما يعتمل
في صدرها ، وقد لاحقها وجه ليفين ، فهي لا تغمض عينيها الا لتراه مائلا
في مخيلتها ، وهي لا تفتح تينك العينين الجميلتين الا ليظهر لها وجهه
الحزين القانط ..

واجتاحتها موجة عارمة من الحزن ، وانهمرت الدموع من مآقياها فزيرة
بند انها فكرت بالشاب الاخر الذي ضحت بليفين من اجله فأشرق وجهها
فجأة بنور السعادة ، وجفت مدامعها ، وطفقت تنخيله بقامته المشوقة
ووجهه الجميل ونبرته النافذة القوية .
وطنى عليها في هذه الهداة سرور عظيم ولكنها شعرت في قراراتها ان
سرورها هذا يشوبه ألم قمامض وكانه السم في الدسم .

في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي ، استقل فرونسكي
عربته من محطة السكة الحديد ليكون في استقبال والدته وكان اوبلنسكي
اول رجل صادفه هناك . وكان الاخير ينتظر مقدم شقيقته في القطار نفسه .
فلما رآه اوبلنسكي هتف قائلا : « من تراك تنتظر يا كوت ؟ » .
فاجابه فرونسكي والابتسامة لا تفارق فمه :
« أمي .. انها قادمة من بطرسبرج ، وستصل اليوم في قطار
الصباح » .

« لقد بحثت عنك البارحة ، فالى اين ذهبت عقب مغادرتك منزل
آل شرباتسكي ؟ » .
« توجهت الى البيت ، لاني لم اطعم في المزيد .. فقد صدفت هناك ما

ملا قلبي وحسي قناعة ورضا ، حتى لم اشعر بالميل الى مواصلة ما انقطع
من متعة من مكان آخر .

« هذا جميل .. » وابتسم كما ابتسم في وجه ليفين ساعة اطلمه على
كلفه بكاترين ، وما لبث ان صعد فيه طرفه وابتدره بنفس الكلمات التي قالها
لليفين :

« اعرف الجواد الاصيل من خطواته .. والعاشق اعرفه من عينيه
ولسانه . »

ولمعت عينا فرونسكي واقترب نوره ، وما ابطا ان قال بلهجة تشف عن
طيبة قلبه وسلامة طويته . « اشكر لك صراحتك ، فانت كريم ، انت حميم ،
تقرب الى القلوب ... »

واستلى كانه يتعمد في امر آخر :

« ومن من الناس تنتظر في هذه الساعة ؟ » .

« اتي في انتظار مليحة بين النساء ؟ » .

فشد فرونسكي وتساءل قائلا : « تستقبل امرأة ! ومن هي يا
تري ؟ » .

فضحك اوبلنسكي حتى بابت نواذجه واجاب :

« الريح ، الريح يا صديقي ، فالمرأة التي انتظر هي شقيقتي « انا » .

« انا كارينا ؟ » .

« اجل . لك بها سابق معرفة ؟ » .

فقال فرونسكي وهو يحاول ان يستعيد الى الذاكرة امرام غامضا يتعلق
بهذه المرأة : « قد اعرفها ، لا اذكر ، قد اعرفها ! » .

« على انك تعرف من غير شك ، زوجها « اليكسيس كارنين » ومن لا
يعرف الرجل ؟ انه اشهر من ان يعرف » .

« اصبت ، كلنا يعرفه ، وقد سمعت به ، ورأيت وجهه ، وهو لا غرو
رجل له مكانته الرفيعة ، كما انه حائز على احترام الناس وتقديرهم » .

« ما دمنا قد خضنا في حديث الناس ، فهل قابلت الليلة البارحة
صديقي ليفين ؟ » .

« قدمنا الى بعضنا البعض ، بيد انه ما ابطا ان غادر الحفلة خلسة
في ساعة مبكرة » .

« انه نعم الصديق ، وهو فوق ذلك اديب اريب ، واخالك توافقني على
نظرتي اليه ، ورأيي فيه » .

« لم اكون عنه رأيا بعد ، غير انه كما تراءى لي ، بنأى بجانبه عن المجتمع ، ويزود عن الناس ، ولا يكاد يخاطبهم حتى يعلمهم ! ثم انه عصبي المزاج ، يحتدم غضبه سريعا ، وينزو به الانفعال ، اليس كذلك ؟ » .
فترس او بلنسكي في الشاب متفحفا وما لبث ان قال :
« قد يكون ذلك ، وقد تكون مخطئا فيما ذهبت اليه من رأي .. وفي ذهني عنه رأي آخر ، ولا شك قط في انه كان البارحة على مفترق طرق ، وان سعادته وشقاؤه كان كل منهما في كفة ميزان .. لقد لعب القدر لعبته ، ولست ادري حتى الان ماذا اصاب ليفين من خير القدر او شره ! » .
فالتفت اليه فرونسكي ، وحده بنظرة حادة مستشفة وقال دون تحرج :

« افصح عما يخامرك .. اكاد ليفين من الصابين الى بلوغ وطر الزواج من كاترين ؟ وهل عول البارحة على طلب يدها ؟ » .

قال : « قد تكون مصيبا ، وانصرافه قبل سواه دليل دامغ على اخفاق مسعاه .. يا للمسكين ! انه متيم بها مولع بحبها ، ولا جرم ان خيبته كانت طعنة نجلاء اخترقت سويداءه .. اتني ارثي له ! » .

فقال فرونسكي بصوت متهدج :

« انه اقدم على اعظم خطب ، فكاترين تستاهل زوجا خيرا منه .. ولكن ما لي اسرع في الحكم ومعرفتي به سطحية لم تزد على التحية وتبادل بضع كلمات ؟ ان القطار مقبل من بعيد ولن يلبث حتى يبلغ المحطة » .

ومزق الفضاء في تلك الفينة صغير شديد ، وهدرت الالة ، واهتوت الارض تحت عجلاتها ، ودلف القطار الى المحطة مستائيا وهو ينفخ دخانه كالنعب ، وقد علا القاطرة بعض الجليد ، كما كلل رأس السائق ومعاونه وجعل المسافرين يترجلون زرافات ووحدا ، وطفق فرونسكي يتأمل فيهم وهو موزع الفكر ، ولا شك ان فكره كان منصبا في تلك اللحظة على الحسنة الفاتنة التي سلبت له وملكت قلبه .

ونسى امه ، وغاب عن باله انها قادمة من موسكو ، وداخله سرور هامض ، هو نتاج شعوره بنشوة الظفر دون ليفين بفتاة احلامه . على ان هذا السرور قد يكون مردده الى امر آخر - الى سر مكنون لم يتمخض عنه الغيب بعد !

ونبهه الى نفسه صوت ضابط من ضباط الحرس يخاطبه قائلا :

« كلفتنى والدتك ان اتبهدك الى وجودها في تلك المركبة يا سيدي .
وارجعته كلمات الضابط الى عالم الحقيقة ، ففكر بامه ، ولكنه لم
يشعر بالشوق اليها ، فهو في قرارته يحترمها ! وهو دون ان يعترف بذلك
لم يكن يحضها الحب ، مع انه في الظاهر ، وبين الملا ، وامام نفسه ، كان
يحترمها اعظم الاحترام ، ويلبي طلباتها بسرعة ، ويصدق بامرها ، على انه
كلما زاد احترامه لها في تصرفاته واعماله ، قل احترامه لها وحبه لشخصها
كامه ، في اعماق قلبه !

واوما الشاب للضابط شاكرًا وانجه نحو المركبة ، ولكنه تربت لدى
الباب ، حتى يفسح المجال لسيدة كانت تم بالهبوط .
وادرك للوهلة الاولى ان هذه السيدة تنتمي الى علية القوم ، وانها من
الصفوة المختارة ، فالنعمة بادية على ملامحها تتم عن رخاء وترف وذوق
سليم .

واحنى لها راسه وتعمت بكلمة اسف ، ثم رفع ساقه ليصعد ، ولكن
حافزا غامضا ارفعه على الالتفات - لا لانها كانت فاتنة جدا ، ولا لانها كانت
ذات بهاء ورواء ، بل لان شيئا فيها كان يدوب رقة وعاطفة مشبوبة !

ولما التفت ، التفتت .. ورست عينهاا الدعجوان المستعتان اللتان
تظلهما اهداب سود طويلة ، على وجهه بنظرة ناعمة دائنة ، ثم انثنت الى
ناحية اخرى بحركة خفيفة كأنها تبحث عن انسان اخر .

ولج فرونسكي المركبة ، فنظرت اليه امه وزوت ما بين عينها .
وعادت فتأملت فيه ، ثم ابتسمت قليلا بشفتيها الرقيقتين .
وكانت الام امرأة هزيلة ناضبة ، سوداء العينين يزين اذنيها قرطان
لامعان ، ويحلي اصبعها خاتم كبير ، فلما دنا منها مدت له بدا معروقة
فلثمها ، ثم رفعت راسه وقبلته في وجنته وقالت :

« هل وصلتك برقيتي ؟ اهائيء انت بمعيشتك ، شكرا لله ! » .
فجلس الابن في جوار والده وقال : « عسى ان لا تكون مشقة السفر
قد نالت منك كثيرا يا اماء ؟ » .

ولم يحفل ردها على كلماته ، بل اصاح لصوت امرأة انبعثت من الخارج ،
وترامى له هذا الصوت الفتى المتعارج هو صوت الغادة الفاتنة التي قابلها
منذ لحظات على مدخل المركبة .

وكأنت صاحبة الصوت تقول في شيء من الحدة : « لا اجاريك في ما

ذهبت اليه من راي يا عزيزي ، ولا اترك على هذا المبدأ الذي اتخذته
مذهبا ! » .

فاجابها صوت آخر ، صوت رجل : « هذه وجهة نظر امرىء مسن
بطرسبرج » .

قالت : « لا ، بل وجهة نظر كل انثى ! » .
« دعيني اشم يدك ! » .

« اذهب محفوظا يا ايفان بتروفنش وان صدفت اخي في طريقك فوجهه
الى لاني في انتظاره منذ حين » . ورجعت الغادة ثانية الى المركبة .

فهمت الكونثس الكهله لها وبشت ، وقالت متسائلة :
« الم تجدي اخاك يا عزيزتي ؟ » .

في تلك اللحظة ادرك فرونسكي ان السيدة الجميلة هي « انا كاريننا »
فانبرى يقول وهو ينتصب واقفا :

« رايت اخاك ، فهو هنا . . على اني مدين لك باعتدار ، فانا لم اعرف
عليك عندما اعترضت سبيلك صدفة ، ولا شك انك لم تتذكريني ايضا » .

واضحى هامته باحترام . فقالت وبقهرا يضيء ببسمة فاتنة :
« كان علي ان اعرفك قبل ان تعرفني انت ، لاننا قضينا ساعات ونحن
نتكلم عنك ، فوالدتك متعلقة بك كثيرا ! ولكن . . اين اخي ؟ اين هو ؟ » .

وقالت الام المعجوز : « عجل يا اليكسي . . اذهب وابحث عنه ولا
ترجع دونه » . وقفز فرونسكي مترجلا ورفع عقيرته ينادي :
« اويلنسكي . . هنا . هنا . . » .

اما انا كاريننا فانها لم تنتظر مجيء اخيها ، بل غادرت المركبة ، ومشت
مرتفعة الراس . وما كادت تبصر اخاها قادما نحوها ، حتى اسرعت اليه
فلفت يدها اليسرى حول عنقه بحركة رشيقة اذهلت فرونسكي وقبلته في
وجهه » .

ولم يستطع فرونسكي ان يحول ناظره عنها ، بل شخص الى وجهها
في ذهول واعجاب ، وابتسم ابتسامة عريضة تطفح بالبشر والسعادة .
بيد انه تذكر امه ، فانشى راجعا اليها .

وقالت الام : « انها رائعة اليس كذلك ؟ لقد رجاني زوجها ان الازمها ،
وكانت مزاملتي لها في السفر سعادة ، فانا لم اشعر بالملل طيلة المسافة التي
قطعتها » .

وأنقطعت عن الكلام وحديثه بنظرة ذات معان ، واستطردت باللسان الفرنسي : « قيل عنك أنك ظفرت بغتاة تنتمي الى فضليات العائلات ، فان صح هذا ، فليهبك الظفر بأمنية طالما طلبتها لك » .
فقاطعها بصوت اجش :

« ماذا تعصدين بكلامك يا اماء ، انني لا افهم حرفا مما تقولين ! »
وعادت انا كارنينا في تلك اللحظة لتودع الكونتس ، وما كادت تصل وتجلس حتى ابتهدت المرأة قائلة : « لقد اجتمع الشمل اخيرا ، فالتقيت ابنيك ، والتقيت اخي ، وذلك بعد ان فرغت جمعيتانا من الحديث » .
فقالت العجوز بلهجة الصدق والصراحة :

« كلا .. كلا .. فانا استطيع ان اجوب الامصار والافطار دون ان يطرا على مشاعري من قربك وحديثك السام .. فانت من النساء اللواتي يفيض منكن الجبور ، حتى يصبح الصمت في صحبتكن للذي ، والكلام اللذ ! واوصيك يا عزيزتي ان تتعلمي بالصبر فلا برمضك بعدك عن ولدك ، فالفراق سنة ، ولا بد ان تروضي نفسك ومشاعرك عليه » .

ورفعت انا كارنينا رأسها وهي لا تزال تبتمس ، وتحولت الكونتس الى ابنها وقالت موضحة : « ان انا كارنينا أم ، ولها طفل في الثامنة لم يسبق لها ان غادرته وحيدا في بطرسبرج ، ولهذا تجدها منزعجة اشد الانزعاج » .

وقالت انا كارنينا وهي ترمق فرونسكي بعينين ضاحكتين وكأنها تخصه بابتسامتها : « اجل ، كنت انا والكونتس نتجاذب الحديث طيلة الوقت الذي امضيته معا .. كنا نتكلم ، انا عن ابني ، وهي عن ابنها .. » .

ورئت اليه مداعبة ، وفطن هو الى موطن الدعابة من حديثها ونظرنها فقال : « واخشى ما اخشاه ان تكوني قد ضجرت مما طرقت سمعك ! » .

ويبدو انها لم تشأ ان تسترسل في مثل هذا الكلام فقد التفتت الى الكونتس وقالت : « ذريني اشكرك ، فانت مرافقة كريمة ، ولا يسعني الا الاعراب عن اسفي لانهاء الرحلة بمثل هذه السرعة ، فالى اللقاء .. » .

فقالت الكونتس : « ترافك السلامة يا عزيزتي ، دعيني اقبل محياك الحسن .. انني هرمة لا اعرف الواربة ، بل الحج البيوت من ابوابها .. ولا افاالي ان جهرت برأيي في سحرك ، فلسحرك سلطان عظيم ، وقد ذهلت من نفسي طيلة اجتماعي اليك ، وكان شغفي بك كثيرا ، وكلفني بمحاسنك ومناقبك اكثر واشد » .

واعتقدت انا كرئيسنا ان المرأة تعبر من خلجانها الحقبة ، فتضرج وجهها حياء وجدلا ، ثم انحنت قليلا وادنت خدها من فم الكونتس ، فقبلتها هذه برفق .

ثم انتصبت فعدت يدها الى فرونسكي ، فلمشها الفتى وشعر بالغبطة ، وداهمنه فرحة .

وما عمت ان غادرت مركبة القطار بحوية وقوة ، فكانت في مشيتها كأنها لا تكاد تخطا الارض تبيها وزهوا !

وجمجت الام بصوت مهموس : « رالعة ! انها رالعة » .
وكان هذا ما راود فكر ابنها ايضا .. وقد تنبع الحسناء بنظره ، حتى رآها تقبل على شقيقها فتضع يدها في يده ، وتنهمك معه في حديث خطير ، حديث لا يتعلق به هو - بفرونسكي - بل شخص آخر ، او بشيء اخر ...

واستدار الى امه وابتدراها قائلا : « كل شيء على ما يرام كما ارى يا اماء » .

وعلقت تحدته عما يعنيهها من امور دنياها عن حفيدها الذي جعلها تمكث كل هذا الزمان في بطرسبرج ، واللفتة الكريمة التي تلتف بها القيصر على اكبر ابنائها . ثم نهض الشاب فتأبط ذراع امه وقال :

« هلمي يا اماء ، لقد خفت الزحمة ، وانفض الجمع » .
وحملت الخادمة حقيبة صغيرة وحمل الخادم مع رجل اخر بقية الامتعة .

ولكنهما ابتعدا قليلا حتى شاهدا عددا من الرجال يهرولون في دعر واضطراب . وكان من جملتهم ناظر المحطة الذي نطق وجهه بالهلع الشديد . ولا شك ان امرا غير عادي قد وقع . وبدأت الجموع التي غادرت القطار ترجع ادراجها . وتعالى اللفظ ، وسمعت هذه الكلمات تتلقفها الاذان ، وتتساءل بها الالسن :

« ماذا ! .. ماذا ! اين ا كيف ! . لقد لاقى حتفه ، مات ! .. » .
ورجع ستيفان اوپلنسكي وشقيقته فيمن رجيع من الناس ، وقد بان الخوف على ملامحهما .

ولاذت السيدتان بالمركبة ، بينما لحق فرونسكي وستيفان بالجمع لاستجلاء حقيقة الامر . ولم يلبثا ان علما ان حارسا اصماه السكر ، فلم

يشعر باقتراب القطار قبل ان يمزق جسده شر تمزيق .
 وقبل ان يرجع الرجلان اطلعت السيدتان على تفاصيل الحادثة .
 وكان الشبان قد شاهدا الجثة الممزقة . فلما اجتمعا بالسيدتين ،
 قال اوبلنسكي وهو يكاد ينسج بالبكاء :
 « اواه يا انا ! يا له من منظر مرعب ! انه حادث مربع » .
 اما فرونسكي فقد لاذ بالصمت . وكان وجهه الجميل مقطعا بعض
 الشيء ، الا ان الهدوء لم يفارقه لحظة . وتابع اوبلنسكي يقول :
 « وبا لمنظر زوجته وهي تنحط على الاشلاء ! لقد كانت تعول وما
 اربص صوتها وهي تندب زوجها : ويقال ان عائلته كبيرة .. كبيرة .. » .
 فانبرت انا كارنينا تقول بصوت يختلج تأثرا :
 « الا يستطيع المرء ان يسدي خدمة ما لهذه المرزوءة ؟ » .
 وربما فرونسكي بنظرة خاطفة ، ثم غادر العربية وهو يقول :
 « لن البت ان اقبل راجعا يا اماء ! » .

فلما عاد يميس بقوامه البديع ، كان ستيفان اوبلنسكي قد نسي
 المأسة ، وطفق يجاذب اخته انا حديثا طليا ، ويصف لها المتعة التي يلاقها
 المرء في ملاهي موسكو ومسارحها وانديتها . ثم عكف يشيد بمهارة مطربة
 حديثة ما برح اهل موسكو ينتظرونها منذ حين .
 وقطع الرجل حديثه بعد قليل ، وتحرك القوم ، ثم ساروا مبتعدين .
 وقد مشى فرونسكي مع امه في المقدمة ، ووراءهما مشيت انا كارنينا
 وشقيقها وما كادوا يقتربون من الباب الضخم حتى ادركهم ناظر المحطة
 وخاطب فرونسكي قائلا :

« لقد منحت مساعدي مئتي « روبل » ، فهلا قلت لمصلحة من هذا
 المال ؟ » .

فهز فرونسكي منكبيه واجاب : « للارملة .. وما حاجتك الى السؤال
 لمن اعطيت المال ؟ اما تعرف ؟ » .

ونظر حوله ، واستطرد : « لم اظن قط انهم عديمو الفهم والادراك ! »
 وهتف اوبلنسكي متمجبا : « هل تبرعت بهذا المبلغ ؟ » .
 وضغط على يد شقيقته وازاف :

« جميل منك ان تفعل هذا .. انت رائع .. » . ومضى فرونسكي
 واهه في سبيلهما : وترث اوبلنسكي وشقيقته ريشما تلحق بهما الخادمة .

وكان القادمون والرائحون لا يزالون يتحدثون عن الكارثة التي دهمت الحارس .

وقد قال رجل منهم على مسمع من الآخرين :
وما ابسعها من ميتة ! يقولون ان القطار شطره شطرين .
فرد عليه آخر :

« بل انها على ما اظن ، اسهل ميتة - فقد لفظ انفاسه في لحظة خاطفة » .

وقال ثالث متسائلا :

« وكيف لا يتخذون ما يلزم من احتياطات ؟ » .

ووقفت عربة ، واستقلتها انا كارنينا . ولما هم شقيفا ستيفان بالصعود الى جانبها تعجب مما رآه منطبعاً على اساربرها ، وانزعته دمة ترقرت في مايقها !

فسالها متوجسا : « الا اني تشاومت ماذا حدث ! » .

« تشاؤمك لا يعول عليه .. لقد وصلت سائلة ، وهذا بيت القصيد .
وان تحدثني الحقيقة لو حاولت الاطلاع على مقدار ما اعلقه على وجودك من آمال جسام » .

قالت : « وهل تعرف فرونسكي منذ زمن بعيد ؟ »

« اجل ، ونأمل ان يبني في القريب العاجل على كارنيرين » .

« احقا تقول ؟ هل حدثني عنك ، عن امورك ، عن مشاكلك .. هالك رسالتك ، وقد اسرعت بالجري عقب اطلامي على محتوياتها .. فما الخطب؟
ماذا جرى بينك وبين زوجك ؟ »

وظفق ستيفان اوبلنسكي يسرد على مسامع شقيقته ما جرى له ، دون ان يخفي شيئا .. وكان يتكلم بصراحة وطلاقة ، وكان الحديث لا يهمه وكأنه لا يعنيه ! ووصلا اخيرا ، فترجل من العربة واعان اخته على الهبوط ، ما عتم ان ضغط على بدها متوددا ومضى في سبيله الى مكان عمله .

* * *

عندما دخلت أنا ، كانت داريا الزوجة المهیضة الجناح المكسورة
الخاطر ، تجلس في غرفة الاستقبال الصغيرة قريبا من طفلها الذي كان صورة
صادقة لايه وكانت تلقنه درسا في الفرنسية . ولما عيل صبرها قطعت الزر
ووضعت في جيبها وهي تقول للغلام محتمة : « انتبه .. انتبه .. لا تعبت
بيدك » .

وكانت الاحزان قد سحقتها ، ومع ذلك فانه لم يغرب عن بالها ان انا
كريننا قادمة وانها زوجة رجل مرموق تحترمه بطرسبرج بأسرها .. ثم ،
ما ذنب انا حتى تهجر الدار في الوقت الذي تلم بها زائرة ؟ وما جربرتها وقد
اقترب اخوها تلك الحماقة الكبرى ؟

وانشات تحدث نفسها وتقول : « انها خير امرأة ولم الق منها سوى
اللطف والرفقة والعطف السابغ » .

لا شك انها لم ترتح اثناء اقامتها مع انا كريننا في بطرسبرج الى الوتيرة
التي كانت حياة الزوجين تسير عليها فالتكلف كان الظاهرة البارزة التي
سادت ذلك البيت ، بيد ان هذا لا يعنيها في كثير او قليل ، وطفقت تناجي
نفسها : « ساستقبلها احسن استقبال ، واتمنى على الله ان لا تسعى الى
تسرية همي .. فجميع عبارات العزاء مما يدخل في معالي الصفع ، والغفران ،
والهدى المسيحي ، لن تشفع له . لقد فكرت في كل شيء ولن يجدي هذا ،
لن يجدي ! » .

وسمعت خفق نعال لدى الباب فالتفتت مستطلعة ، وعبرت تقاطيعها
الدالة عن حبور مباغت .. وعجلت بالنهوض من مكانها وهرعت الى شقيقة
زوجها فاحتضنتها وعانقتها . وتبادلت المرانان كلمات الشوق وعبرت كل
منهما عن سرورها بلقيا الاخرى بدمعة تدحرجت على خد كل منهما .
واستدعت الام اطفالها ، فقبلتهم انا ثم صرفتهم . ولما انفردت المرانان
مع بعضهما البعض قالت انا : « داريا ، لقد اطلعني اخي على كل شيء » .
فنظرت اليها داريا ببرود وترقب ، وانتظرت ان تنهال عليها انا بعبارات
التعزية ، الا ان الزائرة اكتفت بان قالت :

« عزيزتي داريا ، لا ارجب في تخفيف الخطب بانارة شفقتك عليه وعلى اولادك ، فهذا مستحيل . والذي ارجب في بثه لك ، هو اني في غاية الاسى ، وان حزني عميق يمس حبه الشفاف ! » .

ولمت الدموع من وراء اهدابها السوداء الكثيفة واقتربت من زوج شقيقها وتناولت يدها .. ولم تنكمش داريا او تتردد ، الا ان وجهها لم يفقد تلك النظرة الجامدة القاسية . وما عتمت ان قالت : « ان مؤاساتي على ما جرى امر عسير ، فقد صاغ كل شيء وخبا الامل » .

ورقت تقاطيعها بفتة ، ورفعت انا يد المرأة الواهية الى قمها فلنمتها وهي تتمتم : « فما العمل اذن ، ما العمل ! وكيف يتصرف الانسان في هذا الموقف العصيب ، فكري يا عزيزتي ، واشحذي بصيرتك » .

قالت لقد انتهى كل شيء ، وليس هناك ما يبرأ الصدع . اني لا استطيع ان اقصيه بسبب الاطفال ، ومع ذلك فليس في وسعي العيش معه تحت سقف واحد ، فهذا ضرب من المحال ، ولن يسبب لي سوى الالم والعذاب مما يهون ازاءه كل مصاب .

« ولكنه : كما ايقنت مما رايت في مقام مجاذبة بين الاسى والندم ! هل وهل هو من اولئك الذين يستشعرون الشجن ؟ هل يتدم ، هل بيكنه الضمير ؟

« اجل ، اني امرفه . كلانا يعرفه . انه طيب القلب وان كان منشامخا .. الا ان تشامخه انقلب الان الى مذلة .. والذي اثر علي كثيرا .. » وهنا حدثت انا ماذا يؤثر كثيرا في داريا . انه يتعذب لامرئين للاولاد ، ولانه ، وهو المحب - اجل ، المحب الذي يفندك بروحه ، قد آلمك وطعنك في الصميم ، في مهجتك ! ولا يفتا المسكين برد : « كلا ، كلا .. انها لن تصفح ، لن تصفح .. » .

واقنت داريا نظرة حائلة على شقيقة زوجها ، قالت : « ان موقفه فظيع ، وهو ولا تفرق بنالم اكثر مني لانه مذنب . ولكن ، كيف يتسنى لي العفو ؟ كيف اصيح زوجته مرة اخرى . بعدها .. بعد تلك المرأة المقبوحة ! وخنقتها العبارات كفتت عن الكلام . واحتوتها انا وقالت :

« كنت له دائما شيئا مقدسا ، ولا زلت ذلك الشيء المقدس ، اما فريته الاخيرة فلم تكن خيانة ارتكبتها القلب .. » .
« ولو اعاد الكرة ؟ » .

« لن يعود الى ما ارتكبت لثانية ، لن يفعل ما فعله ، ثقي معا اقول » .
« ولكن ، لو تعرضت انت لمثل ما تعرضت انا له ، فهل كنت تصفحين؟ » .
« لا ادري .. بل ادري فانا اعلمو » .

ولا شك انها قالت ذلك بحافز من شعور باطني فامض .. شعور غامض
بدأ القدر يتمخض عنه منذ وطأت قدمها ارض موسكو !
واستتلت : اجل ، استطيع ان اعفو ، استطيع ان اعفو ، واستطيع
ان ازاول حياتي كان شيئا لم يحدث ابدا ! » .

وقالت داربا : « اجل .. يجب اذا صفح الانسان ان ينسى الاساءة
يرمتها . هلمي الآن الى غرفتك » وقبلتها ومضت تقول : « لشد ما انا مغتبطة
بمجيئك يا عزيزتي انا فقدومك سهل الامور ، وهون وقع الكارثة على قلبي
واحساسى ، فشكرا لك ! » .

استطلعت انا كرئيسنا طلع زوجة اخيها ، وخبرت حقيقتها .. وكانت
انا امرأة ماهرة حنكها الدهر قبل الاوان ، وعلمها من الدروس والعبر ما لم
يعلمه سواها من النساء . فلما تناهى اليها ان اخاها افترط في الخيانة ،
بادرت الى اعادة المياه الى مجاريها بين الزوج وزوجته في ساعة واحدة .
وقد انفتحا كرب زوج اخيها فسرت الابتسامة الوادعة مسراها العادي
في اسارير وجهها . واطمأنت انا لما فعلته ، واهتر قلبها طربا لما ادته لاختيها ،
وقضت النهار بطوله مع داربا والاولاد ، ولم تشا ان تقابل اي زائر مشتاق
جاء لمقابلتها والترحيب بقدمها .

وما وافى المساء حتى كتبت لاختيها رقعة صغيرة ، تطلب اليه فيها الا
يتأخر من المجيء ، وتقول :

« لقد نجح السعى والحمد لله .. عرج علينا حتى نتناول طعام العشاء
معا » .

وهذا ما جرى فقد جاء اوبلنسكي خفيفا مبتهجا ، وهو لا يصدق ما
قراه في رقعة شقيقته . ولكنه ايقن من صحتها ساعة راي الهدوء مخيما
على المنزل .

واكل الثلاثة طعامهم سويا ، وتجاوزوا الوانا مستملحة من الحديث ،
وتبادل اوبلنسكي وزوجته الابتسام لأول مرة منذ ايام ، وان كان ابتسامتهما
لا ينم عن راحة الفكر وهدوء البال . ولكن فكرة الانفصال استبدلت تماما .
وهكذا نجحت انا كرئيسنا في مسعاها ، وابقيت على البيت الذي كان يتداعى
للسقوط والانهيار .

وجاءت كاترين بعد العشاء مباشرة بداعي شوقها لشقيقتها ، ولكنها ما جاءت في الحقيقة الا لرؤية انا كرينا لما سمعته من جمالها وفتنتها ، ولما قبل عن ذكائها ولباقتها .

ولم يغب عن كاترين التأثير الحسن الذي خلفته زيارتها في قلب الضيفة الحسنة ، فقد قرأت في عينها عبارات الإعجاب والإطراء ، كما انها - أي كاترين - لم تنكر ان انا كرينا آية من ابداع الله في تكوينه ، وانها تفوق بحسنها ما سمعته من اقوال الناس .

وكانت انا كرينا قد الّنت القول لكاترين ، قبلت لها نسيج وحدها في دمائها التي تناقض رياء النساء ، وفي رونق اسلوبها . ثم في روايتها الذي اظهرها بمظهر ابنة العشرين ، لا بمظهر امرأة لها ولد في الثامنة !

وايقنت كاترين معارته ولحظته ان المرأة الساحرة هذه صريحة صراحة متناهية لا تخفي شيئا ، ولا تبطن امرا ، وتبين سواه . ولكنها تعيش في دنيا خاصة بها ، دنيا لا تشرك فيها احدا ، ولا تستقبل في رحابها انسانا آخر .. واعترفت كاترين بعجزها عن سير غور هذه النفس الصريحة كل الصراحة ، الغامضة جميع الغموض .

ولم تر كاترين من الفطنة ان تمنع في التأمل والتفكير ، حتى لا تنشر ما تضره ، خشية ان تكون انا عنها فكرة سيئة !

وذهب داريا الى حجرتها بعد العشاء ، فنهضت انا الى اخيها الذي كان يشعل سيجارة ، وقالت وهي تشير من طرف خفي الى مخذع زوجها .

وعادت انا الى الاريكة التي كانت تجلس عليها ، فاحاط بها الاطفال . وكانوا قد تعلقوا بها ، كانت انا قريبة الى قلوب الصغار لما تضفيه عليهم من لطفها وورقتها . وخاطبت كاترين بعد قليل :

« ومتى تقيمون حفلتكم الثانية يا عزيزتي ؟ »
« في الاسبوع القادم . وستكون حفلة رائعة من تلك الحفلات الراقصة التي يجد فيها المرء متعته .

فاجابتها انا بشيء كثير من التهكم :
« وهل هناك حفلات لا يجد المرء فيها دائما ما يرغب فيه من متعة ؟ »
« اجل ، هوذا امر عجيب ، فثمة حفلات ينشرح لها صدرك في كل

حين ، وثمة حفلات اخرى في بيوت معينة تشعرون فيها بالضجر والسأم ..
افلم تلاحظي هذه الظاهرة ؟ » .

« كلا يا عزيزتي ، فبالنسبة لي الان لا يوجد حفلة يستطيع الانسان
ان يلقي فيها ما ينسبه كآبة الحياة ؟ » .

ورأت كاترين في عينها تلك الدنيا الغامضة الملتقة في وجهها .

واستللت انا : « بالنسبة لي هناك حفلة مضجرة واخرى اقل شجرا !

« وماذا يجعلك تشعرين بالسأم ؟ » .

« ولم لا اشعر به ؟ » وادركت انا بعزيمتها ما ستقوله كاترين . وقد

اصابت في كهانتها ، اذ ان كاترين راحت تقول :

« لانك دائما تتجلين في ثوب باه من الحسن لا تضاهيك في جماله عادة

اخرى ! » .

وكانت انا ماهرة في التمثيل « قادرة على صبغ محياها متى شاوت

بخضاب الخجل .. وقد تخرج وجهها ساعة طرقت سمعها كلمات كاترين ،

واجابت وهي تغضى قليلا :

« كلامك فيه غلو تمليه المجاملة يا عزيزتي ، ولو افترضنا ان فيما

تقولينه الصدق والصواب ، فما تثير هذه الحقيقة ؟ » .

« وهل تأئين الى الحفلة ؟ » ، « يبدو لي ان لا ندحة لي عن المجيء » .

« بطيب لي مجيئك ، واصدقك اني اتشوق الابصار الى مشاهدتك

ترفلين في ثوب سهرة بنفسجي ! » .

« ولم ذلك لم تطلبين الثوب البنفسجي ؟ ! اني ادري لماذا تلحين علي

بالمجيء ، فانت تتوقعين الكثير ، وتودين من صميم قلبك ان ياتي الجميع

لمشاركتك في انجاح الحفلة » . وكيف حدثت ذلك ؟ انت طلى حق ! » .

لشد ما اغبطك على هذه الفترة الهنيئة من حياتك يا عزيزتي ، وانسى

لاذكر ذلك الوهيج الازرق الشبيه بالضباب الذي يرفرف جو سويسرا ، تلك

الضباب التي تشمل كل شيء في ذلك الطور السميد عندما تكون الطفولة في

مرحلتها الاخيرة ، ومن خلال تلك الحفلة المرححة المنشرفة ، يبرز درب يضيق

شيئا فشيئا ، وما الد الساعة التي تدخلين فيها الى قاعة الحفلة المتألقة

بالانوار ، المودائة بالعيد .. فمن ؟ من لم يمر في هذا الدرب ؟ من ؟ » .

وابتسمت كاترين ، وحددت في انا طرفا متأملا ، وجعلت تستعيد حوادث

الماضي الغريب وتفكر وتأمل :

فكيف ؟ كيف بليت انا ما وصفت ؟ ما اشد شوقني الى الاطلاع على قصة حياتها ، على غرامها !

ورأت امامها « اليكسيس كارلين » زوج انا ، بوجهه المتجهم الذهيم ، وذهلت قليلا عن نفسها والوجه المقطب مائل لناظرها .. فهل رسا مركب احلامها على هذا الشاطئ ؟ هل انتهت حياتها الزوجية باصطدامها بهذا الانسان المادي ؟ وما عثمت انا ان قالت وهي تومض بعينيها :

« لقد انهى الى ستيفان بما كان من امر فرونسكي ، ولا يسعني الا تهنتك ، فاني قابلت الشاب في المحطة » .

فتضرج محيا كاترين وقالت متسائلة : « وماذا اخبارك ستيفان ، ماذا قال ؟ » .

« كل شيء ، ومن دوامي سروري يا عزيزتي ان تعترجي وتندمجي بهذا الفتى .. لقد قضيت ساعات طويلة مع امه ، وهي امرأة لا يروق لها الا التحدث عن ابنها » . « وهل قالت لك شيئا ؟ » .

« اشياء كثيرة ، وكلها مديح واطراء .. وعلى سبيل المثال ، قالت انه عرض على اخيه جميع ثروته ، وانفذ امرأة من الفرق وهو حدث .. واتق انا انه بطل ! » .

وما قالت انا هذه الكلمات عندما تذكرت تبرعه بالمتني روبل عندما سقط الحارس صريعا تحت عجلات القطار !

غير انها لم تات على ذكر المتني روبل ولسبب ما كانت تشعر بالانفعال كلما فكرت بهذه اللفظة التي بدرت منه ، وتراءى لها ان لها علاقة ، او بالاحرى سيكون لها علاقة بالموضوع كله .. ولكنها شعرت ان هذا الامر يجب الا يكون ! والتفتت الى كاترين فجأة وقالت :

« احمد الله ، ان ستيفان اطال المكث في مخدع داريا » .

وتنهضت من مكاتها وجعلت تدهاب الاطفال وتلاعبهم .

وصاح احدهم : « اريد ان اقبلك قبل الاخرين .. » .

وهتف اخر : « بل انا الاول ! » .

وصاحت هي والبشر يرسم على محياها الوسيم لوتنا رائعا :

« قبلوني كلكم .. كلكم .. في آن واحد ! » .

واندفعت نحوهم فعاقتهم .

خرجت داريا من غرفتها لتتناول الشاي مع الكبار . ولم يصحبها ستيفان ، ولعله غادر مخدع زوجه من الباب الاخر !

وما كادت تجلس مع انا وكاترين حتى قالت موجهة حديثها الى
الاولى :

« اخاف ان يؤذيك البرد في الغرفة العليا ، ولهذا ارى ان تنتقلي الى
الطابق الارضي » . فاجبتها انا وهي تحدجها بنظرة متفرسة متفحصة :

« ارجو ان لا تقلقي من اجلي » . بل يجب ان تبدي غرفتك .

« نعم اني اجد الراحة والمتعة في اي مكان انام فيه يا عزيزتي » .

ووصل ستيفان في تلك الاثناء ، فقال مسائلا :

« ماذا جرى ؟ وعما تتكلمان ؟ » . وادركت كاترين وانا من لهجته ان

المياه عادت الى مجاريها بين الزوجين . وقالت زوجته ردا على سؤاله :

« اريد ان اتقل امتعة انا الى الطابق الارضي ، ولكن لا يوجد من يرتب

امور النوافذ غيري ! » .

وهجست انا فيما بينها وبين نفسها وجعلت تقول : « الله وحده يعلم

ان خلس القلبان من الضغائن ، الله يعلم ان تصالحا وتصافيا ! » .

وقال ستيفان وهو ينظر الى زوجته ثم ينقل طرفه بين السيدتين

الاخريتين :

« هذا هراء ! ان داريا دائما تستيقظ الصعاب .. على اني اطوع

امرك فافعلي ما تشائين ! » .

واثمت انا مناجاتها والابتسامه تداعب شفيتها :

« اجل .. اجل .. لقد انفقا وتوافقا - والصلح كامل ، كامل . شكرا

لله ! .. » . وظلت داريا طيلة ساعات المساء توجه الى زوجها الحديث بنفس

اللهجة الساخرة التي درجت منذ زمن على مخاطبته بها ..

اما هو - الزوج المذنب الذي صفحت عنه امراته - فقد طفى عليه

السرور ، لم نسي بعد قليل انه خان زوجته فاستحق العقاب ، نسي كل

شيء ، ورجع كما كان - ستيفان اوبلنسكي الذي لا تفارق الابتسامه فمه .

وطرق الباب ودقت الساعة معلنة انتصاف التاسعة .

وفتح الباب ، وبدا للجميع وجه فرونسكي ، فشعرت انا بمزيج

متناقض من السرور والفرح ، اما كاترين فقد شعرت بالسعادة ، وخيل

ليها ان الشاب مر عليها في بيتها ، فلما لم يجدها جاء وراءها وانتحل هذا

العلر فقد قال لستيفان : « في اية ساعة تقيم المادبة للضيف العظيم الذي

نتظر مجيئه غدا ؟ » واكتفى فلم يدخل .. وتخضب وجه كاترين واطرقت

براسها خجلا وحياء ! و ابي فرونسكي ان يدخل ، ورجع من حيث اتى .
و تبادل الجميع نظرات التعجب والتساؤل ، ولم تلبث عيونهم ان تحولت الى
مجمع الرسوم كانت انا قد بدأت تتأمل فيه . فهل هناك ما يشير الريب في
زيارة يقوم بها شاب في مثل هذا الهزيع ؟ ثم لماذا لم يدخل ؟ ليس هناك ما
يشير الريب والشكوك ، الا ان الامر بدأ مذهلا لهم جميعا لماذا اكتفى بالسؤال ؟
الم يكن في استطاعته ارجاء سؤاله الى الغد ؟
اما انا فقد اعتبرت عمله نزقا وطيشا .

انفتحت كاترين كثيرا من وقتها وهي تترين وتتهندم وتستعد للحفلة
الساهرة التي سيتقرر فيها مستقبلها ، فيداع اثناءها خبر خطبتها للكونت
الشاب فرونسكي ، او على الاقل بيت في هذا الامر نهائيا ، وتترك التفاصيل
لتاريخ آخر .

واخذت تتأمل في المرأة وتنظر الى خلقها القويم ، وحسنها الخالص
حتى اذا ما رضيت عن نفسها ، خرجت من حجرتها تميمس دلالا ، ودلفت
الى الردهة الفسيحة التي اقيمت فيها السهرة - وكانت الموسيقى تصدح
بانغامها ، فيتردد العذب في ارجاء المنزل الذي ساد اهليه في ذلك اليوم
شعور بالتفاؤل والبشر .

واخذ طرفها الساجي وجه انا كرئيسنا الجميل ، فاذهلها ما رآته من
سحرها ، لقد بدت الغادة في ابهى حلة وابدع زينة .

لقد طلبت اليها ان تتلفح بثوب بنفسجي ينم عن الورد ، ولكنها شذعت
مما رآته من انسجام اللون الاسود مع المرأة الغائنة .. اهناك في موسكو
ويطرسبرج من يضاھيها ؟ كلا .. كلا ..

وادركت بطل رايها في ان الرداء هو عماد المرأة ومقوم جمالها ، فالمرأة
الجميلة جميلة مهما لبست ومهما ارتدت ، ولن يزيد لها اللباس الحسن الا
اناقة ..

وما كان ثوب انا في الحقيقة الا اطار اسود يعانق المثال البديع ، فلا
يكسب المثال ، كما ان القمر لا يكسب من الهالة !

كانت انا كرئيسنا ساعتمذاك تتوسط فريقا من المدعويين والمدعوات ،
وكانت في اتانقتها المبسطة اروع من كل امرأة سواها في اتانقتها المعقدة !

ودنت كاترين منها ، فتناهى اليها حديث متبادل بينها وبين معلم
الرقص « كورسونسكي » . فوقفت ثم تحركت ، فابتدرتها انا بابتسامة

رقية وادعة ، ثم صعدت في قامتها عينا فاحصة ، ولم تلبث ان هزت رأسها
وكانها تقول : « اهنتك على ذوقك واغبطك » ..
وفهمت كاترين ما قالته عينا أنا ، فتخرج وجهها وقالت وهي تدنو
منها :

« ليهنا قدك وانسجامك ، فانت تخطريرين في المكان وكانك ترقصين
رقصة الفن الخالدة ! » وانبرى معلم الرقص يقول متحمسا :
« واصدقك يا سيدتي انها خير من تعلم الرقص على يدي ! فلهم يا
انا ، هلمي ترقص ، فالوسيقى تعزف لنا اعذب لحن سمعته اذناي ! » .
فقال : « اهتدر اليك ، فالرقص لا يروق لي دائما » .
قال : « غير اننا الليلة في حفلة مرح ورقص ومنمة ، فكيف يطاوعك
قلبك على التمتع والاعتذار ؟ » .

وبدا فرونسكي قادما نحوها ، فاثلت الى معلمها بسرعة وقالت :
« اصبت .. اصبت .. فهيا ترقص » .
ودارت مع كورسونسكي خفيفة بارعة وابعدت عن فرونسكي الذي
القى عليها التحية ، فلم تحفلها ولم ترد عليها ، وكانها ماوعتها !

* * *

لم يفت كاترين تجاهل انا لوجود فرونسكي وانصرافها عن تحيته ،
وكانها تنهرب منه لسبب .. وتساءلت والدهش مستول عليها :
« عجبا لم اغضت عنه فلم ترد التحية بمثلها ؟ » .

وقطع عليها حبل تفكيرها صوت فرونسكي وهو يصف لها اسفه
لعدم تمكنه من المجيء الى بيتها زائرا في الايام القليلة الماضية .
واصاحت كاترين السمع لما كان يقول ، ولكنها لم تنقطع طيلة الوقت
عن تتبع حركة انا الماهرة وهي تدور في حلبة الرقص خفيفة رشيقة وانفة .
وظال انتظارها ، واخذت تتعلمل الما وقنوطا فلماذا لا يدعوا الشاب
للرقص ؟ الا يعرف الرقص ؟ ام هو راغب عنها ناظر منها ؟
وبينما هي موفلة في فكر حزين كسيف ، فطن فرونسكي الى قصوره
واهماله فسارع متندما :

تبا لي ! كيف نسيت في غمرة الحديث ان اطلب اليك مشاركتي
الرقص .
ثم احاطها بدرايه واختلط بالراقصين ..

ورثت اليه كاترين بعينين متلهفتين تشبان بما يعتمل في صدرها من آيات الحب .

وقد اثلقت عليها هذه النظرة فيما بعد ، وكانت كلما تذكرتها ، يطنى عليها شعور بالخجل والحياء ، لانها كانت نداء هتفت به عيناها ، فلم يجسد له في صدر الفتى وقلبه صدى ولا جوابا .



ورقصت كاترين مرارا مع فروئسكي ، فنقعت غليلها من قربه وروت ظمأها من حديثه ، فقد تشاجنا وتبادلا الكلام لكنه عندما سألها عن ليفين ، لم تعرف ماذا تقول . . ونظر فروئسكي اليها فرأى وجهها الجميل يتخضب بلون الاضطراب . . غير انه كان اضطرابا من نوع آخر ، كان اضطراب فتاة تنتظر مفاجأة ، وتوقع ان يفتحها الحبيب بحبه ويثها لواعج قلبه .

بيد ان فروئسكي تجنب حديث الحب والغرام ، فلم يضمها هذا التجاهل ، بل ايقنت انه لن يبطيء ان يقول لها ما في قلبه ، ساعة يحين ميعاد الرقصة التي يتهافت عليها الكل ، رقصة المازوكا العظيمة . . انه ولا شك سيقتنم فرصة احتضانه لها في تلك الرقصة ليطارحها غرامه ، ويفتحها بما يطعم فيه ثم يطلب يدها . .

ومع انه سها عن باله ان يذكرها بان رقصة المازوكا المنتظرة هي له دون سواه ، الا انها لم تعلق ، فهي واثقة كل الوثوق من انه لن يراقص غيرها متى ازقت الساعة . . وعلى ذلك ، فقد ردت خمس رجال طلبوا اليها مراقصتهم . بكلمة واحدة : « المألدة . . لقد سبقكم غيركم ! » .

وصدف بينما كانت تراقص شابا مملا ، وتدور معه في الحلبة ان اقتربت من انا . . وكانت الاخيرة تراقص فروئسكي . . فشدتها ما رأت - ماذا رأت ؟ رأت انا مضطربة الخدين ، براقة العينين . . رأت فيما اثمر الظفر ، وعلامات النصر . . رأت فيها ما أكد لها ان انا ثملة منتشية بخمرة سعادتها - وكانت كاترين تخبر هذا الشعور العجيب ، شعور النصر - ورات ايضا ذلك الضوء الخفاق الذي ينبثق متأججا من ناظرها ، والابتسامة التي تم من حبور وانفعال .

« من ؟ .. » تساءلت كاترين !

« كلا ، ليس تهافت القوم عليها ، هو الذي اسكرها وافعم قلبها بهجة . . كلا ، بل انه حبها لامرئ واحد فحسب . . لامرئ واحد . . »

وهذا الواحد .. هل يمكن ذلك ؟ هل يمكن ! « مضت تناجي نفسها وهي منشغلة عن رفيقها .

انه يلزمها كظلمها ، وها هو يكلمها بصوت منخفض ، وها هي تبتسم له كلما همس في اذنها .

وتراهي لكاترين ان انا تبذل وسعا لكي تخفي هذه العلامات ولكن المشاعر كانت اقوى من الإرادة ، ففطرت الى وجهها .

ونظرت الى فرونسكي .. وفكرت : « وهو ؟ .. » وما راته مرتسما في مرآة وجه انا ، راته منعكسا على قسماته وامانته .

فماذا اصابه ؟ ماذا اصاب شخصيته ، حتى بدأ خاضعا مستسلما ؟ انه يكاد يخز على الارض ساجدا كلما رنا الى وجهها .. وان عينيه القويتين خبت وقدتهما ، وغدنا نظران الى انا في استجداء وابتهاال وخوف !

كانا يتهاامسان وكأنهما يتناحيان ..

والغريب في الامر انها لم يتحدثنا الا عن امور نافهة . بيد ان هذه الامور التي خاضها في حديثها كانت تجلبهما جذبا الى ذلك الاتجاه الفكري الذي اوغلت فيه كاترين - الى الاعتقاد عن يقين بان كل كلمة مهما كانت نافهة ستقرر مصيرهما .. هذا ما كان يشعر به كل منهما ، وهذا ما تمخضت عنه مشاعر كاترين .

وذنب كل شيء - الحفلة ، بل الدنيا بأسرها ذات غمامة قاتمة في اعماق كاترين . ولكن الفتاة الابية احتفظت بجلدها واصطبارها بغضل نشاتها الصارمة القديمة في بيت ابويها .

ولكن نوعا من الغزع الهب فؤادها قبيل الشروع في رقصة المازوكا .. لقد ردت خمسة شبان ، وها هي تقف وحيدة حائرة . فهل تلوذ بغراشها ؟ هل تزعم انها مريضة ؟ واخيرا لجأت الى ركن منفرد ، فتهاكت على كرسي هناك وهي تلهث من النصب والوصب .

يا للطعنة التجلاء التي سددها فارس احلامها الى مهجتها ! على ان للتفس دوما منفلا من اليأس وقد ناجت نفسها ، فعلمت تقول :

« امصيبة انا في كهانتى ؟ ام ان تسرعى صور لى الامور على غير حقيقتها ؟ قد اكون مخطئة ، وقد يكون بينهما ما بين صديقين عاديين من الامور النافهة اليسيرة » .

ولكنها راحت بعد دقائق تستعرض في مخيلتها ما وقع عليه طرفها ،
فأيقنت والغصة ترمضها ان علاقة فرونسكو بانا هي اكثر من مجرد صداقة
بريئة ، بل انها علاقة تطورت بسرعة البرق ، فأضحت عاطفة متبادلة تجيش
بأمل ، وتنمخض عن اشياء واشياء !

وبينما هي في هذه التجوى الكثيبة اذ طرقت سمعها صوت امرأة
يخاطبها ويقول ؟ « عجا يا كاترين ! اتفردين والكلكل في فرحة الرقصة
الكبرى ؟ » .

واثنت كاترين براسها الثقيل ، فأبصرت امامها الكونتس نوردسون ،
وراتها ترنو انيها متفكرة .

وتحاملت على نفسها فنظرت صامتة مستطلعة ، وبادرتها المرأة تقول :
« ترى ما الذي عاقك عن الرقص ؟ وهل تكرهين هذه الرقصة
بالذات ؟ » .

فشقت الفتاة ، واجابت بصوت تخنقه العبرات :
« كلا .. كلا .. اني لا احبها ! » .

قالت : « اما هو - فرونسكي - فاني سمعته باذني يلحف عليها ان
تخصصها له .. وقد تمنعت انا وظللت اليه ان يراقصك ، الا انه استهجن
منادها ، وما زال بها حتى اقنعها ! » .

فأطرقت كاترين ، ونكست عينها ، وقالت بصوت خافت :
« لا احفله ، فليرقص مع من يشاء ! » .

لقد اخبرتها المرأة المهذارة بحقيقة ما جرى ، فزات ان تتمالك صوابها
لئلا تشهر نفسها وتجعل للناس في شخصها مغمزا وهزاة .

ولزمت الصمت ، فلم ترد على المرأة بكلام اخر ، وجعلت تفكر برجل
ثان - برجل رده منذ ايام خائبا يجرر وراءه اذيال الفشل - ومن يعلم ؟
لقد كانت مبالاة الى هذا الرجل .. كانت تميل الى ليفين ، بيد ان فرونسكي
الجداب الاتيق المهندم برز الى الميدان فحجب عنها الرؤية ، وجعلها تضع
الفرصة !

لقد خفر العهد دون ان ينطق .. وهل من الضروري ان يعمد الانسان
الى الكلام ينطق به لسانه متى وشت برغبته عيناه ونظراته ؟ لقد صارحها
فرونسكي برغبته ، وما هو ذا يحيد عنها بعد اجتماعه بانا !
وقالت تحدثت نفسها : « ان الذي قوله واحد لا يختلف ، هو الله ،
وليجر ما هو مقدر ، وليكن ما يكون .. » .

ودنا كورسونسكي في تلك اللحظة ، وكان على موعد مع الكونتس
بورديسون للرقص . بيد أن المرأة اعتذرت له عن ذلك ، فما كان منه الا ان
تحول الى كاترين ورجاها ان ترافقه الى حلبة الرقص .
وسرت كاترين ، فقد رأت في ذلك خلاصا لها من مازق حرج اوقعها
فيها فرونسكي ، ومن المرأة المتطفلة التي يستائر بليها الفضول .

ورقصت كاترين كانها تمثال او كأنها آلة . ولكنها لم تكن مضطرة الى
الكلام - وهذا من حسن حظها - فرفيقها في شغل عن الكلام بقيادة دنة
الرقص . وكانت ترقص عن كذب من انا وفرونسكي . وكان الاثنان يجلسان
في مكان واحد كلما انتهى دورهما ، وكانت تراهما ينهضان ليستأنفا الرقص
كلما حانت الدقيقة التي نتحتم عليها النهوض بها !

كانت كل لحظة تمر عليها يزيدا بقينا من اثم الاثمين .. وكان هده
اللحظات بمثابة الساعات العلويلة المفضنة !
كانا يسبحان في افق خاص بهما . بظنان كل الظن انهما وحيدان .
ناهيك عن نظرة فرونسكي - فابن شدتها ! لقد حل محلها نظرة حيرة
واضطراب ..

وخيل لكاترين ان قوة فاهرة تجذب عينيها الى وجه انا ..
فاستحوذت عليها رعشة عظيمة لمارات .. وما رأت كان ثوبا بسيطا . الا
انه اضفى على صاحبه من الفتنة والسحر ما يدهل كل ناظر ومتأمل ..
كانت فاتنة بدماعها المستديرتين اللتين يزينهما اسواران براقان ، كانت
فاتنة بجيدها الرخص الذي يحليه عقد من اللؤلؤ ، كانت فاتنة بضميرتها
المتروكة على سجيتها ، كانت فاتنة بلغتها ، وحركتها ، ونظرتها ، وبسمتها ،
وكانت فاتنة بقدميها الصغيرتين ، وبديها ووجهها !

الا ان في روعتها تلك كمن شيء رهيب ، شيء يمتاز بالقسوة المخيفة .
انها الروعة الباطشة .

ولما تبادل الراقصون والراقصات المواقع ، ودنا منها فرونسكي ،
كانت كاترين امرأة غيرها ، كانت تختلف في كل شيء ، حتى في هياتها
ومنظرها .. ولكي يقول هو شيئا فلا يبدو بمظهر الشلوذ ، قال لها ولبه
شارد وقلبه موزع :

« انها حفلة رائعة ، لم اشاهد لها مثيلا ! » واجابت هي : « اصبت ! »
ولما لبث نداء انا مع امرأة اخرى ، ودئت منها في وسط الحلقة وهي

لا تخفي امتعاضها ، ورتت اليها متاملة ، وابتسمت وهي تطرق براسها وتضعط على يدها . الا انها ما كادت تلمح نظرة اليأس التي اجابت كاترين بها على ابتسامتها حتى اشاعت عليها : وشرعت تبادل الحديث مع المرأة الاخرى وهي تضحك ضحكا متواصلا . وقالت كاترين تحدث نفسها : « اجل ان فيها شيئا مرييا ، ان فيها شيطانا مريدا ، ولكنه شيطان فاتن قاهر ! » وانتهى الرقص ، فذهب البعض وبقي البعض وتفرق من بقي في انحاء القاعة .

ووقفت انا كارنينا مع رب البيت . وكانت تعرب له عن رغبتها في الذهاب . الا ان الح عليها ان تمكث فتشاركهم في تناول طعام العشاء . وابقن الرجل انها ذاهبة بالرغم من ابتسامتها اللطيفة . واستأفقت انا تقول : « علي ان اذهب لاني رقصت الليلة اكثر مما رقصت في سنة كاملة ! »

والتفتت الي فرونسكي الواقف قريبا منها وعقبت بعد هنيهة : « يخلق بي ان اهجع واستريح قبل ركوب متن السفر بعد ساعات » فارتعش فرونسكي وانبرح يقول منفعلا :

« وهل انت مزمعة على مبارحة موسكو غدا ! » قالت : « هذا ما انويه » .

وحدجته بنظرة تتم عن تعجبها لجرأته في طرح الاسئلة . ولم تمكث انا بل استاذنت ومضت في سبيلها ، الي بيت شقيقها .

وأنا كارنينا امرأة الفتنة والجمال ما كذبت في صباح اليوم التالي
الحفلة الساهرة إلا أن ابرقت لزوجها في بطرسبرج تنبئه بقدمها .
وكان القطار المسافر إلى بطرسبرج يغادر محطة موسكو في السابعة من
مساء كل يوم ، وقد قضت أنا النهار بطوله في بيت أخيها ، ثم تناولت الطعام
مع زوجة أخيها . بيد أن الزوجة والأولاد رأوا فيها اليوم ما لم يروه من
قبل . وقد عجبت داريا لما شاب حركة هيأتها من تبدل ولكنها نسيت
هذه الظاهرة انشغال بالها في التاهب للسفر ، وإلى انفعالها لوشك مغادرة
أخيها وأولاده الذين كلفت بهم كلفا شديدا ، كما خيل إليها .
وأخيرا عندما تملكت القاطرة ، ونفخت ما في جوفها من نار وبخار ،
ودعت أنا أخاها وتهاكت على المقعد الوثير وهي تتمتع قائلة : « انتهى كل
شيء ، والحمد لله على نعمائه ! »
ودنت من النافذة ، وجعلت تلوح لشقيقتها مودعة ، ثم عادت لتخاطب
نفسها وتقول :

« الف شكر لله ، سأرى غدا « سيرج » و « اليكسيس كارنين » ،
وستعود حياتي إلى مجراها الطبيعي ، فتوضع الأمور في نصابها ، ويستريح
الضمير ، وتقر العين . » وما لبثت أن فتحت حقيبة السفر الحمراء وتناولت
من داخلها وسادة ناعمة صغيرة وضعتها على ركبتيها ، وغطاء دسرت به
قدميها « وإلى جانبها كانت امرأة كسيحة تغط في نومها بينهما امرأتان
تجادبان أطراف الحديث .

ولما أيقنت أن حديثهما لا يثير انتباهها بل يسبب ضجرها ، أخرجت
من حقيبتها كتابا إنكليزيا ومقطعا للورق ، ثم طلبت من خادمتها أن تنسج
المصباح وتعلقه وراء ظهرها .

ولم تستطع في أول الأمر أن تسترسل في القراءة ، فقد كانت الضجة
واللفظ شديدين للدرجة تعلمر معها على أنها أن تركز أفكارها في المعاني .
وانساب القطار في سيره السريع فاستحوذ من انتباهها ندف الثلج
المتلاطم بزجاج النافذة ، وانصت أخيرا لما كان يقال عن العاصفة الثلجية
الهبوءة التي تزار غضبي في الخارج .

ومضى الوقت وأنا لا اقرأ ، والاسباب التي تبعد بينها وبين الكتاب
وأحدة لا تتبدل . وعزمت في النهاية على ما عجزت عنه طويلا ، فأقبلت على
الكتاب تصفحه ففهمت كلامه ، ولكنها كانت تطالع كارهة .

فهي حينما قرأت ان بطله القصة كانت تعرض رجلا سقيما ، ودت
لو كانت تتحرك بهدوء في غرفة رجل يرحل به العلة .. وهي حينما قرأت
عن عضو في البرلمان يلقي خطبه مستفيضة ، هفت نفسها الى الاقتداء به في
القاء الخطبة .. وهي حينما قرأت عن عادة اذهلت الناس بجراتها ، خيل
اليها انها في نفسها تلك الحسنة الجسورة .. ولكنها لا تفعل شيئا . ولن
تسبح لها فرصة للقيام باي عمل .

وعلى انها لم تفهم المعنى « ولا فهمت المبني » ورات نفسها موقوفة
الى التفكير بموسكو ، وبالحفلة الساهرة .. وبفروئسكي ..

وشاهدت الشاب الوسيم ، وابصرت عينيه .. ولمحت في تينك العينين
المهومتين دعوة وتوسلا واستعطافا !

واطرفت والعرق البارد يتفصد به جبينها .. وعجبت وتولاهما
الشدة - اتخجل ! ولم تخجل ! ومم تخجل !

والح عليها هذا الشعور حتى فقدت معه كل صبر التمسته من الإرادة،
وانشأت أخيرا تحاور نفسها حتى تقنعها :

ماذا دهاني ؟ وهل انا صريعة الوهم ؟ هل اخاف منه ؟ وما معنى
الشعور بتأيب الضمير ؟ اجري بيني وبينه امر ما ؟ وهل يمكن ان يجري ؟
كلا .. كلا ..

واضادت فعما بلومة استخفاف ، وهزت رأسها كالثا تنفض من ذهنها
ما الح عليها ، وعادت الي كتابها تقلب صفحاته ، وتحاول عبثا ان تقسرا
كلماته . واحسب فجأة انه يجب عليه هو الآخر ان يخجل من نفسه ..
ولكنها عادت تتسائل عن السبب ، وهل صنع ما يوجب الخجل ؟
وهل اقترف ذنبا ، او اتى منكرا ؟ وهزت رأسها بالفعال وغضب الوقت
الكتاب من يدها ..

وتوقف القطار فنهضت انا و اشارت الي خادمتها ان تناولها قبعتها
ومعطفها ، وهمت بالباب ففتحته وهي تقول : « اريد ان استنشق الهواء
الطلق ، فالهواء كريحه في الداخل ، وهو مشبع بالروائح » .
.. وتعاركت قليلا مع العاصفة وهي تخرج ، وسرتها المعركة ،
فاندفعت غير آبهة لبرد او مكنثرة بريح .

وكان الرجال يهرولون في حركة سريعة دائبة ، وهم يتبادلون الحديث ويضحكون . ورجعت بعد دقائق الى المركبة فوضعت قدمها على درجتها وهمت بالصعود ، ولكن رجلا يرتدي معطفا عسكريا مر في تلك الفينة تحت مصباح الافريز ، فرمته بنظرة متفرسة ، وايقنت والدهشة تعقل لسانها انه فرونسكي . ومال الفتى نحوها رافعا يده قبضته عن راسه ، وقال وهو ينحن : هل هناك ما استطيع اداؤه لك يا سيدتي ؟

فرنت اليه طويلا ، وخيل اليها رغم الظلمة المحيطة بها انها تتبين جيدا نظرة عينيه ، وتعبير وجهه .. وكانت تلك النظرة تتحدث من تلقاء نفسها عن حبه وهيامه ، بل عن تقديسه لها ! وكأنت قسماته وامارته تشي كلهما بخضوعه التام وتسليمه المطلق ! ما اكثر المرات التي اكدت فيها لنفسها ان ما بينها وبين فرونسكي لا يتعدى ما بينها وبين سائر الرجال الذين تعرف ، وانها لن تسمح لنفسها ابدا ان تشغل رأسها بالتفكير فيه .. الا انها مساكادت تلمحه الان حتى دهمها شعور عارم بالمسرة والغبطة . ولم تكن في حاجة لتتساءل عن سبب مجيئه ، فهي واثقة من انه شعر بوجود الذهب التي حيث تذهب هي .

وما عمت ان قالت وهي تعطب : « لم اعلم انك مسافر كذلك ، فلم جئت ؟ وماذا جعلك تفادر موسكو ؟ »

وبرقت السعادة في عينيها كومةضة من نار ، وشع وجهها حتى لكان هالة من هناء تتكون حوله . واجاب الفتى بجاش رابط : « تسأليني عن السبب ؟ اما تعلمين اني جئت لكي الازمك ؟ اما تدرين ان لا حيلة لي في ذلك ؟ »

واردف وهو يقول بصوت مهموس ذليل : « اصفحني عني : ولا تفضي لقولي ، فما قلت الا الصدق ! »

لقد تكلم بعملة العاشق ، ولكن صوته كان يحمل في طياته الكثير من العناد والاصرار .. بل المزيد من العزم .

وقالت اخيرا وهي تقاوم معركة نشبت في داخلها : « هذا خطأ ، لقد اخطأت كثيرا ، وارجوك ، بل اضرع اليك ان تنسى ما قلت كما اني سانساه انا . » قال : « دون هذا حرق القناد .. لن انسى ولو حاولت النسيان .. كل كلمة نطق بها فمك ، وكل نظرة رمتها عينك ، قد حفرا حفرا في عقلي وقلبي ! » ففتفت بصوت متهدج : « كفى .. كفى .. » وحاولت عبثا ان

تكسب ووجهها ، الذي كان يرمقه بشغف وحب ، مظهر الغضب والتبرم .
وما أبطأت بعدما اخفقت في محاولتها ان فغزت الى داخل العربة .
ولكنها ما كادت تجد نفسها وحيدة في المر حتى تريت تفكر بما وقع لها
الآن .. ومع انها لم تتذكر ما قاله وما قالته ، الا انها ايقنت من ان هذه
المقابلة العابرة قد ادنتهما من بعضهما البعض لدرجة مخيفة .. فلهفت
نفسها ، ولكنها فرحت وتولتها مرة !

ودلفت الى مقصورتها وتهاكت على المقعد ، وهي نهبة لشتى المشاعر
والخلجات .

وفي ساعة الصبح الباكر قلبها الكرى على امرها ، فاستسلمت للنوم ،
ولم تستيقظ الا والقطار يشرف على ارض بطرسبرج . ووصل القطار
اخيرا الى المحطة . ولما دنا منها زوجها ، رمقته بنظرة فاحصة ، ورات
اذنيه - وكأنها تراهما لأول مرة في حياتها وتساءلت متعجبة عن سبب بروز
هاتين الاذنين ، وصرامة هذا الوجه ، وافتقار زوجها الى الوسامة والقسامة
والجاذب !

وعاجلها زوجها بالتحية وهو يتسم ابتسامته الساخرة التقليدية ،
ويحدجها بنظرة متفرسة ومتأملة . وقد شعرت على التو بشيء يضغط على
فؤادها ، وامنعضت وكأنها كانت تتوقع ان ترى شيئا اخر - ان تراه في
شكل اخر وان تلقاه بعاطفة اخرى ..

وكان هذا شعورها الملازم لها كلما اجتمعت الى زوجها ، الا انها لم
تعرف قبل اليوم ، او على الاصح لم تحدد حقيقة الا بعد اتصالها
بفرونسكي !

وقال الرجل : « اجل ، ها انذا زوجك المخلص الامين ، اقدم نفسي
وكلي شوق الى استقبالك ! »

ولم يخل صوته من لهجة التهكم التي تعهد بها فيه ، وان كانت تعبر
تماما عن صراخته ومشاعره الصادقة .. وقالت : « وسريج ؟ هو في
صحة جيدة ؟ »

قال : « وهل هذه مكافئك لي على شوقي ؟ انه في احسن حال ! »
اما فرونسكي فلم يحاول ان ينام في تلك الليلة . وقد لزم مقعده وهو
يرقب كل حركة . كان بشخصيته القوية يؤثر على الناس بطبيعته التي
توحي بالصرامة وعدم التردد ، اما ما انطبع على اساريره الليلة فهو العزم

والاصرار . وشعر نحوه بالكراهية موظف صغير كان يجلس قبالة ، وكان
مبعت كرهه ونظرته المتحدية المحترقة . وطلب منه الموظف نارا ثم حاول
أن يجاذبه اطراف الحديث .. وتعمد اخيرا ان يعيل عليه حتى يشمره بأنه
ليس مجرد شيء بل انسان مثله !

بيد ان فرونسكي نظر اليه كما ينظر المصباح ، فتهمج وجه الفتى ،
وشعر بأنه بدأ يفقد ثقته بنفسه تحت وطأة هذه النظرات التي تأتي ان
تعترف به كإنسان !

لم يبصر فرونسكي شيئا ، ولم يبصر اي انسان . وشعر انه ملك ،
ليس لظنه بأنه استرعى انتباه انا واثر عليها - فانه لم يؤمن بهذا بعد -
بل لان التأثير الذي احدثته انا في قلبه وشعوره سبب له السعادة والاعتزاز
وكثيرا من الاعتداد .

ولم يخف عنها الحقيقة ساعة صدفها لدى مخرج عربة القطار ، بل
جهر بما يكنه لها في صدره .. وسره ذلك ، سره يقينه بأنها محيطة بما لها
بين حوائجها ! وصل القطار الى بطرسبرج فترجل منه وهو يشعر ، رغم
ارقه وتسبده ، بالقوة والنشاط . ووقف في مكان يرقب نزولها وهو يمني
نفسه برؤيتها وسماع صوتها . ولكنه قبل ان يبصر بها ، وقع طرفه على
زوجها الذي كان يمشي مرفوع الراس يتبعه ناظر المحطة .

في تلك الفينة فقط تذكر فرونسكي ان هناك انسان متصلا بها اتصالا
وشيئا ، وان هذا الانسان هو زوجها ! زوجها ! .. كان يعلم ان لها قرينا ،
ولكنه انكر وجوده ولم يعترف به .. وراه الان ، وراى راسه المرفوعة ،
ومنكبته وسرواله الاسود الضيق ..

واضطرب فرونسكي اضطراب الاشمئزاز حين راى ان كارنين يقدمه
الضخمتين وبديه المهترتين . اما هي ، فكعده بها جميلة فائنة ومنظرها
يشير بهجة وبملا روحه املا وباسا اجل املا وباسا !

وبدا له ما رآه ان انا بعيدة كل البعد عن زوجها - بمشاعرها وافكارها
- وانا تعيش في منأى عنه لا يصلها به الا رابطة الزوجية ، اما العاطفة فليس
لها في قلبها وجود ! فهي لن تحبه قط !

وسره هذا الاكتشاف فتقدم نحوها بطينا متندا . وايقن ونفسه
جدلة انها شعرت به يدنو منها ، فتعلمت في مكانها وكانتها تود ان تلتفت
ولكن لا تجرؤ .. وواصلت حديثها مع زوجها ، وانتظرت .. اجل هذا ما

ايقن منه .. انتظرت .. وقال وهو ينحني مسلما باحترام :
« عسى ان تكوني قد قضيت ليلة مريحة في القطار يا سيدتي ؟ »

وغضت الغائنة من عينها قليلا ، ثم رفعت راسها .. فلم ير في
اساربرها ما رآه قبلا من نظرات الدعابة والمرح ، بل شاهد عوضا عن ذلك ،
شعلة عجيبة تضطرم بها عينها لحظة خاطفة . فيها آية الحب الكبرى
« وشعلته الخالدة التي لا تخدم ولا تنطفئ . والتفت الزوج الى فرونسكي ،
ولمعت عيناه كمن يلتهب غيظه ، ونظر اليه شزرا ، وجعل يقذف زناد ذاكرته
لعله يتحدث من يكون هذا من الناس .

ولكن انا سارعت تقول وهي تحاول ان تنقل الموقف : ذرني يا عزيزي
اقدم لك الكونت فرونسكي : فقاطعها زوجها ببرود وهو يمد يده الي
فرونسكي : « يخيل الي اني امرئك ، اما تقابلنا من قبل ؟ » واستدار الي
زوجته واردف باللهجة ذاتها : لقد ارتحلت مع الام وعدت مع الابن كما
ارى ... »

ولم يفهما المعنى الذي رمى اليه زوجها ، ولكنها تغاضت متجلدة ولم
تقل كلمة . ومضى زوجها وهو يشني الي فرونسكي :
« ألم يبق لك مأرب في موسكو حتى رجعت ؟ ام انك قادم في اجازة؟ »
وعجل يخاطب زوجته :

« ما اصعب الفراق يا عزيزتي ! ألم تدر في الدموغ ساعة غادرت
موسكو ؟ »

وكان يقصد من كلمانه ان يشبه فرونسكي الي رغبته في التفرد بزوجته
.. ولكن الشاب تجاهل الغاية وضرب صفحا عن المرمى ، وقال :
« لشد ما اتلف الي زيارتكم في اقرب وقت يا سيدتي ! »

فحدجه كارنين بعين اللائم المتبرم وقال : « لئق ان زيارتك تجلب لنا
المسرة يا سيدتي ، ونحن نمكث في البيت دائما يوم الاثنين من كل اسبوع ! »
واستدار كأنه يريد ان يشعره بانته لا يرغب في متابعة الحوار ثم تابط
ذراع زوجته وقال :

« اكثر ما يسعدني يا عزيزتي انتهاز دقائقك من وقتي لاراك فيها
واملي طرفي في حنك . وامتع نفسي بالاصفاء لكلماتك ! »
فقالت مازحة : لا تباليغ في وصف اخلاصك . فاننا لا اقدر الامور بما
تسحقها ؟ »

وانصت دون انتباه الى خطوات فرونسكي المتعددة ، وشعرت ان قلبها يرافقه ، وان روحها عصت جسدها ، وعصت عقلها !
ان لشبابه برذا قشيبا .. ولكنها استشعرت الندم ، وشادت ان تدارك الامر ، فسالت زوجها عن ولدها « سريج » ، وعن صحته وتصرفاته .
فما كان من الرجل الرصين الا ان اجابها مبتسما :

« روت لي الحاضنة « مارينا » انه لم يفرط قط في المرح والسرور كما افرط اثناء غيابك ، وهذا يدل على ان زوجك هو الوحيد الذي افتقدك ! »

فقررت انا ضاحكة . واستتلي هو يقول : وثمة انسان اخر كان لا يفتا يسأل عنك وكأنه يتعجل اوبتك وهذا الشخص هو صديقتك « الكونتس ليديا ايفانوفنا » .

وصمت فينة ثم اردف كمن يتذكر شيئا غاب عنه « وهل صادفك التوفيق في مهمتك ؟ هل نجحت حيث اخفقت غيرك ؟ » فلاح البشر على محياها واجابت «

كل التوفيق والحمد لله .. لقد كان الخصام على اشده بين اوبلنسكي وزوجته ولولا وجودي لانفصل الاثنان وتصعد البنيان وتشتت الاسرة » .

طلقت تقص عليه بالتفصيل دقائق رحلتها برفقة انكونتس فرونسكي الى موسكو ، وما شاهده من حادث مروع في المحطة .
وقال زوجها بعد انتهائها من سردها : اني وايم الحق لا آخذ ما اعلم به جنوح اخيك سوى مله الى المنعة المحرمة واللذة المتبدلة التي لا يستسيغها كل ذي حصافة وارادة » .

فرئت اليه انا مبتسمة متفكرة - انه كعهدنا به صارم في نظريته وتفكيره لا يطبق الانحراف .. وكانت انا تكبر فيه هذه العادة ، كانت تشق به وتحترمه لخلقه ولطبعه فهو لا يروقه المبادل التي ينغمس فيها سواء من الرجال ، وهو ياتف من مصادفة ايا كان ، متى ارتاب في امره ونواباه .

وقال الرجل : « هل اني مسرور لنجاحك في ازالة القمامة التي ظلت سماه العائلة » . ان شعاع الرجل يدل على شمسه ، وان هدوءه في القول والتفكير لا بلغ دليل على رجاحته واثرائه .. وقد خجلت انا ساسة انثى يقول بغتة : « اخبريني يا عزيزتي عن موقف الاهلين في موسكو حيال التجنيد الاجباري الذي اقرت موضوعه اخيرا في الحكومة » .

اجل ، خجلت انا لانها اهملت شأن زوجها . فلم تفكر فيه دقيقة ، ولم تحاول سبر آراء الناس في ما يعني زوجها من امور السياسة . بيد انها ، وقد كانت تعرف في زوجها ميله الى الاطراء والثناء ، طفقت ناله بحمية وحماس عما انتهى اليه مشروعه ، وعن المراحل التي مر فيها وينتظر ان يمر فيها اثناء الايام المقبلة .

وسر كارنين لاقبال زوجته واطهارها كل هذا الحماس ، فاجاب :
« ان مشروعي يا عزيزتي وليد تفكير واعداد طويل ، لهذا لم يدهشني ما صادفه من معارضة وتأييد .

ونظر الى ساعته ، وادرف : « اما الان فانا ذاهب ، يجب ان اذهب الى عملي ، وثقي اني جد مغتبط لعودتك » . فتمتمت بصوت خافت :
« لترافقك السلامة يا زوجي ! »

وابتعته بنظرها ، وناجت نفسها . « خير الرجال .. افضل الأزواج .. بارع ، بارز ، مخلص » .

فهل توخت من كلماتها ان ترجح كفته على كفة سواه ، هل تحارب احساسا غامضا بصرفها عنه صرفا شديدا ؟ وقالت فجأة : « غير ان اذنيه .. اذنيه .. لماذا طالتا وانتفختا هل حلق راسه اهل ازال كثيرا منه ! » وانتقلت بمخيلتها الى فرونسكي ، فرانه واعجبت به ، وتساءلت مغضبة :
تبا له كيف نظر ! كيف نظر الي ! » وهزت راسها واستقلت العربة .

ولما ترجلت امام منزلها هرع اليها ابنها سرج فضمنه اليها في حب وشوق ، وطبعت على وجنته قبلة اودعتها اغلى عاطفة ، قبلة مخلصة لا زيف فيها ولا رياء .. قبلة ام .

وفاءت الى نفسها وهاودتها طمانيتها - فهنا ملجا امين .. هنا لا تساوئها عين جميلة ، ولا وجه وسيم .. هنا مملكتها الصغيرة - ونسيت فرونسكي ، ونسيت خجلها ، ونسيت تأنيب ضميرها ، وما فكرت الا في بيتها وفي ولدها وفي زوجها .

شرعت بعد قليل تسخر من نفسها - كيف تعجب بشاب لم تراه الا مرات ا ثم كيف تفكر فيه وكلامه ليس فيه اغراء ولا بارقة ذكاء .. وقالت تناجي نفسها : « والاجدر بي ان ازيل من ذاكرتي ما صادفني وما طرق سمعي ، فلا احدث زوجي بامر تافه لا يستاهل التفكير ! »

فقد حلق بها شاب يعمل تحت امرة زوجها ، وجمل في كل مناسبة

يتودد اليها ثم حاول ذات يوم ان يبوح لها بلواعج قلبه ، من مآقيه .. فما كان منها الا ان اسرت الخبر الى زوجها . فلم يحفل ، بل صارحها القول بأنه لا يخاف عليها ، لانه يعلم ما تتحلى به من صفات المنعة والقوة والشرف . وشخصت الى اعلى ، وقالت : فلا موجب اذن لمفاتحتة في امر تافه ما دمت شريفة طاهرة لم اجترح اثما ولم ازر وازرة ! »

اصاب كاترين بعد تلك الولىمة وصب شديد ، وكانت الاسرة في غنى عن هذه المتاعب ، كانت في غنى عن المداورة في مسألة زواج كاترين .. فليغين خير شاب ، ولكن ...

لم يخف احد من سوء العقبى ، ونظروا الى فروتسكي كأنه الزوج المثالي .. ورائه كاترين يبصرها لا يبصرتها ، فلما ذهب ، وخيل اليها ان كل شيء ارتبط بمسالتها قد انتهى الى زوال ، اجتمعت الامور كلها على اثاره شجنها ، واستفزاز لها ..

واقمع قلبها بالحزن ، فحمل عودها ، ورق جلدها ، وتولاها شحوب واصفرار .

* *

ولى فصل الشتاء ، وخفت وطأة البرد ، وعقد في بيت آل شريانسكي مجمع طبي للبت في حالة كاترين الصحية ، والاجراءات التي يجب اتخاذها حتى تستعيد الفتاة قوتها . وقد اعطاها طبيب العائلة جميع انواع القويات الشائعة كزيت السمك ، ثم مشتقات الحديد ، ثم نترات الفضة . غير انه نظرا لعدم حصولها على الفائدة المتوخاة من الاول والثاني والثالث ، رأت العائلة انه يتحتم الاستعانة بنطاسي شهر .

وكان النطاسي البارع شابا جميل الصورة الى درجة متناهية ، حتى ان رب العائلة احتار في امره ، ولم يعرف كيف يستطيع ان يسمح له بفحص الفتاة ! ولما اجرى فحصه اخيرا قال ان حياة الفتاة من الوقوف عارية امام الطبيب لهو من قبيل البربرية ، وانه امر طبيعي ان تفعل ذلك دون تحرج .

وكان لا يرى شيئا مستهجنا في وقوف كاترين امامه عارية فهو يرى كل يوم في عبادته الوانا جديدة من اجسام النساء ، حتى اصبح كل اعتراض من هذا القبيل يشبه دهشة واشمئزاز .. وليس غريبا ان يعتبر تحرجها من الاقدام على هذا الفعل نوعا من الهمجية والبربرية !

ولم يجد آل شريانسكي مندوحة من الاذعان اخيرا . ومع ان جميع

الاطباء تلقوا عنهم في معهد واحد ، ودرسوا في كتب واحدة ، ومع ان بعض الناس زعموا ان هذا الطبيب الدائع الصيت لا يعرف من الطب الا اسمه ، ولكن ذوي الاميرة الام والمقربين اليها راوا بل سلموا جدلا بان هذا الطبيب وحده قادر على معالجة كاترين وشفاؤها من وعكثها .

واجرى الطبيب فحوصه الدقيقة على الفتاة العاربة الغارقة في عرق الخجل والحياء . ولما انتهى بعد ساعة ، غسل يديه بعناية ، ووقف مع الامير الاب يحدثه بصوت منخفض .

وقد اصفى اليه الرجل وهو عابس مقطب ، وسمل سعال من لا يريد ان يصفى الي لغو من الحديث .. وكان قليل الايمان بالطب ، يمج الاطباء ، ويعت هذا الطبيب بنوع خاص لغرابة اطوازه ، وشذوذه في نادية اعماله . وعلق ، وهو يصفى مكرها الي شرح الطبيب ، يحدث نفسه بقوله : « يا المضرور الاحمق ! يا المضرور الاحمق ! »

وقد بادله الطبيب شعور الكراهية ، والاحتقار ، ولكنه كتم ما خالج احساسه ، واخفى احتقاره وكرهه تحت قناع الجسد والصرامة . وكان يشعر وهو يكلمه انه يجور على نفسه وعلى وقته ، وان عليه ان يخاطب الاميرة الزوجة في شان ابنتها . ودخلت الاميرة في تلك اللحظة وبرفتها طبيب العائلة . فانسحب الاب وقد اصابته سورة من استهجان لهذه التمشلية التي طالت فصولها .

وكانت الاميرة موزعة الافكار ، مضطربة مرتبكة ، تشعر بانها مذنبه تجاه ابنتها لانها السبب في ما حل بها واصابها .. فلما دنت من الطبيب الشهير قالت تخاطبه . « قل يا سيدي الطبيب ، ماذا وجدت ؟ »
وودت ان تضيف الي كلماتها هذه الكلمات : « هل هناك امل ؟ »
فلم تستطع ان تنطق بهما ، بل رددت : « قل يا سيدي الطبيب ! »
قال : سأطلعك على كل شيء يا سيدي ، بعد ان اخلو قليلا الي زميلي »

فلما انفرد الطبيبان ببعضهما البعض ؟ شرع طبيب العائلة يشرح وجهة نظره ويبين لزميله ما توصل اليه . وقد زعم له ان كاترين مصابة بالتدرن الرئوي . ومضى يتكلم ، والطبيب الكبير يصيخ صامتا مقطبا . وقاطعه اخيرا فقال : « قد تكون مصيبا ، ولكن .. » واصفى طبيب العائلة بانتباه . واستطرد النطاسي يقول :

« ولا يغرب عن بالك ما تلقاه من صعوبة في تشخيص التدرن في اول امره ، وما لم تظهر العوارض الثابتة استعصى علينا التشخيص والتحليل .. بيد ان هناك علامات بينة - الضعف ، والانفعال ، والاضطراب وهلم جرا . وعلينا الان ان نقرر الطريقة المثلى التي يخلق بنا اتباعها لمقاومة الانهيار ، وتغذية الجسم المصاب او المعرض للاصابة .. »

وقال طبيب العائلة وهو يتسم ابتسامه مكررة :

« الا ان علينا دائما ان نأخذ بعين الاعتبار الاسباب الروحية ، وهي الباعث الاساسي ، والعامل الاول على انهيار المقاومة لدى المريض او المتعرض للمرض » . فنظر الطبيب الكبير الى ساعته واجاب : « نعم ، هذا امر مسلم به .. »

ونظر الى ساعته ثانية واستلنى : « علي ان اغادر هذا المنزل بعد دقائق .. آه ماذا كنا نقول ؟ التغذية .. اجل التغذية .. ثم تقوية الاعصاب .. وهذان الامران صنوان لا يفترقان ، ويجدر بنا ان نركز عنايتنا عليهما معا » . فقال طبيب العائلة : « وماذا ترى في جولة ترفيه الى الخارج ؟ »

قال : « لست من الميالين الى هذا الضرب من العلاج ، واذا كان المرض قد دخل في مرحلته الاولى فما نفع السفر ؟ وهل يجدي الحل والترحال فتिला في شفاء المريض ؟ اما الامر الذي يجب ان نقصر عليه عنابتنا فهو التغذية ، اجل التغذية » وجعل النطاسي الشهر يصف الطريقة المثلى لتقوية شهية كاترين وحثها على الاكل . واصفى طبيب العائلة بانتيباه واحترام لاراء زميله ، ثم قال : « الا ان الام تحبذ السفر الى الخارج ، كما اؤيدها انا في رايها ، لان الابتعاد عن موطن الذكريات لهو انجح علاج للقلب والروح والمشاعر » .

قال : فلتنذهب اذن ، ما دامت الام تصر على ذلك » . ثم نظر الى ساعته ، وتابع : « آه ، لقد سبقني الوقت ... »
وعجل الى الباب ، فالتقى الاميرة ، وطلب اليها ان تقوده الى كاترين .. فهتفت مندرة : « افحص طبي اخر ؟ اتود ان تفحصها للمرة الثانية؟ »
قال : « كلا .. كلا .. بل اريد ان اطرح عليها بضعة من الاسئلة او بعبارة اصح ، ان اشرح الامر قليلا » .
فقدته الام الى قاعة الاستقبال . وكانت كاترين هناك !

وطلب الطبيب الشهير اليها ان تجلس . وجلس هو تلقاها وطلق
مرة اخرى يلتقى عليها اسئلته المحتملة ، ويجلس نبضا ويتحسس جبهتها .
واحتدم فيظها على حين غرة ، فقالت بصوت متهدج :
« المعلقة يا سيدي الطبيب ، ولكني لا ارى فائدة فيما تفعل ، فقد
اعدت اسئلتك ، وقد تحسست رسفي وجيبي اكثر من عشر مرات ، فما
معنى هذا ؟ »

فلم يحفل الطبيب كلامها ، بل استدار الى امها ساعة اندفعت كاترين
خارجة ، وقال : « انفعال مصدره الوهن .. ضعف شديد في الاعصاب ! »
ثم انشا يشرح للام من الوجهة العلمية ، بصفها امرأة خائرة الذكاء ،
حالة ابنتها .. وقد اصر عليها ان ترغمها على تجرع نوع خاص من المياه
المعدنية ولما اخذت رايه في السفر ، استفرق الطبيب في الفكر ، وكأنه يحاول
ان يبت في مشكلة خطيرة ، واخيرا نطق بحكمه فقال : في استطاعة كاترين ان
تسافر شريطة ان لا تستامن اي طبيب اجنبي ! »

وجاءت داريا ، فجلست مع امها وشقيقتها « ثم دلف الامير الاب الى
الحجرة ، فقدم خده لابنته داريا ، وقال موجها الحديث الى زوجته :
« امصمة انت على الرحيل ؟ وماذا فعلت من اجلي انا » قالت : « ارى ان
تبقى هنا يا الكسندر ، على ان الامر موكول اليك يا عزيزي » .

وانبرت كاترين تقول : اماه لماذا لا ياتي معنا ؟ ان في رفقته متعة لنا
وله .

فدنا الامير من ابنته ومسح على شعرها بيده ورفعت الحشاء راسها
ونظرت اليه متوسلة .

فلما التقت لحاظها بلحاظه في تلك الدقيقة تراءى لها انه اكنه ما
يختلج في اعماقها ، وسر حقيقة العلة التي معثت في صدرها . وتضرجت
وجنتاها ، لقد علم ابوها من امرها ما حرصت على كتمه ! واقبل الامير
على داريا بحدثها حديث الاب الشفوق ، ويسالها عن زوجها ويستوضحها
عن حالة بنينا ، ثم عطف فجأة عن كاترين وقال :

« اتدريين ما يخلق بك عمله يا كاترين لا يجب ان تنهضي من فراشك في
ساعة مبكرة ، وان تقولي لنفسك كلما استيقظت : - انا على خير ما يرام ،
انا قوية سعيدة ، وسأخرج مع ابي في جولة بعيدة » .

وحديثه الام بنظرة لوم وتقريع ، وقالت مؤنبة : « اترى نتيجة

دعابتك ، انت دائما .. » وانطلق لسانها في سيل لا ينقطع من الاتهام والتجريح .

واستخرطت الاميرة بكى ، وتقدمت منه وهي تردد : « الكسندر .. الكسندر .. »

وهذات نائرة الامير ، فضمها اليه وجعل يقول : « كفى .. كفى .. »
انت محزونة ايضا ، ولكن ما لنا عن الصبر غنى ، ولم يزل هناك امل في انتشاع الفعة .. »

وغادر الامير الغرفة ، وتبعته داريا ، ولكنها لم تذهب الى حجرته ، بل عرجت على شقيقتها في مخدعها .

الطبقة الراقية في بطرسبرج ، هي بالضرورة واحدة ، وفيها كل واحد يعرف كل واحد ، وكل واحد يزور كل واحد .

بيد ان هذه المجموعة العظيمة لها اقسامها وفروعها ، وكان لانا كارينا اصدقاء مقربون تنتظمهم حلقات ثلاث .

الحلقة الاولى تلك التي تشتمل اصدقاء زوجها ، ومن تربطه بهم اواصر العمل .. وقد نظرت اليهم في اول الامر نظرة المهابة والاحترام ، ثم لمحت بدخيلتهم ، ورات مواطن الضعف فيهم .

والحلقة الثانية ، كانت الحلقة التي صعد زوجها بواسطتها درجات النجاح والشهرة ، وافرادها في الغالب عجايز بلغن من العمر عتيا ولكنهن اتصفن بدمائة الخلق والطيبة والارحية . كما ضمت هذه الحلقة على نفر من الرجال الاذكياء المظلمين الطامحين بابصارهم الى الذروة .

اما الحلقة الثالثة التي توشجت الاواصر بينها وبين انا ، فقد كانت حلقة الحفلات والسهرات ، اي حلقة الدنيا - دنيا اللهو والمتعة « دنيا الطعام والشراب والازياء والبلخ - وكان محور هذه الحلقة الاميرة «بتسي» قريبة انا وفروفسكي في آن واحد .. وكانت هذه الاميرة ثرية يقدر دخلها بمئة وعشرين الف روبيل ، وقد مالت الى انا واحبتها وادنتها منها .

وكانت تقول لها في معرض الحديث عن الحلقة الثانية : « وعندما اصبح امرأة طاعنة في السن اندمج في هذا الرهط الخرف ، اما وانت يافعة شرخة فلا تفعل ي عزيزتي ، اجل لا تنخرطي في سلك نزيلات ماوى العجزة » وقد تجنبت انا في البدء هذا الوسط المترف لان وسائلها المادية لا تتيح لها مجاراة المنتمين الى هذه الحلقة في بدخن واسرافهن ، الا انها عقب

عودتها عافت نفسها الحلقتين الاولى والثانية وطفقت تتردد على المجتمعات هاته الزهورات الياعة حيث التقت فرونسكي ، ومرت في طور عجيب من السرور المضطرب اسفر عنه هذا اللقاء وما تلاه من اجتماعات .

ولم تشجعه على البوح لها بخلجات فؤاده ، الا ان كلماته كانت تجعلها تشعر بنوع جديد من انواع الحياة لا عهد لها به كانت تشعر ان حيوها يصعد الى عينيها بريقا ، والى شفثيها بسمة .. ولم يكن في استطاعتها كتمان ما بها ، فالشعور له صور شتى ، وطرقه معوجة لا قبل للمرء على عرقلتها . وكان فرونسكي في الاونة الاخيرة يكثر من زيارة الاميرة لما لاحظته من صداقتها المتينة لانا ، وكان يصبو دائما الى فرصة مؤاتية يستنحها للتحدث الى فائنة له . وتناهى الى فرونسكي صوت خطى تقترب . فايقنت الاميرة بتسي ان القادمة هي انا كارينا ، فنظرت الى فرونسكي . وكان الشاب يحدق الى الباب وقد كست وجهه نظرة عجيبة . ونهض متباطئا عن مقعده ودلفت انا الى القاعة وهي مرفوعة الراس منتصبية القامة، تمشي خفيقا ولا تلتفت ، ولا تطرف لها عين .. ولما وصلت الى حيث كانت المضيفة تقف ، حبتها باتسامة وصافحتها ضاغطة على يدها بولاء ، وما عنمت ان استدارت الى فرونسكي وهي لا تزال بتبسم ، فاحنى فرونسكي قامته ، ثم قدم لها مقعدا .

فاومات براسها ، واحمر وجهها قليلا ، وانثنت تصافح الابدي المدودة لمصافحتها ، بينما راحت تحدث بتسي وتقول :

« كنت في منزل الكونتس ليدا ، حاولت ان ابكر بالحضور ولكني مكثت مرغمة ، فقد كان السير جون هناك ، وهو كما تعلمين محدث بارع يستولي على الاسماع » .

وقالت احدى المدعوات : « احقا ما قيل لنا من ابنة الامير فلاديمير ستبعل للكونت توبوف » ؟ اجل ، وقد انفقت العائلتان الكبيرتان .

وهل هو زواج سداه الحب ولحمته التفاهم ؟
وصاحت امرأة : « الحب ؟ هذا هراء ! ما هو الحب واين نجده في هذه الايام ؟ » وقال فرونسكي : « الحب يا سيدتي اساس كل زواج » .
« كلا .. فالزواج السعيد هو الذي لم يكن وليد حب عنيف » .
وضحكت انا وضحكت المضيفة .. والتفتت الاولى بغتة فزات فرونسكي برمقها بنظرة تغيض غراما .. فما كان منها الا ان خاطبته قائلة :

ورنا اليها الشاب بلحظة متأمل ، فراهه ما شاهده من جمالها - اذهله هذا الرواء العديم الذي تضج من قامتها ، وما ابظا ان قال : « وماذا تقترحين ان افعل ؟ » .

ونظرت اليه ثم اجابت : « اريدك ان ترحل عن بطرسبرج .. ان تذهب الى موسكو .. دون ابطاء ! » فقال وهو لا يرفع عينيه عن وجهها :

« متأكدة انت من رغبتك ؟ هل تريدني حقا ان اذهب ؟ » فاجابت بصوت مهموس : « اجل ، اذهب الى موسكو ، الى كاترين ، وامنذر اليها » .

ان كنت تحبني حقا ، فافعل ما اطلبه منك ، حقق رجائي حتى تعود الى طماننتي وهدوء حالي » .

« الا تعلمين انك الحياة كلها بالنسبة لي ! الا اني ادورق طعم الطمانينة والسلام ، ولا يمكنني ان افكر فيك وفي نفسي كشخصين مفترقين ، فانت وانا في طرفي شخص واحد ، ولا اجد امل لنا في السلام ، بل لا اجد املا لكليتنا للشعور بالطمانينة بل على العكس ارى شقاء وقنوطا » .

وسمعت كلامه كله ، وانغمضت بعينها ، ثم حددتهما في وجهه . وكانت نظرتها مغممة بالحب .. ولم تحر جوابا .

وفكر انني اجني ما زرعت .. فعندما شرع الياس يتغلغل الى فؤادي ، وخيل الى ان لا نهاية لهذا الامر ، اظفر فجأة بالمني ، انها تحبني ! وهي تعترف !

« اذن افعل هذا من اجلي ، لا تلقي على مسامعي مثل هذه الكلمات ، ولكنك صديقتين .. » قالت انا ..

فاجاب : « لن تكون صديقتين وحسب ، وانت تعرفين ، فاما ان تكون اسعد اهل الارض ، واما ان تكون اكثرهم شقاء . وهذا منوط بك انت ! » . وحاولت ان تجيب ، ولكنه استتلى بسرعة :

« ولي طلب واحد ، طلبي الذي اوجهه اليك هو ان تمنحني حق الامل في ان يكون لي الحق في الالم .. كما اتالم الان .. فان كان هذا ايضا غير ميسر لي ، فمعي ان اختفي ، ان ازول ، وسامضي الى المجهول ، ولن يقع نظرك علي » .

« كلا ، فانا لا ارقب في ابعادك » . فاجاب وصوته يرتعش قليلا :
« فليبق كل شيء على ما هو عليه .. ها هو ذا زوجك انك مقبل » .

وكان كارئين زوجها يتقدم في تلك اللحظة بهدوء وثقة « وقد التفت الى
زوجه وفرونسكي ، ثم توجه الى ربة الدار حيث جلس الى جانبها يحسو
فنجان الشاي الذي قدم له ويجاذبها الوانا من الحديث ، بلهجة المتهمكة
التي اصبحت ملازمة له لا تفارق طبعه ، وكأنها سجية !

قال : « لله درك يا سيدتي ، فيبتك امسى ملقى الافاذ من الرجال
والنساء وهو وايم الحق ائبه بقصر « رامبويه » في فرنسا » .

بيد ان الاميرة « بيتسي » لم تكن لتتحمل منه مثل هذه اللهجة
الساخرة ، فبدلت وسعها حتى تمكنت من ارفامه على الخوض في حديث
جاد رزين عن التجنيد الازامي . وكما هاجمت المشروع وطغت فيه نسي
الرجل كل شيء آخر ، وجعل يدافع بحماس منقطع النظير عن الحافز الذي
جعل الامبراطور يصدر مرسومه .

وهمت سيدة في اذن صديقة لها ولانا ، وهي تومض بعينيها : « هذا
غير لائق ، انهما يرتكبان ما ينافي الادب ! » .

ولم تكن هاتان السيدتان هما الوحيدتان اللتان استهجتا تصرف انا
وفرونسكي ، بل ان جميع المدعوين قد اخلوا على الشابين شذوذهما ،
وتهامسا في شيء من الحقن عن اعتزالهما بقية الضيوف ، وكانهما لا
يبصران في هذا المكان الا شخصيتهما .

اما كارئين ، فقد كان الشخص الوحيد الذي لم يلتفت اليهما « بل
انه مضى يتحدث بحرارة وايمان ، وكان الامر لا يعنيه في قليل او كثير !
« وضاعت الاميرة بتسي ثوبا بتحول الافكار الى انا » فاحتالت على
الانسحاب من مكانها ، واتجهت اليها وخاطبتها بصوت مرتفع :

« لشد ما يعجبني زوجك بحدبته الواضح المفهوم ، وبخيل الي كلما
امترسل في كلامه اني اصغي الى الافكار سموا .. الى افكار لا تصدر الا
عن رجل طويل الباع فائق الذكاء » .

فتللا وجه انا واجابت : « اصببت اصببت .. » ولكنها لم تسمع كلمة
مما قالته الاميرة بتسي .. فسعادتها كانت من نوع اخر .. وما لبثت ان
نهضت الى المائدة الكبيرة « واشتركت في ما اخذ القوم به انفسهم من نقاش
ولجاج .

وتحفز كارئين بعد ساعة لمغادرة المكان ، وطلب الى زوجته ان تنهض
للدهاب ولكنها امتلذت له زاعمة انها ترغب في تناول طعام العشاء مع

صديقتها الاميرة بتسي . فلم يعانع الرجل او يصر على اصطحابها ، بل حيا
الجميع مودعا ومضى في سبيله .

واصاحت انا لرفيقتها بانتباه . وكان الفتى يقول :

« لم تعدي بشيء ، وان اطلب منك شيئا ، انك تعلمين ان الصداقة
هي ليس كل ما ابغى .. ان هناك سعادة واحدة فحسب ، وان هذه
السعادة تكمن في كلمة واحدة تمقتينها انت - الحب - اجل ، الحب .
وردت انا الكلمة ببطء شديد : « الحب .. الحب .. » .

واستتلت بسرعة وهي تتحفز للصعود الى العربة : « اننى امقت هذه
الكلمة لانها تعني كثيرا بالنسبة لي ، بل لانها تنطوي على معان هائلة لا قبل
لك على التمكن بها ! » ومدت اليه يدها وحدجته بنظرها ، ثم استقلت
العربة .

لم يجد كارنين في تصرف زوجته في تلك الايام ما تلام عليه ، ولكن لم
يفته ما طرا الضيوف من اضطراب ، وما أخذوا به انفسهم من الهمس
واللفظ . ولهذا تراءى له ان ما فعلته انا لم يكن يليق بها ، والى ان يحدثها
بذلك صراحة لدى اوبتها .

وقلب الراي على مختلف وجوهه ، ووطن النفس اخيرا على مواجهتها
بالحقيقة السافرة ، ومجابتها بهذا الكلام .

« لا اجد لي مهريا من ابضاح النقط التالية لك يا عزيزتي : اولا : عدم
الاستهانة بالراي العام والدوق واللياقة ، ثانيا : الحرص على صيانة المعاني
الدينية للزواج ، ثالثا : التمكن بما عسى ان يلحق ابننا من المدلة ، رابعا :
ما قد يجره هذا علينا من الشقاء والعناء ! » .

وارتفع في الخارج صوت عربة تسير صوب الباب ، فجمد الرجل في
مكانه وسط الغرفة . وتناهى الى سمعه صوت خطى لامرأة ، فضغط على
يده .. ومع رضاه عن الكلمات التي اعددها ، بيد انه شعر بالخوف من
التفسير والابضاح .. فلو سألته عن الاسباب التي حدثته على مجابتهما
بمثل هذا التحدير ، لاستغلق عليه الامر وارتح عليه القول .
دلفت انا الى بيتها مطرقة .

ولدى شعورها بوجود زوجها ، رفعت رأسها وابتسمت ، وقالت وهي
ترك قبعتها تسقط من يدها : « اراك ساهرا ، فما اعجب هذا منك ! » .
ومشت الى حجرة الملابس وهي تتمتع : « ان الوقت متأخر يا الكسي » .
قال : « انا لا بد لي من محادثتك » قالت متمعجة : « محادثتي ؟ » .
وتريثت لدى الباب واستثلت : « ولماذا ؟ وماذا تود ان تقول ؟ »
وجلست على الاريكة وتابعت : « هات ما عندك ان كان لا بد الليلة من
الحديث ، مع اني افضل النوم على كل شيء اخر » .
قالت انا ما حضر بديتها ، وعجبت ساعة سمعت نفسها ، لقدرتها
على الكذب .. فهي لا تشعر باي ميل للرقاد ..
وقال الرجل : « يخلق بي يا انا ان احلرك .. » .
فقاطعته مدهوشة : تحلرني ! ومم تحلرني ؟ .
ونظرت اليه نظرة بريئة طبيعية ، حتى كان من المتعذر على كل امرئ
لا يعرفها كما يعرفها زوجها ، ان يجد شيئا غير طبيعي فيها .
اما زوجها ، العليم بخفجاتها لاقبالها عليه في كل شعور يعتمل في
صدرها ، تستشيرها وتأخذ رايه ، فانه امسى قادرا ، بعد ان اظهرت عدم
الاكتراث بما يجيش في صدره ، على معرفة الكثير من امرها دون كلام ولا
استجواب .

وراي ان اعماقها التي كانت مفتحة المصاريع له قد اطلقت الان الى
الابد .. وفوق ذلك لاحظ من صوتها وحدته انها لاتعبأ به . او بالاحرى لو
علم ان قلبها قد انشغل بسواه عنه ! ...

بيد انه ناجى نفسه قائلا : « ولكن ، ربما وجدت المفتاح ، فلاحاول ! »
وانبرى يقول بصوت هاديء منخفض : « ارنجب في تحلررك من قلة الاكتراث ،
فلاهمال بشير القلة ، وجعل المرء مضفة في الافواه ، وخلوتك بالكونت
فرونسكي الليلة كان لها عواقب وخيمة ! » .
ونظر خلال حديثه الى عينيها الضاحكتين ، فلحمر اشد اللحمر مما
شاهده فيهما من الفموس والابهام ، وشعر بل ايقن ان محاولته عقيمة لا
طائل تحتها .

واجابت انا ، وكاتها لا تفهم ما يقول :
« انت لا تبدل يا عزيزي .. تارة تندد ببرودي وجمودي ، وتارة
تستهجن حيويتي ومرحي .. والليلة لم اكن جامدة ميتة المشاعر ، فهل
انقلت عليك ؟ هل اذبتك ؟ » .

وارتعش الكسيس كارنين ارتعاش الرهبة ، واجاب بلطف : « انا !
هل انت ، انت ؟! » .

فقالت بدهشة صادقة : « وماذا جرى يا ترى ؟ وماذا تريد مني ؟ » .
وتردد كارنين وتحسس جبهته وعينه . وقد رأى انه بدلا من ان
يفعل ما عزم عليه من اطلاع زوجته ، او بالاحرى تنبيهها الى الاخطاء التي
يرأها الناس ويتشدقون بها ، غنى كل العناية بضميرها واحساسها . ولم
يلت بعد قليل ان قال ببرود وهدوء :

« اضرع اليك ان تصغى لما اقول ، انني كما تعلمين اعتبر الغيرة شيئا
ينطوي على الشين وأربا بنفسي عنها ، وأضن بها من ان تسترقها الغيرة
فتبددها . بيد ان هناك الذوق ، وحدوده ، وسدوده . . ولا يمكن للمرء
ان يخترق الحدود ، ويحطم السدود . . لم ابال الليلة بما جرى ، ولكن
التأثير الذي احده عزوفك عني كان مشينا للغاية ، بل اكثر سوءا مما
تظنين ! » .

فهزت انا كثفيها واجابت بقلة اكتراث : « لا افهم ما ترمي اليه ! » .
واستلت فيما بينها وبين نفسها : « انه لا يبالي ، ولولا انتباه الضوف
للمر لما اضطرب وارتبك ! » .

واردفت بصوت مرتفع : « انت متوعلك يا الكسي . . . » وانصبت
واقفة وانجعت صوب الباب . ولكنه خطا الى الامام كأنه يحاول منعها من
الخروج .

وكان وجهه مكفهر ، لم تره انا من قبل على تلك الحالة . . كان مزيدا
ينطق بالنورة العارمة المتعملة في اعماقه .

وتريثت مجفلة ، ثم كتعت ما بداخلها من اشمزاز ، وقالت وهي ترفع
يدها الى رأسها لتتزع من ضفيرتها الدبابيس المذهبة : « ها آنذا اصبخ
لك ، فهات ما عندك ، فانا مشوقة الى عجم عودك ، وسبر حقيقة نزونك ! » .
وتولاها عجب شديد - فكيف تأتي لها هذه القدرة ؟ كيف تستطيع
مجاوبته بمثل هذه البرود المتكهم .

« اني اعتبر التغفل الى اعماق مشاعرك واحاسيسك تطفلا لا يحق
لاحد ان يجتث اليه ، حتى ولو كان زوجك . . بل اني على يقين من ان لمثل
هذه الخطوة عواقب وخيمة ، لان المرء اذا حاول استكشاف الروح رأى في
الغالب ما يبطنه ويخيب امله . . فشعورك ملك لك ، شعورك موكول الي
ضميرك ، فمير اني اشعر ، بل اعتقد ان الواجب الذي يفرضه علي رباط

الزوجية - واجبي تجاهك ايها الزوجة ، وامام الله - هو ان الفت نظرك الى واجبك أنت .. لقد اندمجت حياتنا ليس بفعل الانسان بل بارادة من الله ، ولا يفصم هذا الرباط المقدس الا جريمة ، ولكل جريمة عقاب ! » .

وهتفت انا بسرعة : « لا افهم كلمة مما تقول ، وقد استولى علي النعاس ، فدعني اذهب الى مرقدتي » .

فاجاب : « ناشدتك الله ان تلقي عن هذه اللهجة يا انا .. ولكن لا يغرب عن بالك اني قلت ما قلت ، بحافز من المصلحة المشتركة بيننا ، فانا زوجك ، وانا احبك ! » .

وتلاشى من عينيها بريق التهمك ، واطرقت متاملة متفكرة الحب ! وهل يستطيع ان يحب ، ولو لم يسمع عن شيء اسمه الحب لما نطق قط بهذه الكلمة .. انه لا يعرف معنى الحب ، اجل ، انه لا يعرف معناه !

ثم رفعت رأسها وواجهته بنظرها وهي تقول : « ثق اني لا افهم مرادك يا الكسي ، فكن صريحا ووضح !

قال : « ذريني اكشف لك عما يعتل في صدري ، اني احبك ، بيد اني لا اود ان اتحدث عن نفسي ، لان الشخصين اللذين اريد ان ارسى مصلحتهما هما انت وابننا . ربما اعتبرت كلامي هراء لا مثيل له .. وربما كنت مخطئا في رأيي وتفكيري نتيجة الوهم الزاحف ، فان كنت كذلك فاضرع اليك ان تغفري لي وتصفحي عني ، اما ان كان لغفوني شبح من الحقيقة ، فاسالك ان تعلمي الفكر ، وان تتروي ، وان تبينسي ما في صدرك .. ارجوك ! » .

وغاب عن بال الرجل القلق انه قال غير ما ازمع ان يقول : واغتصت المرأة ايتسامة مقهورة واجابت : « ليس لدي ما اقول ، وفوق ذلك فالوقت متأخر وعلينا ان نأخذ لنفسينا قسطا من الراحة » . وتنفس الكسيس كارتئين الصعداء ، ومشى بخطوات بطيئة على مخدع النوم .

ولما جاءت بعد دقائق الفته مشطجما في الفراش . واستلقت الى جانبه وانتظرت ان يتكلم .. انتظرت كلامه بمزيج من الخوف والرعدة والتلهف على سماع ما يود ان يفصح عنه . ولكنه لزم الصمت .. لم يثن عنها انتظارها شيئا .

وفجأة تناهى اليها صوت قفأط .. ثم اتقطع الصوت كان الكسيس

خجل من نفسه .. ولكنه لم يلبث ان ارتفع ثانية متقطعا بلحن رتيب منتظم .

ومع ذلك فقد مضت عليها الدقائق وهي شاخصة الى السقف تفكر وتفكر ويتراءى لها ابان امعائها في الفكر ، انها ترى بعينها وميض عينيها ! منذ ذلك اليوم بدأت حياة جديدة في بيت الكسيس كارنين . لم يحدث شيء غير عادي ، واستمرت انا تخرج الى المجتمعات كما كانت تفعل . واكثرت من زياراتها لقصر الاميرة بتسي حيث كانت تجتمع الى فرونسكي . وكانت تلقاه في امكنة اخرى ايضا ، بل انها وجدته في كل مكان ذهبت اليه .

ورأى زوجها وابصر ، ولكنه لم يستطع ان يفعل شيئا ، فانها ظلت في منأى عنه ، تتجنبه وتبتعد عنه وتفعل كل باب للحديث يحاول فتحه . وقد عافت محضره ، وصدقت عن الاجتماع اليه ، اما امام الناس فقد حرص الاثنان على الظهور بمظهر الزوجين المتفاهمين المتوايمين ، مع ان علاقتهما في المنزل كانت لا تفنا تتدهور من سيء الى اسوأ .

الكسيس كارنين - الرجل الشديد المراس ، الطويل الباع ، البارع العظيم القدر - هذا الرجل المشهور وجد حاله ضعيفا في بيته ، لا حول له ولا طول ، كالثور يحني راسه بخضوع انتظارا لضربة الغاس !

انه كل مرة حاول ان يفانح زوجه بالامر كان يشعر كأن روح الشر التي تهيم على مشاعرها قد انتقلت اليه هو ، وانه اضحى مثلها منافقا مرأبيا ، ولولا ذلك لما تغير الموضوع وخاض في حديث اخر غير الذي بدأ فيه ! وهكذا مر الوقت .. والرجل حائز في امره . والمرأة سادرة في

هواها .

على مفرق طريقين . الفت انا نفسها . الى اليمين طهر وعفة ونقاء .. والى اليسار فحش ودنس ورجس .. فالى ايهما تنجه الغاية .. انها على مفرق طريقين تغف .. والقدر ينتظر .. وزوجها الملهوف ينتظر !

هذا الذي كان لفرونسكي الوتر الوحيد لحول مضي ، هذا الامل
الجياش تحقق اخيرا ، وظفر فرونسكي بما اشتهى وابتغى .
ووقف فرونسكي تلقاها اصفر الوجه ، مختلج الجنون ، ترعش حنكه
رعشة الانفعال . وجعل يبتهل ويتوسل اليها ان تهدا ، وان تسكن ، وان
تخفف من غلوائها . وفي صوته نغمة استعطاف مخنونة : « انا ! انا لا
تسترسلي فيما انت فيه ، ناشدتك الله .
ولكن صوته المتهدج المرتفع النبرة جعلها تسبل جفניה ، وتحني
صعدتها . وكان ان ازداد شعورها بالعار والصفار . ثم انهارت على الارض ،
قريبا من قدميه .

وما لبثت ان هتفت والهة : « المغفرة ، المغفرة .. لقد اذيت ! » .
ما امر الخطيئة ! شعرت انا بالفضاضة ، شعرت انها خاطئة ، مجرمة ،
وان كل شيء صالح قد زال من حياتها ، وانها انخفضت الى الدرك الاسفل ،
وانه لم يبق لها سوى العقاب ، واستجداء الصفع .

على انه احس كما يحس قاتل يرى جثة ضحيته مسجاة لتقاء ناظره ..
انه حرما من الحياة .. انه قتلها .. وها هي جنتها - الجثة التي حرماها
من الحياة ، انها جثة الحب .. انها المرحلة الاولى من حبهما .

كان هناك شيء مربع بصنوع في مخيلته ، كان هناك فكر هائل عن
الشيء الذي اشتراه بثمن العار الرهيب - العار .. او الشعور بالخجل من
تعري روحهما من لباس الحشمة والعصمة ، حطماها هي ، واذل كبريائه
هو !

على انه من الرعب القاتل الذي يواجهه الجثة ، يتحتم عليه ان
يعزق شلواها اربا اربا ، وان يخفي اجزاءها ، وان يمتع نفسه بما ظفر به
عن طريق الجريمة !

وما هي الا فينة حتى القى فرونسكي نفسه على الضحية ، وسحبها ،
واوسعها لثما وتقبيلا ، مثله في ذلك مثل القاتل الذي ينقض بجشون على
جثة القتيل المضرج بدمه .

وقبلها في وجهها وكتفها وصدرها . وامسكت هي بيده ، ولم تبد
حرآكا لهذه القبلات - اي ذلك الشيء الذي اشترياه بعارهما . .
ورفعت يده الى شفتيها وقبلتها . وجثا فرونسكي على ركبتيه ،
وحاول ان يرى وجهها . ولكنها اخفته لم تقل شيئا .
واسترجعت ما اذرتة الخطيئة من راحة بال وضمير ، فانتصبت واقفة
ودفعت عنها ، وكان وجهها جميلا كمادته ، ولكنه كان ينطق بالاسى ، وكان
يستدر الاشفاق .

وقالت بصوت عذب حزين : « انتهى الامر ، ولم يبق لي الاك ، فتذكر
هذا » . ورد عليها بصوت جهير : « لن انسى ما حبيت اكسير الحياة ، لن
انسى السعادة » .

وكان غضبتها تسرب منها شرر محرق الى نفسه ، فبدا متجهما
عبوسا ، وحاول الكلام ، الا انها قطعت عليه الطريق قائلة : « لا تقل شيئا
اصمت ! » . ونظرت اليه شزرا ومضت من المكان لا تلوي على شيء .
خليط من المشاعر غزا قلبها ، فلم تدر اهي حزينة ، ام جدلة ، ولم
تدر اهي قانطة ام متفائلة ؟

وتعاقبت عليها الايام وهي اعجز ما تكون عن سير غور هذا الشعور
المتضارب . . وما اكثر ما خاطبت نفسها بقولها : « لا . لا . لا استطيع الان
ان افكر في هذه المسألة ، وسافعل ذلك بعد ايام ، عندما تهدأ اعصابي ،
وتخمد رقدة عدابي » .

على ان الهدوء المنشود ظل في منأى عنها ، وظل فكرها يخبط في الفضاء
دون كايح ، كما ظل حلم واحد مزعج يوقظها كل ليلة من نومها مدعورة
مزودة . .

كانت تحلم كل ليلة ان الرجلين اصبحا زوجيها ، وانهما يتقاسمانها
ويتمتعان بمحاسنها . . وكان الكسي كارئين يلدرف الدمع السخين فوق
صدرها ويقول : « ما اسعدنا ! ما اسعدنا اليوم ! وفرونسكي كان معها
ايضا ، وكان زوجا لها . . وكانت هي تشرح لهما الامر ضاحكة مفرقة في
الضحك ، كانت تنبئهما انهم حازوا ما صبت اليه نفوسهم . . اليس في ما
حظوا به ما لا يطمع باكثر منه انسان ، الا يشعرون جميعا بان الحياة استقام
لهم معوجها ؟

بيد ان هذا الحلم كان يعذبها عذاب السعير .

سأقت الدنيا في عيني ليفين ، وغدا بعد عودته من موسكو يفكر في
خييته المرة ، وفي هذا الغسل اللربيع الذي مني به .

ومضت الايام ، فحفت وطأة غمه وشرح يقارن بين مصيبتيه الجديدة
ومصائبه القديمة التي كان يظن كلما لحقت به منها واحدة ، انه لا بد منها
تحت وطأها .. وها هي السنون تمر عليه ، فينسى ما كبده .

وناجى نفسه احيانا بقوله : « كنت الظن اني انتهيت ، ولكني حبيت
وقويت ، وسوف احيا وافوى ، ولن تنال مني خيبتى ما عجزت من نيله
الامى البائدة ! » .

ومع ذلك فقد لبث يفكر بكاترين بمثل المرارة التي فكر فيها عقب
اوبته .. وكان امله المنهار في بناء بيت وانشاء اسرة يعضه ويحرق في قلبه .
كان يحلم بالعيش التنظيم ، وكانت احلامه بالزوج الجميلة والاطفال لداهب
مخيلته ولا تفارقه ليلة واحدة .. ان السنين تمر عليه سراها ، ومع ذلك
فما زال بيته خاليا من المرأة التي تزهو فيه وتشرق .

وجاء الربيع !

وفوجيء ليفين ذات يوم بمقدم صديقه اوبلنسكي ، فرحب به لرحيبا
صادقا وان تغلب لهجة التعجب والاستغراب على صوته وعبارته .
ولم يخف عن اوبلنسكي دهشة ليفين لقدمه ، الا انه لم يحفل ذلك ،
بل انهى اليه بانه جاء ليستروح نسيم الريف ، وليمتع النفس بساعات
هادئة يقضيها في الخلاء ، ثم ليبيع ما يملك من الارض في ذلك الاقليم .
واهدت بهما الحديث وتشعب في ذلك اليوم ، الا ان اوبلنسكي لم يذكر
كاترين ، او يلمح بشيء عنها .

ومع ذلك ، فقد كان ليفين يفكر فيها طيلة الساعة التي قضاها مع
صديقه في غرفة الاستقبال ، وكان يراها بعين مخيلته فيجف ويتقبض صدره
وتتولاه غصة من الم وحسرة !

وقد غبط صديقه على انسانيته وذوقه ، لتجنبه الخوض في حديث
ينكا جراحات قلبه ، الا انه كان يشعر بشوق شديد الى معرفة ما انتهى
اليه امر كاترين وفرونسكي . ولما جلس الاثنان على مائدة الطعام ، رأى ان
يقبل على ضيفه بالسؤال عن زوجته واولاده ، وعما اسفر عنه الخصام
الذي استفحل امره بين الزوجين ، وكان سببا في قدوم انا كرتينا الى
موسكو .

فما ان طلب اليه التحدث عن نفسه وعن زوجته واولاده ، حتى انبرى
او بلنسكي يقول :

« رويدا يا صاح ، ولا تكن عجولا ! لقد نهيتني عن الاتجاه بتناظري
واحساسي نحو المتعة ، وعنفنتني في تادب ، ولم تشأ ان تعترف بما للقلب
من حق على صاحبه .. فاعلم الان ما دمت طرقت باب هذا الموضوع من لقاء
نفسك ان الحياة جذب ومحل ، بل انها صغير لا يطاق ان خلت من الحب ..
واصارحك القول بانني امج حياتي ان قفرت من نامة لذيدة تهز اعطاني حتى
يخفق قلبي ، انني هكذا خلقت وعلى هذا ساعيش حتى الموت ! » فقال
ليفين وهو لا يخفي تعجبه ونفوره : « ومع لك ! ائمة امرأة اخرى جديدة ؟ » .

قال : « اجل ، هناك انثى اخرى بزغت في افاق حياتي .. انها مشال
الجمال ، وهي مصيوبة في قالب سماوي .. واصدقك اني اخاف احيانا من
التفكير بها - اخاف لانني لا اكاد اصدق بصري احيانا ! » .
« هذه غلواء لا مبرر لها » .

« بل هي الحقيقة الحلوة المرة ايها الصديق .. واعلم ان النساء على
انواع ، وحبيبتي الجديدة تأتي في اللروة ، ولا تعلم عليها امرأة » .
« ارادك ميالا الى استجلاء ما يكتنف المرأة ، وما يعتور حياتها ، ويلاص
مشايرها » .

« لا ، اني لا اصبا بدرس الاخلاق والصفات والخصائص ، فلذني ليست
في سبر فور هذه الامور بل في تقع ظمائي من الحب ا » .

واخلد الاثنان الى الصمت ، وحلقا في سماء الفكر ، ثم تعلم ليفين في
مقعدته كانه يتالم من شيء ، وقال بصوت متهدج : « هل غادر فرونسكي
مدينة موسكو ؟ هل بارحها ؟ » . فنظر اليه او بلنسكي متاملا واجاب :

« او تسالني عن فرونسكي ؟ آه لقد فقل راجعا الى بطرسبرج عقب
ذهابك انت . وهو الان هناك ، ولا يرمع الرجوع .. على اني اود ان اصارحك
القول في امر طالما رغبت في الجهر به لك ، فقد اخطأت الخطأ الجم حين خيل
اليك ان امالك قد بددها فرونسكي ، وانني آخذ عليك فرارك من وجهه
فريمك ، فما انت بالرجل الهين ، بل انت من خير الرجال ، فلم الخوف
اذن ؟ ولم الفرار ؟ لم احثك على التقدم اليها بطلبك ؟ ألم اقل انك المفضل ؟ » .
وعاد او بلنسكي الى صعته ، وعاد ليفين ، الى اطراقه ، ومضت بضغ
دقائق والسكون مخيم على القاعة ، وليفين يناجي نفسه ويقول : « انه لا

يعلم انه رفضت .. انه يجهل ان كاترين ردتني خائبا مغلوبا على امري ..
ولكن ، انصدق المظاهر دائما ؟ واوبلنسكي ، هل يصرح بالحقيقة دائما ؟
كلا .. كلا .. انه ماهر ، انه خبيث يظهر خلاف ما يبطن ! » .

وعاد اوبلنسكي للكلام فقال :

« لقد اخطأت خطأ لا يفتخر كما قلت لك ، واخالك حسبها تؤسر
فرونسكي بقلها وحبها ، ولكنك اخطأت .. لا انكر ان امها غرتها مظاهر
الشباب ومكانه وانتمائه الى طبقة النبلاء ، فاقبلت عليه واعرضت عنك
ولكن ، لم تفكر بكاترين ؟ او لست هي التي تزوجت الا بعينها الامر ؟ » .

وساح ليفين محتدما : « على رسلك يا هذا ، اتنعت فرونسكي بالنبل
وستنتني سواء من الخلق ؟ وما هو النبل ؟ قل ما هو هذا الشيء الذي
تضفيه عليه دون سائر الرجال ، او دون معظم الرجال الذين تعرف واعرف ؟
وهل هذه الصفة تضعه فوق رجل اخر استخيه من وصفك وابعده عن
النطاق الذي شربته لمعنى كلمتك ؟ » .

وانقطع ليفين عن الكلام وهو يلهث من الغيظ ، ثم تابع يقول : « وضعت
فرونسكي في مصاف النبلاء ، فهل تعلم من ابوه ؟ وهل يليق بك ان تقر
اشياء لا يقرها العرف ؟ او تعلم كيف حاز ابوه اللقب ؟ لقد تناهى الرجل
في الصغار ، وتوسل بالوقية لينال ما تصبو اليه نفسه الخسيسة .. وفوق
ذلك ، لم تعد امه هي التي التوسل بجمالها لبلوغ اوطارها ! ثم تأتي انت
لترفعه فوقى ، لتقول انه من النبلاء ، من الصفوة ! هراء .. هراء ..
هراء .. انني احتقر الالقب يا صديقي ، على اني اشد نبلا من هؤلاء الذين
يحملونها ، فانا اسأل لك اجدادي ، وابرهن لك عن كريم محتدم ، انا
اثبت لك ان نساءنا جميعا كن خير النساء ، لا تجسر الواحدة منهم على بيع
جسدها ، ولو كان فيما تفعل الفنى والجاه . اما هؤلاء فهم الحثالة ، التي
تتعلق بالالقب كما لو كانت تتعلق بالاوهام ! » .

وكان اوبلنسكي طيلة ذلك بحمق في صديقه مشدوها مبهوتا لا يكاد
يصدق اذنيه ، ويظن في المتكلم الظنون - اهو مجنون فاقد الحجى ؟ ااعته
الغيرة ؟ اهذا هو ليفين الهادي الرصين الذي لا ينس قبل ان يفكر ، انه
يلقى الكلام على عواهنه ، فيهاجم فرونسكي .

وطأا اوبلنسكي راسه ، وقال بهدوء وحلم :

« وقد تكون مصيبا في كل رأي ايديته يا صديقي ، الا اني لم اشأ ان

أثير أنفعالك ، وما وددت إلا ان أقول لك صراحة بأنك ارتكبت إبشع غلط باختفائك ونزوحك .. فأعود وأوجه اليك النصح - أرجع الى موسكو ، عد سريعا ، توجه الى كاترين ، تكلم معها ، امكث هناك ، وستنجح الان حيث اخفقت منذ شهر ! « فاصفر وجه ليفين ، وكأنه ندم على ما فرط منه واجاب وهو جاحظ العينين :
« اجاد انت ؟ هل اذهب ؟ هل يمكنني ان انال المنى .

هكذا عاد الامل يداعب افكار ليفين !.. وقال في احساسه الباطن عليك بالزواج حتى تصبح لك انت الاخر مملكة !

كان فرونسكي في اشد حالات الحب .. وارتمى في لجة الهوى ، ورضي عن نفسه وعن هوى قلبه ..

احب انا كرينينا كما يحب انسان اخر امرأة اخرى .
ومع ذلك فما صرفه شرابه الملتهب عن واجباته ، لا يهمل في امر عسكري ، ولا يتأخر عن الوفاء بمطالب وظيفته في الغرفة التي ينتمي اليها . فهو متعلق بآثاره الضباط .

وكنتم ما في قلبه ، فلم يطلع احدا على علاقته الجديدة .. كان يتفمس معهم في شرب ولهو ، ولكنه لم يفه بكلمة تسيء به وتفضح سره ..

مع ان جميع الناس كانت تلهج بذكر علاقته الجديدة .
ومع ان فرونسكي كان من خيرة الشباب ، الا ان الكثيرين من الطامحين

المطمعين الى التقدم راوا في علاقته بانا ، سلما له يصعد فيه الى اعلى ...
اما كاترين الزوج ، فهو في رأيهم السلم المؤدي الى الدرودة !

وقد تكلمت النساء في حديث موسكو وبطربرج ، فقلن ان انا جميلة ولكنها عابثة مستهتره .. وارتنن لهذه العلاقة .

واسف البعض لهذا الحب ، وقالوا ، انهار صرح اخر للشرف ، وتصدع بنيان سيده رجل كبير هو كاترين .
ولم يأسف فرونسكي ، ولم تأسف انا .

وراجت الشائعات حتى تناهت الى والدة فرونسكي ، فلكتابت لاول وهلة ، ولكنها ما عتمت ان سرت واقتبعت .. فابنها يافع في اول العمر ، ولا

مربة في انه محتاج الى ما ينير عينيه ويهذب حسه ، ويفتح له الابواب على مصاريعها .. ومن هناك من النساء اللواتي تبدؤ انا في جمالها وسعة اطلاعها وكفاءتها ، حتى تاخذ بيد ابنتها في طريق الطبقة المترفة المهيمنة من الامور ؟

وسرت الام كذلك لانها اكتشفت في اسرع مما قدرت مواطن الضعف في المرأة المثالية - انا كرئيسنا .

الام تفرح وتغتبط لزللة زلها ابنتها ، ولو دوت انه طوى كشحه عن منصب خطير عرضته عليه الحكومة لجن جنونها ، ولا قامت الدنيا واقعدتها .

اجل اصاب الام من حب ابنتها جلد عظيم ! ولكن الحكومة اصابتها منه خيبة ، ووضعت في ملفه بقعة سوداء كبيرة - انه يرفض اجل المناصب ، ورفضه مسبب ، غرام - اذن هو مستضعف ، والضعيف مكانه في غير الجيش .. هذه البقعة السوداء !

اما اخوه فقد اغتم واهتم ، وتم يثرغمه وهمه علاقة اخيه الفرامية ، بل تردبه في حفرة لن يخرج منها سالما - اي استسلام اخيه الى ما يؤخره في مضمار الحياة ، وبمهد طريق النجاح لسواه من الاقران والانداد .

ولم يعبا فرونسكي بالهمس ، لم يحفل بالتجريح ، بل اقبل على عاطفته الجديدة يحوطها بكل عناية .

كان يحب الجيش كما يحب انا ، وبجانب حبه للجيش وانا كان متعلقا بالجياد . فهو يؤثرها على سائر الاشياء . ولما تناهى الى عمله ان الجيش في سبيل اقامة سباق عظيم تحت اشراف القيصصر سارع بابتياع جواد اصيل مشهود له ، وادخل اسمه ضمن الفرسان الذين يشتركون في هذا السباق !

وعكف على التمرين .

ولما ازف ميعاد السباق ، الم بالبيت الذي افرد له في الفرقة فاجتمع الى زملائه وقتنا قصيرا ، ثم اغتسل وطعم وامتنى الجواد الى بطرسبرج حيث تقيم انا كرئيسنا .

وكان قد انقطع عنها لثلاثة ايام خلت ، لا لانه انشغل بامور اخرى ، بل لان كارئين كان يلزم البيت في تلك الايام ، لعارض من ألم انتابه بغتة في ساقه .

اما في ذلك اليوم فقد علم ان الرجل قصد مكتبة بطرسبرج ولهذا
عجل بالتوجه الى انا حتى يجتمع اليها قبل اوبة زوجها .

فلما وصل وترجل وسأل الحاجب عن سيدته ، ثم عجل بالصعود
ووجهه يفتح بشرا .

وكانت انا تنتظره في ذلك اليوم ، فهما ليسا على ميعاد ، لهذا تعمد
ان لا يحدث صوتا حتى يفاجأها بظهوره .

ودنا من مخدعها ، فتذكر ان ابنها في البيت . وابنها كما ايقن من
قبل ، ذكيا يقدر ويستنتج .

كان الولد صغيرا ، الا ان ذهنه اجتاز سنه ، حتى غدا العقبة الوحيدة
التي تمنعه في كثير من الاحيان عن الاختلاء بمحبوبته .

وقد طالما شعر بالتفور من الطفل .

وما اكثر ما غضب من الفتى لانه لم يتمكن اثناء وجوده من الافضاء
بكل ما يختلج في قلبه . فهو يملك من قوة الملاحظة ما لا يملكه الرجال وسوف

يتذكر ولا شك كل حركة قامت بها امه . سوف ترسخ الامور في مخيلته ،
حتى اذا كبر وشب عن الطوق جمع الاطراف وامسك الخيوط ، واستنتج

الحقيقة ، وايقن من صدق ما يقال : ومن صدق ما قد نعت به ويوصم .
ظن فرونسكي الظنون بالطفل . وتراهي له ان يطن دخلته . والا لما

كان ينكس راسه خجلا كلما نظر الى وجهه . وكلمما داعبه وربت على
خده .

على ان الطفل كان بعيدا كل البعد عن الريب . لا ترقى الى امه
الشبهات في تفكيره واحاساه . وان قادته غريزته من حيث لا يشعر الى

موطن النفور من فرونسكي . . وقد بذل كثيرا من الجهد الصادق ليستشعر
الميل نحوه . ولكن جهده في هذا المضمار لم يفلح في كثير او قليل . وقليل

شعور الاشمئزاز من صديق امه يتناهى كلما ضم الاثنيين مجلس . وكلمما
اضطر فرونسكي الى التادب في حضرته . والتكلف في حديثه مع انا !

هذا الصغير النافر كان يتساءل عن مكانة فرونسكي في البيت .
وصلته بامه وعلاقته بابيه .

كان ينظر يتأمل . فيرى بصره الثاقب وبصيرته النافذة ان اياه
وسائر الخدم يكونون لفرونسكي الكراهية والمقت . فيدهش ويزداد نفورا .

ومع ان امه كانت الوحيدة التي تعطف امامه على فرونسكي . الا ان
عطفها لا يزدده الا بعدا عن الشاب .

والنبس عليه الامر ، ولم يجد لاختلاف المشارب تفسيراً .
كان الطفل للام وعشيقها بمثابة البوصلة التي تربهما دائماً النقطة
التي غادرا منها ما يعرفان ولكن لا يودان أن يعرفا .
ولم يكن الطفل في البيت ساعة دخله فرونسكي . وكانت انا تنتظر
اوبته من نزته اليومية ، وقد جلست لوحدها في الشرفة .
وكان المطر يسقط رذاذاً ، وقد سارعت انا لدى تكاثف الغيوم الى
ارسال خادمين وراء ابنها ، حتى يصطحبها في طريق العودة .
وتلغمت بثوب ابيض مطرز ، وجلست في ركن تحجبه الورود . وكانت
محنة الرأس ، تضغط جبينها على اثناء نظيف يستعمله البستاني لري
ازهاره .

ووقف فرونسكي عن كذب منها ، فلم تره . وما كاد يخطو نحوها حتى
احس بوجوده ، فرفعت رأسها ، واتجهت اليه بوجهها .

وقال وهو يدنو منها : « ابك سوء ؟ هل تشعرين بما تؤثرين معه
العزلة والافراد ؟ » .

ومدت له يدها فصافحته ضاغطة قليلا على انامله ، ثم اجابت والابتسامة
تتراقص على فمها ، او بالاحرى تقبل هذا الشكر الرائع :
« كلا ، اني في خير حال ، فماذا جاء بك اليوم ؟ » .

قال : « لقد حفزني الشوق الى القدوم . . ولكن ، ما بال يدك ترتعش
باردة مقرورة ؟ ما بالك يا انا ؟ » .

ليس بي ما يشير القلق . على انك اخفنتي بظهورك المفاجيء » .
« لا تنقمي علي ، فانا ارغب في مشاهدتك كل يوم بل كل ساعة ، لو
تسنى لي ذلك » .

« وانني لمفتطة ، واود ان اراك في كل دقيقة » .
« على اتي فلتق من اجلك ، فانت متوعدة الزواج قليلا ، فهل حدث ما
كربك واقلقك ؟ » .

« ثق انه لم يحدث ما يعكر صفوي » . فهل هو الفكر اذن ؟ ويسم
تفكرين ؟ « بامر واحد . . بشيء واحد ! » « وما هو هذا الامر او الشيء ؟ »
وهزت انا رأسها ، ولم تجب .

كانت تفكر حقيقة بامر واحد لا ثاني له ، كانت تفكر بنفسها . او

بالاحرى بسعادتها وشقاها - بالنقيضين اللذين اجتمعوا على حين غرة فسي
سويداتها .

ورب مرة تساءلت فيها قليلا عن مبعث اسأها ، ومنشأ ههنا ...
ورب مرة انحنت على نفسها بالقول الفظ - اهي الامراة الاولى التي تعشق
على زوجها ؟ الا تحب صديقها بنسي ؟ ومع ذلك ، فانها لا تترفض على نار
التبكيك التي تتغلى عليها هي !

وغير بنسي من النساء من لهن اكثر من عشيق ، ولكنهن جميعا ينعمن
بالهناء وراحة البال .. الا هي .. فهي تتعذب وتتالم ، وتعاني من وخز
الضمير ما يهون ازاءه كل عذاب والم ..

وهزت راسها وكأنها تنفض منه ما تراحم فيه من افكار مرمضة واقبلت
عليه تخاطبه ، وتطرح عليه مختلف الاسئلة .

ولكنه لم يرد على اسئلتها ، بل نبر يقول وهو يقطب قليلا :
« ولم تكتفين عني ما يشغل فكرك ؟ لم لا تفتحين لي مغاليق قلبك ؟ »
فرتت اليه بطرف مخضل ولزمت الصمت .

واستأنف يقول : « لا جرم ان في صدرك اضطرابا وانفعالا ، وتقي ان
الافضاء الي بما يؤلك يخفف عنك الوطاة ، ويزيل عن صدري كابوسا ثقيلا .
فتكلمي ناشدتك الله ولا تسرفي في ايلامي ! » .

فقالت بصوت مهموس بسيل رقة والما :

« اترغب الي حقا ان انكلم ؟ »

قال متوسلا : « اجل .. قولي كل شيء » .

فأغمضت عينيها وقالت وهي تشرق : « اني امرأة حامل ! » .

وارتعدت ، وارتعشت .. واختلجت شفتاها .. ثم رفعت الي وجهه
مينين ساحرتين حزبتين ، وجعلت تحددق في اساريره ، كأنها تريد ان
تستشف تأثير كلماتها على قلبه .

والجم لسائه ، وجمد في مكانه . ولم يعتم ان انحنى الي الامام قليلا
ومال براسه على صدره . وكان احساسه الباطن طفق يتساءل ويقول :

« من ذا الذي فعل بي هذا ؟ اني اذن لولد وولد ، فليكن لي ولد ! الويل
لك يا رجل ! الويل لك من مجرم دامي الانياب وفاسق فاجر ميت الضمير ؟
الابتسم ؟ استطيع ان ابتسم كاي مجرم ؟ استطيع ذلك ، والتبسم في حالتي
ضرب من الرباه ؟ » .

وكأنها تثبت بحري افكاره ، وقرات في عينيه ما اعتمل في صدره .
فمدت له يدا رخصة ، وضغطت بها على يده ، ولسان حالها يقول :
« لا ترحح تحت ثقل اليأس ، لا تدع روحك تنثر ، فليست هذه الصدمة
الا ثمرة من ثمرات الحب .. ولك الحمد ، فانا بخير ما دام قلبك عامرا
بالمحبة والاخلاص ! »

لم تكن انا على حق ، فهو رجل من الرجال ، وهو ينظر الى الامر كما
ينظر كل رجل اخر . لقد شعر بالخطر المائل ، انها حامل ، ولا مربة في ان
زوجها سيطلع على الحقيقة ، ولهذا يترتب عليه ان يبيت في الامور دون
ابطاء .

لقد فكر في نفسه كمجرم ، ولكن رهبة الموقف هي التي جسّمته مجرما
في نظر ذات هذه النفس ، وكانت لمحة خاطفة تلاشي فيها الجرم ، وظهر
الشاب الذي يريد ان يدبر الامور قبل استفحال الخطر .

كان فرونسكي على شيء من الاستقامة ، الا ان هذا الجانب من الشهامة
لم يكبح جماح الاثرة التي لا يخلو منها قلب انسان مهما تعالي وسما .

ونظر فرونسكي اليها نظرة الصب المستهام ، فاذا باحساسه يرق
حتى ليكاد ان يكون كالنسيم .. واذا به يأخذ يدها بيده ، ويلثمها ويقبلها
ثم يوجه الى صاحبها حديثه فيقول برفق وهدوء وثقة :

« اي انا ! يا معبودة ! لقد وشجت بيننا علاقة لدة وشهوة ، ولكنني
لم آخذها كعلاقة رجل يمجن .. ولا مغر لنا الان من الجزم .. لا مندوحة
لنا من الفصل ، اجل ، علينا ان نقرر ! »

قالت وصوتها ينم عن قلقها :- « فعاذا ترثي ! »

قال : « انحببيني ! ان كنت تحبينني فاهجري قرينك .. اتركه ..
فادريه .. وتعالى .. وتعالى الي . حتى تنصهر روحانا وتندمج حياتنا ! »

قالت : « لا شك ان حياتنا قد اصبحتنا حياة ، روحينا روحا ! »

قال : « في السر ذلك .. في السر .. وعلينا ان نعلن على الملا اننا
اصبحنا متحدين مندمجين ! »

« على آني متزوجة .. وام .. فعاذا افعل ! ما هو الحل ! »

« اتركه .. اتركه زوجك .. تولي له .. انك لا تحبينه » . ما هو

اهون الكلام واصعب الاداء ! « او تحبينه ! »

« كلا . لا احبه فهو ثقيل » .

« فماذا يمنعك اذن من الانضمام الي ؟ اولدك ؟ » ففكرت ، ثم اجابت :

« لا ادري .. لا ادري .. صدق ما اقول .. انني محتارة ، انالم .. ثم اتى سعيدة ايضا .. اتعلم ؟ » . « فاذن ؟ ! » .
« حبيبي .. الا توفر علي ما اكابده ، ارجيء القول اسدل ستارا على ما تود ان تنهيه . انني لا ادري من انا ، وما انا ، وكيف انا ، ولم انا ، انني لا ادري »

واتحنى على يدها فطبع عليها قبلة اودعها جميع ما في صدره من هيام ، ثم اتسنى ببصره الى الافق البعيد ينظر اليه ، ويتناول مسن وراء ذلك ان يستشف الغيب ويقرا ما تخبئه له ولها الايام .

وكانت الايام تخبيء امورا كثيرة ، كانت تنطوي على مفاجات . كانت تزخر بالفرح والترح ، وبالامل والالم .. كانت حافلة بكل ما يحفل الزمان من عجائب وطرائف ، يطلق عليها الانسان تارة اسم الماساة ، ويدعوها تارة اخرى بالسعادة .

وعبرت صفحة وجهها عن مدلة وانكسار وانهياب ، وقالت - قالت انا - وصوتها ينم عن حيرتها :

« لا يعلم ، اواه ! انه لا يعلم .. ولا يجب ان يعلم » .
فاجابها فرونسكي بثبات : « لا احفل به » ، وليعلم كل شيء ، فانت مثقلة بالهموم ، ولا يخلق به ان ادعك ترزحين تحت وطئتها ، فقد تسحقت » .
قالت : « وماذا تراني فاعلة ؟ ماذا تراني ؟ » .

قال : « ارى ان تكوني صريحة فتميطي له اللثام عن الحقيقة ، اصدقيه القول ثم اتركه وشأنه .. ولا توجسي خيفة ، لا تفزعي » .
فلاح على فمها شبح ابتسامة واجابت في شيء من السخرية ، « واذا قلت له الحقيقة ، اندري ما يكون موقفه ؟ انه سيرمقني بنظرة المتهمك متاملا متفحصا ، ثم يجيبني قائلا : فانت تعشقين ، انت تحبين رجلا اخر اذن ! يا عجبيا احلرك ؟ ثم ، الا تخافين المغبة ؟ اترتمين في حضنه دون اكتساث وما رايتك في الاصول الدينية والمدنية ؟ وما رايتك في التقاليد المرعية الجانب ؟ اصيخي لي ، واصبريني سمك .. انني جد حريص على اسمي ولن اتسبح لك ان لثرتي هذا الاسم بقاذوراتك ، وان تلصقي العار باسمي .. » .

ولم تنطق باسم ولدها ، فهي تجله وتحبه ، ولا تسمع باسراكه في اية فضيحة .

وتنفست الصعداء واردفت . « سيقول هذا ، وسيزيد ، سيخبرني بحزم انه لن يدعني وشائي ، وانه سيمسك بي حتى لا اذهب ، سيمسك بي لا لانه يحبني بل لانه يخشى الفضيحة ، ويخشى القالة التي يعتبرها شرا من الفضيحة .. وانه لن يحجم عن اللجوء الى القانون ليمنعني عن التصرف بحماقة .. وانا موقنة انه سيقرن القول بالعمل ، وينفذ تهديده بكل دقة .. انه رجل مخيف متى حزم الامر ، وله من ارادته ما يدلل به الصعاب مهما بلغت شدتها ، هو كذلك ، وانت لا تعرفه .. هو قاس كاقسى ما يكون الرجال ، وهو متى غضب هدد » .

فهز فرونسكي رأسه وقال : « يجب ان لا نقل ارادته من ارادتنا ، يجب ان نصمد وان تكافح .. فصارحيه بكل شيء ، ولنتنظر ، ثم لنعمل ، او بالاحرى لنقابل اجراءاته باجراءات مضادة ، والله وحده يقرر النتائج والمصائر » .

ولما لم يحظ بجواب مضى يقول : « اهجره ، اتركي بيته ، لا ترامي يا انا » .

قالت : وماذا يجري من بعد ؟ متى هجرته ، وغادرت بيته ، هل اقيم معك ؟ كعشيقة ؟ كخليفة ؟ » .

فحدد فيها عينا بتطابر منها الشرر وهتف : « اتا ! .. »

ولانت نظرته فجأة ، ورنا اليها مستعظفا .

واردفت : « اجل اهجره ، فانتقل من بيت الزوج الى بيت العشيق ..

فاحطم كل شيء ، واهدم مستقبلي ومستقبل .. » .

وحاولت ان تقول - ابني ولكن لسانها عصاها مرة اخرى فاكتفت بما

قالت .

ولم يفتن فرونسكي الى السبب ، وغاب عنه انها تضحى من اجل

ابنها ، لم يفهم ذلك لانه لم يبيل شعور الاب بعد !

لشد ما ترتجف فرقا كلما تراءى لها ابنها يعيش في بيت يكتنفه العار .

ورنت الى فرونسكي بلحظ مغرورق بالدموع وقالت والاسى يلعمش

لسانها ، « حبيبي ، منية قلبي .. استجب لي ، وتجنبت الخوض في مثل

هذه المعاني الشائكة ، ارجوك .. ارجوك .. » .

قال ، « على اننا يا انا .. »

فقاطعته بسرعة وقالت : « لا تضاعف من الآمي ، لا تضيف على
عدائي .. ابتهل اليك ان ترفق بي ، ارفق بي .. » « انا .. » .
« واني اهيب بك ان تترك الامر لي وسأتصرف وفق المصلحة المشتركة ،
انا ملعة بكل شيء ، واقدر كل شيء ، وراى الهاوية السحيقة .. فاصبر
واقصر ، وكن كريما » .

« لك ذلك يا حبيبة ، لن اثقل عليك ولن الحف . بيد ان قلقي عظيم ،
وخوفي عليك اعظم ولا بليق بي ان اتخلى عنك وانت تعانين هذا الحرج » .
« اشكر لك .. اشكر لك . فانت طيب كريم ، ولست في شك في انك
لا تتأخر عن ابيان المستحيل متى اقتضى الامر ركوب مراكب الخطر .. » .
« والذي يدهلني يا انا هو تضحيتك الكبرى ، من اجلي انا .. وهل في
مكتتي ان اتسى بلك ؟ هل في طاقتي ان اجدد النعمة التي اسبغت علي ساعة
ظفرت بك ؟ » .

« اني تاعسة ومع ذلك اشعر بالسعادة .. لقد احببت اخيرا والحب
سحر عجيب ، الحب معنى خالد من معاني الحياة » .
« ولكنك قانطة ؟ »

« انا احيانا اشعر بالياس ، ولكن الحب بلاشي من قلبي هذا الياس » .
وارتفع صوت الصبي . فتوردت وجنتاها ، واختلجت شفتاها ورقت
هيناها حتى سالت الرقة دمعا من عينها ونهضت واقفة ، ونظرت فيما يحيط
بها ، ثم تحولت بتناظرها الى الحديقة .
وما عتمت ان اندفعت نحو فرونسكي ، فلغت ذراعها حول عنقه ،
وقبلته بشغف ، قبله اودعتها خلاصة ما بهيج الحب في سويدالها ، وقالت :
« اذهب يا حبيب الروح ، اذهب بسلام ، وفكر في ، في انا ! » .

لم يطراً جديد على علاقة الزوجين . . فهما امام الملا خير الازواج :
 ابتسامات متبادلة ، وكلمات مجاملة ، وعواطف متنقلة بين القلبين .
 على ان كارنين انكب على عمله ، فقدما اشد اقبالا عليه من ذي قبل ،
 حتى جب منه الجميع ، وراوا في نشاطه بادرة لا مسوغ لها .
 ولما ولى فصل الشتاء ببرده وزمهريره وللجه ، ارتحل الى احد مدن
 المياه المعدنية حيث مكث شهرين ، ثم قفل راجعا في اول الصيف ، ليستأنف
 نشاطه بما عرف عنه من همة وحرص .
 ولزم بطرسبرج فلم ييارحها ، وان كان حرها في الصيف شديدا لا
 بطيقة الناس . اما انا زوجته فقد بارحت بطرسبرج الى منزل زوجها الريفي
 في « بيترهوف » . وكان المنزل هذا صغيرا جميلا مؤثنا ببساطة وذوق
 سليم .

اما ما جرى في ذلك اليوم ، فقد غادر فرونسكي بيت كارنين في بيترهوف
 وذهب الى المدينة ليستعد للسباق .

وما كاد يصل الى الحلبة حتى نسي كل شيء مر به ، ولم يعد يفكر
 الا في جواده ، وفي الجهد الذي يخلق به ان يبده ليفوز بالقدرح المعلى .
 وحين ميعاد الشوط الاخير ، واعتلى فرونسكي ظهر جواده ، ووقف
 في الصف . لم ير احدا ، ولم يعبا باحد . . انه فارس ، ومسابق ، انه
 فرونسكي وعليه ان يبرهن للملا انه جدير بالاسم الذي يحمل .
 وكانوا سبعة عشر فارسا . واعطيت اشارة البدء ، واندفع فرونسكي ،
 ولكنه اندفع متأخرا بعض الشيء . وبدا لاول وهلة ان فرونسكي لا يملك
 امر نفسه ولا امر جواده « فراو - فراو » .
 فسبق غيره ، ولم يبق امامه الا جواد واحد . وكان « فراو - فراو »
 خفيفا في عدوه ماهرا في اجتيازه العقبات الموضوعمة .
 ومع ذلك فانه لم يستطع ان يتفوق على خصمه الجواد الادمم المتدفع
 الى الامام ، امامه ، يعدو وكأنه يسابق الريح . ولكن فرونسكي اخطأ قبل

النهاية - كان جواده يقفز فوق الحاجز الاخير ، وكان عليه ان ينخسه برفق ، ولكن اتفعله انساه واجبه ، فضرب بطن الجواد بعنف ، وارتبك الجواد فتعشرت قوائمه بالحاجز ، ووقع على الارض . وان فرونسكي . ان من القهر ، لقد اخفا فخلل الجواد المسكين ! وهم رجال الاسعاف اليه . . ولم ينس فرونسكي ما حاق به في ذلك اليوم ، بل رسخت ذكراه في راسه . وكان يتحسر دوما ، وكان ينحي على نفسه باللائمة . لقد خسر السباق ، فليخسر ، ولكن الشيء الذي قهره وارمض شعوره هو يقينه بأنه خذل « فراو - فراو » بعد ان كان الجواد العظيم يفوز بقصب السبق .

هذا ما جرى في اصل ذلك اليوم واثري في فرونسكي تأثيرا بالغا .

اما انا فقد قضت شهور الصيف في « بيترهوف » بينما مكث كارنين في بطرسبرج ، يرهق نفسه بالعمل لكي ينسى ، وماذا ينسى ؟ وكلما حاول ان يتوصل الى معرفة الشيء الذي يسعى الي نسيانه ، كلما زاد رغبة نسي التهرب من نفسه ومن تفكيره ، حتى يبقى هذا الشيء غامضا مبهما .

كان هذا الرجل يحتقر الغيرة ويمقتها ، وكان يقاسي كثيرا من شعور المدلة كلما اختلج في صدره الشك .

واغرق نفسه في العمل ، حتى يفرق بذلك همومه في لجة لا يطالها الفكر المضطرب . وكان كلما عجب لتراكم العمل . يقنع نفسه ان الصدف هي التي أدت الى تكرار الهام ، مع انه كان يعلم انه هو الذي عمل على الاكثار منها .

فلما ذهبت انا في صيف ذلك العام الى مصيفهما الريفي ، في ارض بطرسبرج ابت « الكوثس ليديا ايفانوفنا » ان تذهب الى نفس المكان .

وكانت هذه المرأة من المعجيات بكارئين ، المحبات لانا وزوجته ، بيد انها في ذلك العام انفت ان ترافق انا ، ولم تتورع عن التلميح لزوجها بسبب ترددها في الذهب بل توهت له من طرف خفي بأن علاقة امرانه بفرونسكي امر كرهه ، وان هذه الصدفة الوثيقة هي التي حبستها عن انتجاع المصيف الذي تلوذ به انا .

وقد حنق كارئين اشد الحنق من هذا التلميح ، واجابها بخشونة لاذعة على كلامها ، وافهمها انه يشق بزوجته ويربأ بها عن المنكر ، ولا يشك في تصرفاتها .

وصنع للمرأة خده بعد تلك الحادثة ، ولم يرض عنها ، ولم يكلمها .

يا للرجل الذي عصفت به الريح ! اغضض عينيه حتى لا يبصر الناس .
وكرهت نفسه الحياة ، ونأى بفكره عن كل ما يريب ، حتى لا تترك
الريب قلبه . وشعر ونفسه والهة أنه زوج مخدوع - شعر بذلك ، مع أنه
كافح المشاعر حتى لا يشعر .

لقد حزن كثيرا ، وما كان حزنه لفترة ، او لاسف على حب ضائع ،
بل كان حزنه نتائج شعوره بأن كرامته قد اهدرت وان اسمه قد نلّم !
سمع فيما سلف قصص الخيانة ، قيل له ان زوج غدوت به امراته ،
فاجاب : « انه المسؤول اولا واخرا . . فلو اخلص ، ولو استقام ، لما فكرت
هي بالخيانة ! ثم لو تدارك هذا الرجل المغذور امر زوجته ، لما وقع المنكر ،
ولسلم شرفه واسمه وبيته ! » .

اما وقد اصيب بالكريهة ذاتها ، فهو يرى نفسه اعجز من ان يتلافى
الخطب ، فيستسلم ! ومع ذلك فقد تناهى في انكار الواقع ، واسرف في عدم
الاعتراف ، وما موقفه السلبي هذا الا من قبيل تخوفه وتوجسه ، واعتقاده
بأن اي شك لا يعتمد الى مقاومته ، قد يغضى به الى الدرك الاسفل !

وقد تجنب زوجته ولم يجتمع اليها طيلة الفترة التي قضتها في
المصيف . ولكنه في اليوم الذي جرى فيه سباق الفرسان والضباط ، انطلق
الى « بيترهوف » وهو عازم على اصطحاب انا الى ميدان السباق ، لما يعلق
على ظهورها معه وامام الناس من اهمية كبرى . فقد كان من المقرر ان يشهد
الامبراطور سباق ذلك اليوم ، ولا جرم ان جميع السراة والاعيان والنبلاء
سيأتون ايضا . ولكنه ما كاد يصل الى الدارة الصغيرة حتى صرف من ذهنه
فكرة مراقبتها .

وما كادت هي تبصر به يترجل من العربة ، حتى افضعصر جلدها ،
وابتدرت نفسها تقول لنفسها : « اواه ! هل يزعم قضاء الليل هنا ؟ » .

على انها بادرت اليه بعد ان تكلفت البشر والسرور ، ومدت له يدها
وصافحته باشة وقالت :

« قدمت اهلا يا عزيزي ، واتي لمسرورة لتدمك ، لان هذا يتبع لسى
مشاهدة السباق . فهل تعكث الليلة هنا ! ان يتسي قادمة عن قريب
لكرافقتي الى الميدان .

فتجهم وجه كارنين ساعة وعي اسم المرأة التي يمقت ويحتقر وقال :
« وعلى هذا لن افرق بينك وبينها ، وسأذهب بمفردي الى الحلبة » .

« فاجلس اذن حتى آتيك بالشراب الساخن » .
وجلس كارنين دون ان يتكلم . ودعت انا خادمتها فامرتها ان تأتي
بفنجان من الشاي ، وان تسيء الابن بمقدم ابيه .
وما لبثت ان استدارت الى زوجها وقالت وهي تنفوس في وجهه العابس
المنقبض : « ماذا دهالك ؟ هل ثمة ما يؤلك ؟ » .
قال بهدوء لقد اصببت ، فانا منهمك في اعمالى ، وانا متعب من
كثرتها » .

فاظهرت الاهتمام ، وطفقت تسأله وتستوضح منه ، ثم الحت عليه
في قضاء بعض الوقت معها في « بيترهوف » على ان ينزع الى الراحة ويخلد
الى الهدوء .

وسبر كارنين غورها ، فلم يصدق حرفا من كلامها ، بل ايقن انها
حريصة مثله على استبقاء المظهر ، والاحتفاظ بالظاهر .
وقد ارتبكت ارتباكا شديدا لكلمات الافك التي هضلت بها ، لم ترتبك
في حضرته ، بل خجلت بعد ذهابه ، وتولاها ما يشبه الحزن على سجية
محتضرة لن يبقى لها وجود !

وجاء الطفل « سيرج » فانقد بمجيئه الموقف المتوتر . ونظر الى امه
مليا ، ثم تحول الى ابيه ، واغضى حياء .
وادنى كارنين ابنه منه ، فربت على خده ملاطفا ، وقبله وحده ،
وداعبه ولكنه فعل هذا كله بفتور وتكلف .

وخفق قلب الطفل ، وانقبض صدره . وما عثم ان نظر الى امه
مستجيبرا ، فتفطر كبدها اسى ، ورات بعين مخيلتها دعائم بيتها تنهاوى
وتنهار . ولكنها تداركت الامر فاقبلت على الطفل تحتضنه وتقبله ، ثم
امسكته من يده وقادته الى الشرفة .

وتناهى اليها صوت عربة قادمة ، فقالت تخاطب زوجها : « هسى
بتسى ، اتي راحلة » . ورجعت اليه فصافحته مودعة .
ولما قبل الرجل يد زوجته ، اجفلت من القبلة ، ولكنها تماكنت نفسها
فابتسمت وأسرعت بالذهاب .
انها تمقت ! انها تمقت اذنيه ! انها تمقت شفثيه .

جلست انا في المرتفع الكبير الذي تحتله الطبقة العليا من الاشراف
والسراة ، وجلست الاميرة بنسي الى جانبها .

ووصل كارنين فشاهد زوجته وشاهد صاحبها ، وعض على نواذجه
من القهر المكبوت .

ورانه انا واختلست النظر الى وجه المتجهم الذي ينسب بالشورة
الهائلة المتدلعة النيران ، والتي تعتمل بقوة في صدره .

وفكرت بفرونسكي - الرجلان هنا في مكان واحد - الزوج المموج -
والعشيق المفضل ا رات زوجها ببصرها ، ورات عشيقها ببصرتها ، فنقمت

على الاول لانها لم تحبه مع انه زوجها ، وهفت الى الثاني لانها تحبه !
ولو كان حبا له يعني دمارها وتقوض دارها .

ولله في خلقه شؤون - لقد خلق الانسان ، وخلق معه النزع ، والمواطف
والمشاعر ، فاصبح الانسان كالريشة في مهب الريح ، واصبحت الريح تلك

المواطف والمشاعر .

وتبعت خطوات زوجها ، وتبعت ببصيرتها التحول الفكري الذي
اصابها عقب تولد صداقتها بفرونسكي ، ودهشت مما استنتجت - كانت

معجبة بزوجها من قبل ، كانت تراه عظيما ، اما الان فما هو الا حفنة من
تراب ا او قطعة من حديد او من خشب ، يتحرك كما تتحرك الالة ، وتقل

حركته ومشيبته على اعتداده رغم انكساره ، وشعوره بما يشعر الرجل
الخطير الكبير .

كانت ترجو دائما ان يكون محترما مبيلا ، فاصبحت اليوم اول من يكره
فيه ميله الى الظهور بمظهر الرجل الذي له في الدولة شان ومركز ومكانة ا

وابت ميناه ان تتحول عنه ، وابى ذهنها ان يتحول عن الانسان الذي
احبته ا وابتفت البكاء . . ولم تدر السبب .

وايقظها من شرودها صوت صديقتها يمس في اذنها : « هوذا زوجك
با انا هوذا زوجك » .

وسمعتها تخاطبه وهو يدنو بقولها : « انا هنا ايها الكونت ، زوجتك
هنا ، ألم تبصر بها ا ؟ » .

فابتسم الرجل وأجاب : « كلاً لم أرها ، ولا أؤاخذ سهوي ، فالظاهر
فخمة تخبى الابصار ، وتذهل العقل والاحساس ! » .

والتفت الى أنا ضاحكا ، ودنا منها كما يفعل سائر الأزواج ، والقسى
يده على يدها . ومر به قائد فحياء ووقف معه . وانشأ الاثنان يتجادبان
اطراف الحديث . وطفق كل منهما يبدي رايه في السباق ، وما يجب ان
يكون عليه ، وكيف يبدأ ، وكيف ينتهي .

وقد امرب له كارنين عن اشفاقه على حياة الفرسان المهتدة بالضياع
فالخطر يحدق بالمسابق ما دام القائمون به يحرسون على وضع الحواجز
المرتفعة في طريقه .

واصفت انا وبدا لها فرونسكي الرشيق الشجاع متمرغا في الثرى ،
بدا لها منطرحا ارضا والدماء تنرف بغزارة من جسده .

ونظرت الى زوجها ، وزادت كراهية له ، فقد نبها الى ما يتهدد
حبيبها ، وكأنه تعمد ان يخيفها حتى تفقد طمأنينتها .
واستفرقت في الفكر .

مسكينة هذه المرأة التي اعماها حبها فخيلى اليها ان عدوها رابض في
قلب زوجها .. مسكينة انا فقد غاب عنها ان ثرثرة زوجها كانت صادرة عن
الم دفين يدمى قلبه ويهدر كرامته .. غاب عنها ان كارنين كان يتآلم السا
شديدا ، وان الاكثار من الكلام كان يصرفه عن مواطن من الالام المبرحة .

ولما كاثت نفسها تنوق الى وضع اللوم على زوجها ، حتى لا يتألمها من
ذنبها اذى لروحها ، فقد آبت لها هذه النفس الهوجاء الا الخصومة لهذا
الزوج !

ولما شرهت نفسها الى اللذة الجديدة ، واستحيت ان تعترف بفجورها ،
رات في زوجها الفجور متجسما متجسدا !

واصطف الفرسان متاهبين للسباق ، وساد الصمت ، وسكن الضوضاء .
وانتهى بعد حين الشوط الاول . ثم حان ميعاد الشوط الاخير الذي
يشترك فيه فرونسكي . وخفق قلب انا خفقة الانفعال والخوف ، ورقعت
منظارها الى عينها ، وجعلت تنظر الى الشاب الجميل ولا تحول عنه
ناظريها .

ورأى كارنين ما انصرفت زوجته اليه فجعل يرقبها صامتا جامدا

الوجه . واخذ يتأمل في وجهها المصفر ، ويدها المرتعشة ، وملامحها المتشعبة . وايقن انها لم تكن ترى الا شخصا واحدا ، بشخص واحد ، وان زوجها وولدها ، لم يعد له وجود في رايها وتفكيرها . ولكنه لما اجال طرفه في سائر الموجودين ناجى نفسه بقوله : « انها كغيرها لقد عم الانفعال ، ولم يبق انسان سواي انا لم يطرا عليه ما اصابها . واستدار اليها ثانية وتصفع امانرها ، واضمض عينيه - لقد راي كل شيء !

وساقط بعض المتسابقين ، وخف رجال الاسعاف لنجدتهم . وصاحت امراة رقيقة « امجزرة ! وهل لمة ما يوجب هذه الالوان المتعددة من الماسي » .
اما انا فقد جمدت كالتمثال كانت تتابع فرونسكي . تبتهل في سرها الى الله ان يحميه .

وتقدم فرونسكي ، ولكنه سقط ، وسقط منظار انا ، وزفرت ، ونهضت ثم قعدت .. وقال كارئين بصوت خفيض : لنذهب ، هيا ، هيا .. » .
ولم تكثرث لاقواله ، بل اصاحت لما كان يقال . وتناهى اليها فرونسكي صدع ساقا . فحاولت ان تبرى ، ولكنها لم تر شيئا .
وخاطبها زوجها ثانية ، طالبا منها مرافقته والعودة معه ، بيد انها انكشمت مجفلة ، وقالت محتدمة : « اذهب انت ، اما انا فسابقى هنا » .
فجاء ضابط من الحرس فأخبر القيصر بما حدث ، وعلمت انا بان فرونسكي لم يصب بأذى ، فتنهدت بارتياح ، وحل الامل في تقاطيعها محل الياس .

وبكت ، وبكت من الاطمئنان ، وراها زوجها تلذف الدمع ، فدنا منها ووقف في وجهها حتى لا يراها الغير وهي تستعبر . وخاطبها مرة ثالثة فقال : « لماذا تتشبثن بالعناد ، هلم معي .. قلت لك هلمي ! » .
واجابته الاميرة بتسي قائلة سأرجع يا الكسي معها ، فلا تلح عليها .
ولكنه حدجها بنظرة صارمة وقال لقد اثر هذا السياق عليها تأثيرا مخيفا ولا بد لها من العودة معي » .
وفطنت انا الى ما اظهره زوجها من التصلب ، فانتصبت واقفة ، ووضعت يدها في يده ، ومشت معه كما تمشي كل زوجة مع زوجها .

هكذا سار الزوجان المتباعدان وهما يوزعان التحيات ، حتى عجب لهما
الناس .

كانت أنا في شغل بتفكيرها ، كانت تفكر بفروئسكي والخوف مستحوذ
على مشاعرها .

على ان كارنين ظل في جموده وبروده ، لا يلتفت اليها ولا يكلمها . وان
كان يترمض في داخله على نار .. لقد هاله منها استهتارها بالعرف والتقاليد .
وشعر ان واجبه يفرض عليه تشبيهها الى سوء المصير ان هي تبادت في الغي .
واسرفت في استهانتها باسمه ومركزه بين الناس .

على انه تحير في امره - فكيف يبدأ الحديث - وماذا يقول ؟

ثم استجمع عزيمته المشتتة وانبرى يقول بصوت شارد كأنه مذهول
يحدث نفسه : « لكم ينفر قلبي في مثل هذه المشاهد ! انها قسوة لا مبرر
لها ، انها كالطوقس البالية التي يكررها الانسان رغم تقاتتها ومضرتها » .

فاجابت وهي تحدجه بنظرة يفيض منها اللوم والاحتقار والاستهجان .
« اني لا افهمك ، فأوضح .. اوضح مقصدك ! » .

فأنتى بنظره اليها وقال في حدة ظاهرة . لا مرية ان الواجب يقتضى
مصارحتك بما يجول في ذهني .. ولا املك من نفسي امر الناس ، ولكنك
زوجتي ، وقد شططت وعلوت وارتكبت من الامور ما يتنافى من اللباقة - اى
انك اسأت التصرف ! » .

قالت : « وما هو ذلك على اني لا افهمك ؟ » .

قال : « نسيت نفسك ساعة كما الجواد براكه ، وكانك وحيدة ،
كانك كنت تجلسين بمفردك . لقد جن جنونك ، ونظقت اساربرك بالجزع
الشديد .. وانى يا سيدتى اذكرك بما نهبك اليه في يوم مضى .. اذكرك
بواجبك .. فاحرصى على سمعتي ، وذودى عن اسمي » .

ومضى يقول : ان ما يعينى من الامر الان هو تصرفك امام الناس ، اما
علاقتنا الداخلية فقد طويت كسحي عنها ! » .

ولاح فروئسكي لناظرها فلم تصغ لكلام زوجها ، ولم تحاول ان تتبع
ما يقول . وما كاد كارنين ينتهي من كلامه حتى اختلست اليه نظرة متهمكة
ساخرة ، فاستمر اوار غيظه ، وهو يتابع حديثه . الاكلامى تافه بهذا القدر !
ام ظنى خيال لا معتمد عليه ؟ ان كان ذلك فالمعذرة على تسرعى وان لم يكن ..
ان لم يكن .. » .

وعيل صبر أنا ، فتنفت الصعداء من شدة ما نالها من الكرب
وأجاب بصوت عميق ، ولهجة صارمة مفعمة بالقسوة :
« أصبت اليقين في ظنك ، فأنا ساعة ارتمي الحبيب مت فرقا ! وأعلم
أني أسمع صوتك فقط ، ولكني لا أفهمك ، فهو قد أضحى ملء السمع
والبصر . هو .. أفهم ؟ هو .. وحبي له لا نهاية له .. حبي عظيم ، كأنه
البحر .. عظيم ، كأنه الفضاء .. حبي له كيفضي لك ، وكخوفي منك ! » .
وانكشيت على نفسها ، واطمضت عينها ، ثم استخرطت في البكاء .
الرجل الكبير القدر !
الذي ملك القلوب واستولى على الإلياب ، يهتز من قمة رأسه السى
أخمص قدميه !

ما كاد كارنين يستوعب المعنى حتى قفز قلبه بين ضلوعه .. لقد ظهر
المخفي أخيرا ، ظهر بوضوح وجلاء ، على لسان امرأة . كان ملما بالحقيقة ،
ولكنه كان يتجاهلها حتى لا ينهار ويسقط ، فهل في طاقته الآن ان يتجاهلها
هل يستطيع ان يواصل هذا الدور الذي اداه بصبر وجلد واحتمال ؟
فهل يتكلم ؟ وما جدوى الكلام ؟ لقد انتهى كل شيء ونفذ المقدور ،
وغدر به الدهر في موطن الحساسية من حياته ، فهل يستسلم ؟ هل يلقي
السلاح ؟ أيقضى على مستقبله دون كفاح ؟

« أنه شجاع ؟ وعاطفته ليست كل شيء .. انه يعيش لهدف » وهدفه
ان يتقدم ويتقدم ، باستمرار دون انقطاع .

ودنت العجلة من المنزل ، فقال كارنين دون ان ينظر الى امراته الباكية :
« لن اعذر لك ، على اني ارجب اليك في التمسك بالحرص ، احرصي ما وسعك
الامر على اسمي وسمعتي ، وسأفكر فيما يخلق بي ان أفعل .. التزمي جانب
التعقل ريثما أبت في مصيري ومصيرك ولا ترغعيني على ركوب متن الشدة .
هذا هو مطلبى الوحيد ، فتفكري مليا ، وتروي ، والا لحقتك ندامة ، ولن
الأم ، فقد اعذر من انذر ! » .

وكعب الحوذني جماع خيله ، فوفقت العربية ، واثول كارنين واعان زوجته
على النزول ، ثم صافحها محنيا لها هامته ، ورجع من حيث أتى .. رجع
الى بطرسبرج وهو يشعر كمن اصيب بطعنة نجلاء .

وصعدت أنا الى مخدعها في « بيترهوف » فأغلقت الباب عليها وانطرحت
على مرقدها . وسرعان ما نسيت مصيبتها ! نسيتها ساعة طرقت خادمتها

الباب عليها ، وقدمت اليها رقعة صغيرة كتبها صديقتها الاميرة بتسي . .
ولما فضت الورقة وتلت ما سطر فيها انفرجت شفتاها عن ابتسامة
مشرقة . وهتفت وهي تضحك مقتبضة : « انه سليم لم يصب باذى » .
« انه معافى لم يلحق به سوء ، فيا لفرحتي ! يا لفرحتي ! » فرونسكي
ما احلاك وما اشهاك !

ما كان للانسان في كل اوان ، ان يكنه حقيقة ما جبل عليه الرجل
القد .

فهو في مظهره جامد صلب لا تلت له عاطفة . وهو ما يتبين من حركاته
وسكناته رجل قلما يشفق ، ولا يخاف حتى من هادم اللذات ! الا ان الحقيقة
التي لا مرأى فيها ، هي انه كان يذوب شفقة ويسيل لوعة كلما اصفى مرغما
الى امرأة او طفل يكيان !

وبلغت به الرقة انه لم يتمالك نفسه من التفجع لانا زوجته حين
نفضت له ما يشجها بفرونسكي من علائق ، واستخرطت من بعد تبكي بكاء
مريرا . . لقد ألم به ساعتذاك ما يلم به عادة عندما يرى المدامع ، فنسى
سيئتها ولم يحفل خيانتها بل ان نفسه الرقيقة ذرفت هي الاخرى الدمع
مع عيني انا .

ما اكثر ما تألم كارنين لما وعاه ! ولكن الدمع غلب على شعور الفيظ ،
فرئى لها وود ان تكف عن النحيب .

ثم خرج مسرعا ، واستقل العربية ، وتهد من كبد حري . وما عثم ان
تنفس الصعداء كأنه يبعد اوشابا طلقت بنفسه وشعر كمن افرج عن مخنقه ،
وشعر انه تخلص الى الابد من رابطة حب طالما شغلت تفكيره ، وانه تحرر
ايضا من غيرته الشديدة التي استرقته واستعبده .

فيا للرجل الغامض ! اينسى الخيانة بمثل هذه السرعة !
وهل الاعتراف بالخيانة يزيد شقاء الرجل المخدع ، ام انه يرفع عن
كاهله حملا طالما ناء من ثقله . وهز كارنين راسه - انه الان حر -

وناجى نفسه بقوله : « تبا لها ! لم احقد عليها ؟ اليست زوجتي امرأة
كسائر النساء ! اليست انا مخلوقا ضعيفا لا كرامة له ولا شرف ؟ انها
غدرت بي ، ولكن ألم انتظر منها الخيانة ؟ ألم اتوقع في كل حين ان تأتي
المنكر ، وتجنح الى الموبقة ؟

وخيل اليه الوهم ان حبه لابنه قد نضب معينه ، وان القلام اضحى
غربيا بعيدا ، لا يعنيه في شيء - هو وامه اصبحا في نظره قريبين لا يهमे

منهما الا ما يحزن سواه متى شاب نفسه قلق .. ويحتم عليه الان ان يلاشي قلق نفسه حتى تعود اليه نفسه .. وان ينقي روجه مما علق بها حتى يرجع اليه هدوءه ، ويعود اليه اترانه ، فيزاول اعماله بما اثر عنه من الهمة والكفاءة . وطلق يحدث نفسه ويقول :

« ومالي اسمي الى شقائي ؟ وهل تستحق كل هذا العناء والتحرق على الرمضاء امرأة خلعت العذار واركتبت المعاصي ؟ اما يخلق به ان ابحت عن الدواء ؟ اما يليق به ان ابحت عن الحل اللائم حتى اخلص من هذه الادران ؟ انا الرجل الاخير الذي مرغت زوجته شرفه بالاوحال ؟ كلا ، ثم كلا .. فهناك كثيرون غيري امتحنوا بمثل ما امتحنت . وراى بعين مخيلته وجوه رجال ارتكبت نساؤهم المعصية ، وانثسا يستعرض رد الفعل ، والاجراء الذي توسل به كل زوج خدعته امراته فظلمته .

وكان منهم من قاتل عشيق زوجته ، وكان منهم من رضي بالامر الواقع ، فاغضى وتجاهل ، وكان منهم من هجر امراته ، وكان منهم من تخرم انفاسها ، وكان منهم من سعى الى الطلاق منها . اما فكرة المبارزة فقد استحوذت عليه ، ولكنه راى فيها خطرا محققا ، فهو ان قتل غريمه تزعمت حياته ، وهو ان قتل بيد غريمه لم يبق له كيان في هذا الكون !

وسولت له ان يتخذ الاجراءات القانونية لتطليق امراته ، ولكن كيف يصبر بعد ذلك على رؤية انا تنتقل بين احضان الرجال ! انها لن تقتصر بعد طلاقه منها ، لان الكنيسة تحرم زواج المطلقة .. انه لم يشعر نحوها بالمحبة ، ولكنه لا يرغب في رؤيتها تتدهور الى الدرك . فهل هو الاشفاق ، ام هي الاثرة ؟ .

انه يحب الانتقام ، لقد اكتشف هذا الان ، ولن يفسح المجال لانا ، لن يدعها تنعم بحبها بحرية واستقلال .

فهو لن يقاوم دفاعا عن عرضه ، وهو لن يطلق درءا للفضيحة ثم تجنبا لما قد يتيح لها من حرية التمتع بحبها ، وهو لذلك سيحتفظ بها زوجة بالاسم ، ويبدل ما في طاقته للحبولة بينها وبين عشيقها . ثم يسدل ستارا صفيقا من الكتمان على ما حدث ، حتى لا تنتشر الفضيحة فيسمع بها القاصي والداني !

وفضلا عن ذلك ، ارتاح لما وطن عليه النفس ، وعلل ارتياحه السي نامة الخير ، يعتقد انها تعتمل باستمرار في قرارته .. علل ارتياحه بأنه ناجم عن امله في ان تنتبه انا وتغني الى نفسها .

الخائنة ، دمدم يقول ، وهو يصبر بأسنانه ..

ووقفت العربة فنزل منها ثم صعد الى مكتبه وجلس قليلا ، وما ابطا

ان تناول ورقا وقلما وجعل يكتب :

« سابر بوعدني لك واطلعتك على قراري بصدك .. كنت حمقاء فيما صنعت ، وكان علي ان اقصم كل صلة تشجعني بشخصك ، الا اني عدت فعدلت عن هذا الراي حتى لا اتحدى الله في ما اوجبه على عباده ، وحتى لا افرق بين من وصلهما برباط الدين .. ولا شك ان انحراف زوج او زوجة عن العبادة لا يقصر المسافة اليه على فصم الشراكة الزوجية حتى لا تتقوض بذلك دعائم العائلة ، ويقضي على ثمرات الزواج - وهي الاولاد : وعليه فلا مندوحة لي من استبقائك في كنفني حفاظا على اسمي واسمك ، واشفاقا على ولدنا المسكين .. واني واقف من انك توافقين على خطتي ، وتساعديني حتى نتمكن من تخطي العقبات فلا اضطر الى اتخاذ سوى تلك الخطوات ا ورتبة مني في اقتناك بصواب رايي ارى ان نجتمع في ميعاد لتبادل الراي وتوحيد الطريقة ، لان هدفي في رعاية ابني هو هدفك ولا غرو .. فتعالى الى بطرسبرج قبل يوم الثلاثاء المقبل واناك ان تتلكاي او تتأخري » .

وقرا ما خطه ، فوافق على كل كلمة ، وما هي الا دقيقة حتى كانت

الرسالة في طريقها مع مبعوث خاص الى زوجته في بيترهوف .

اما انا فكانت في حيرة من امرها - كانت موزعة الفكر ، مشتتة لا تكاد

تستقر على امر وتهدأ في حال . كانت تفكر ولا تفكر ، وكانت تهمس فيما بينها

وبين نفسها فلا تكاد تعي ما يعمل عليها حياتها ويستوعب فكرها . لقد تأجم

غيبظها حين جابهها حبيبها براهه ، وقال لها انها اضحت في مركز صعب عسير

لا انحلال له . ومع انها غضبت واحتدم غيظها وغلت مراحل هذا الغيظ في

اعماقها ، الا انه لم يسمعها سوى التسليم بما قاله فرونسكي - ان مركزها

محرج للغاية ، وليس لها الا البحث عما يزيل تلك الجبال من العقبات التي

تعترض الان سبيلها .

وصارحت زوجها بما حصل ، جهرت له بنفورها منه ، وبميلها الى

فرونسكي .

ولكنها شكت فيما بعد بما قامت به ، وايقنت انها رمت بنفسها

للتهلكة .. على انها عادت فطمأت نفسها وعائلتها بقرب انفراج القمة

فالصراحة مهما قست تبدد السحب . وهي بصراحتها لم تعد تحتاج الى

النفاق والرياء والكلب .. وعلى زوجها المعجوج الان ان يتدبر امره بما يراه ،

ولن تبالي هي بما يفعل .

على انها ما كادت تهجع في تلك الليلة وتستيقظ صباحا حتى خيل اليها
انها حلفت في امالي الجو لتسقط مرة واحدة وتتحطم ! وأن النطق كان يوجب
عليها ان تلزم جانب الريث ، وتلتق بحبل العنبر والروبة قبل ان ترسي
في التهلكة .

لمن ابن لها هذه الجراة ؟ وكيف استطاعت ان تواجه زوجها باعترافها ؟
ومهما يكن فقد فات زمن الندامة والتحسر على شيء حصل ، وزوجها الان
يعلم من الامر ما تعلم ، وسيفعل شيئا ، ولتنتظر ما يفعل !

ان زوجها قوي ذو نفوذ وصحة . وهو لن يقف مكتوف اليدين ..
فهل فكرت قبل الاقدام بما يجري ؟ هل فكرت بعالها متى وقع البلاء وذاعت
قصة الخيانة ، وعرفها الملا ؟ انها الان تنتظر الضربة ، وقد تكون ساحقة ،
وقد لا تكون .. وظلت انا وهي منقسمة الظهر حزينة النفس .

والعجيب في الامر ان ما ظنته واضحا بعد اعترافها استحال غامضا
تكتنفه ظلمات حالكة ، كنفها ، وكاحساسها ، وكمشاعرها .

وتناهت في الهجس والتوجس ، وصور لها الوهم ان فرونسكي يلهو
بها ، وانه لا يهواها .. ولن يعتم متى لفظها زوجها ان يتنكر لها هذا
الحبيب .. فابن تذهب ، والى من تلجا ؟ ودار في خلدها وهي تتلوى من ألم
الروح والقلب ، ان حسن الكلام لا يتم كما قيل الا بحسن العمل ، فابن
منها حسن العمل حتى تحسن الكلام ؟ .. اليس هذا ما طوح بها اليس هذا
ما جعلها ترتكب الخرق فتبوح بسرها قبل تأكدها من دوائها .

لقد قالت لزوجها كلاما كثيرا ، فهل سمع الكلام انا من اخرون ؟ ربما
سمعوه وربما عوه وتفهموه ! وعادت الى الندامة ، فقرعت نفسها وعدلتها
على كثرة كلامها . ثم ولجت عليها العرفة خادمتها .

« ان ابنك سيرج ينتظرك ، فهو كالعادة يرقب في التحدث اليك » .
وتلا ذلك صوت الغلام وهو ينادي امه . وقد شاب صوته رنة ألم
فتولى انا الخوف واصفر وجهها وتساءلت : ما الخطب ؟ ما الخطب ؟
واجابت الخادمة : « لعله يكون قد تعثر فسقط ، او لعل شيئا اغضبته

وأثار الله . فنهضت آثا وهرعت الى ابنها متلهفة مضطرة : ولما اطعانت الى سلامته خاطبته بلهجة مؤتبة فقالت :

« ألم أتك عن المخاطرة في اللعب ؟ الا تسمع نصائحي يا سرج ؟ »
فقال وهو يطرق حياء : سمعا وطاعة يا اماء ، لن ارجع الى الخشونة مرة اخرى فعانقته وقبلته . وانبسطلت اسارير الفلام بعد انقباضها ، فلصق بها وهو يبتسم ويقول متسانلا : « أتحييني كل الحب يا اماء ؟ » .
وناجت نفسها : « يا الهي ! الا احبه ؟ الا افتدبه ؟ الا اقدم له حياتي ؟ »

واغرورت عينها بالدموع فبادرت الى الرجوع وهي تتمتم والهمة ملهوفة :

« اجل ! اتى احبه .. احبه .. احبه .. »

كان ظهور ابنها بمثابة النسمة المنعشة تهب على القلب المهيض فتتفتح الحياة في مواته ، وتبدل بالامل الله ، وتمطيه القوة والجلد والاحتمال .
وجعلت تذكر - رجعت بمخيلتها الى الوراء ، تطفقت تستعيد حوادث الماضي - لقد اتجبت سيرج وقلتها بلبانها ، وسقته ماء حنانها ، انها شكنت منذ قليل في نفسها وروحها ، ولكن روعها افرخ الان - بدده شعور بالثقة والايمان - فروسكى .. وزوجها .. اتها في كفها ، اما ابنها فهو يحتل الكفة الراجعة .. فليبق مستحوذا على حبة الفؤاد .

وأولى بها ان تذهب ، اولى بها ان تصحب ابنها الى بقعة نائية من الارض ، فبمبشا معا بعيدا عن الاحزان وعن مسببي الاحزان .

وقدلت العزم على مبارحة الدبار ، وهرمت على الرحيل الى موسكو .
وقامت لساعتها فالتفتت من الدرج قلعا مسنوننا وورفا ابيض وكتبت :

« الى زوجي :

« اتى راحلة مع ولدي ، فانا لن امكث معك بعد الذي حدث ، فالوداع » .

« ان القاتون امر غريب عني ، لا اعرفه ولا افهمه .. واني والحالة هذه لن ابعث من من الوالدين هو احق بتربية الابن .. انه ابني ، تعزيتي ، سلوتي ، فلا تتجبر ولا تفتنم الفرصة لقهري وسلبني من عمرة احبائني » .
وبينما هي تعيد تلاوة ما كتبت ، دخلت الوصيفة ، فمزقت الرسالة .

وناولتها المرأة مطروفا ، فقضته متوترة الاعصاب ، فاذا الخط خط زوجها ،
واذا الامضاء امضاؤه .

وقرات ما جاء فيها ، واصفر لونها حتى حاكى وجهها وجه ميتة
مسلوبة الحياة ! .

انه اللؤم المتجسم ، انه يطالبها بالرجوع الى بطرسبرج قبل يوم الثلاثاء
القبل ، وهو بلوح لها مهددا ، وكأنه ينلها بكل شر ان تمردت وعصت
هذه المشاعر المتضاربة ! ترددت ثم اعترفت . . ولما اعترفت ندمت
وحزنت ، وقالت لنفسها ان العاقل لا يعمل عملها ، ولما جاء الان زوجها يهبها
الصفح والغفران ، ويعرض عليها الاستمرار في العيش معه ، اظلمت المسكونة
في عينيها وترامى لها ان سعادتها ذوت ، وكأنه كان يسلبها كل شيء ولا
يمنحها الامان والاطمئنان ! .

فماذا دعاها حتى اسابها من لينة كل سوء ؟ وجعلت تقول وهي محتدمة
هائجة :

« ما اقساه ! عجبا ! كلهم ، كل انسان يضفي عليه من آيات المديح ما
يضعه في مصاف الانسان الكامل . . كلهم يجلوته ويعظمونه ويصفونوه
بالرجل العادل الذي يرعى الحق . الا انا ! انا ! ومن يعرفه اكثر مني ؟ لقد
عاشرتة زمنا خبرته وسبرت غور نفسه . . وهل في الدنيا من هو افسى
قلبا منه ؟ الم يذل نفسي ، ويقهر روحي ، ويميت عاطفتي ؟ ثماني سنين
قضيتها في كنفه ، ولا غرو لثمانية قرون ، لم يشعر هذا الرجل الصلف المفرور
طوالها اني امرأة رقيقة طمحت ببصري الى الحب ! » .

وياتي هو الان فيهددني بالويل والثبور ، يهددني بالكريمة ان عصيت
له امرا ، وسلاحه الماضي ذو العدين هو سيرج ، فهل ياخذني ؟ ابحرمني
من اعز ما املك ؟

افاجازف بسيرج : وكيف تكون حياتي دونه ؟ او يكفيني حبيبي ؟ وما
لذة العيش معه ان كان سبب الحرمان واساس الكارثة ؟
ان الكسيس يعرض علي الاستمرار في حياتي الزوجية . وهذا جميل ،
بيد ان له معنى خطير ، ومعناه اختيار الجحيم واينثار نار السعير .
« سحقا لك يا زوجي . ايها الكلدوب الذي يملأ قلبك الباطل . خست
فاتا ارجع عقلا ، ولن ادعك تنعم بلذة انتقامك » .
ان ابنها هو هذا السيف المسلول ، ولا يمكنها ان تتخلى عنه طائفة
راضية لا يمكنها ان تقبل بفرونسكي وتفقد سيرج .

ودخلت الخادمة للمرة الثالثة فأغضت بطرقها حتى لا تخرج سيدتها
ان نظرت وقالت : « لا يزال مبعوث سيدي ينتظر الجواب » . فقالت انا
وهي تسيح بوجهها :

« فلينتظر نينة اخرى ، وساعطيه الجواب » .

وغادرتها الخادمة ، وفكرت فيما تكتب - اكتب لعنتها ؟ ام رجاها ؟
اكتب تعمتها ام توسلها ؟ اتخبره بان الحياة معه شر من الموت ، وان
الحياة دون ابنها ويل دونه كل ويل ؟ ماذا تكتب ؟
وامسكت بالقلم وشخصه الى الامام جاحظة العينين وتمتمت : « لم
لا انزع اليه - الى حبيبي ؟ » .

وخطت اربع كلمات : « لقد قرأت ما كتبت » .

وجاء يوم الثلاثاء فغادرت مصيفها متوجهة الى بيتها في بطرسبرج .
وصلت انا الى المنزل وسألت عن زوجها ، فلم يجبها احد . فعنت
في السؤال ، فاخبرت انه في خلوة مع مساعده .
وانتظرت انا حتى اذا عيل صبرها امرت احد الخدم ان ينسئ سبده
بمقدمها ورجع الخادم ولم يات كارئين .
ولما ذهب المساعد دلفت الى غرفة المكتب ، فالتفت زوجها منكبا على
اوراقه .

ورفع الرجل راسه وراها : وتحرك من مكانه ولكنه لم ينتصب واقفا ،
بل شخص اليها منقبض الجبين متوترا منفعلا .
ولم يلبث بعد قليل ان وقف . ثم تقدم منها فصانحها بحركة متكلفة ،
وقال بصوت فاتر : « لقد جئت الان كما ارى وهذا يسرني ويجملني ارحب
بمقدمك ! »

وكانت انا قد اعدت العدة لكل احتمال . الا انها ما كادت تبصر بوجهه
الشاحب الذي ارتسم على صفحة ما خالج قلبه من الم وحزن ، حتى رثت
له رثاء شديدا ، وكادت ان تبكي . كان يتخوف شيئا ، وكانت مثله تخشى
امرا - فالخيانة الزوجية مخوفة ، واخوف منها حلم الزوج واثاته وتفكيره .
وانتظرت المرأة على اجر من الجمر .

وتكلم هو اخيرا ، فقال : « وكيف تركت سرج ؟ » فجذعت انا اشد
الجزع - فما هوذا يستهل حديثه بالتكلم عن ابنها .
ولكن جزعها انقلب الى دهشة فقد عقب يقول :

« ولا متدوحة لي الآن من مغادرة البيت ، ولن أعود في موعد الغداء : »
فقلت بلين : « ولكنني أرغب أنا الأخرى الذهاب الى موسكو »
فأجاب بسرعة : « يجدر بك الا ترحلي ، بل امكثي »
ولفها سكون ممض ، بددته انا بقولها : « انك اشرف مني يا الكسيس
لقد اسأت اليك ، واذبتك واردت انت صلحا ، فافتقرت كرما ، ولكنني
شريرة ، شريرة ، ولن أرتدع .. لقد التت القول واني اجترىء عليك
فأخبرك ان ما انصدع لن يربأ قط . »

فحدجها بنظرة غاضبة ، وقال : « لا شك ان حسن الكلام لا يغير ما
في النفس الامارة . غير اني اصر على وجوب بقائك . فاحذري مفبة العصيان
وثقي اني اغمض عيني على القدي . وسابقيهما مغمضتين ما برحت حريصة
على عدم تلويث اسمي بانحطاطك ! واني لارجو ان لا ترغميني بهماقتك على
ركوب المركب الخشن الذي يعليه علي حرصي على اسمي ومركزتي ! »

فنكست طرفها وتمتمت بصوت خفيض مهموس :
« اتبقى صلتني بك كما كانت - صلة زوجة بزوجهما - من جميع
وجوهها ؟ » فلم يجبها ، بل ظل يتأمل فيها ويفكر فيما وصلت اليه ..
وكان موقفه وعناده استلا من قلبها ما استشعرته منذ دقائق من
الشفقة والرثاء فأردفت : « لا .. لا .. لن اكون لك زوجا بعد اليوم ، بل
رفيقا قريبا بجسده منك ، بعيدا بروحه وعاطفته واحساسه ، عنك ! »
فضحك ساخرا ، او تضاحك ، وقال :

« اين ذكائك ؟ هل عصفت به حالتك المزرية التي تردبت في حمانها ؟
انتي اذا بينت لك مرامي لم ارم قط الى مزاوله ما انقطع بيننا من علاقة
زوجية .. فعاضيك التقى سيبقى مخلدا في ذاكرتي ، لن امزج بينه وبين
حاضرك المشين ، وسائأي عنك مجارة لشعوري ورغبتك ؟ »
وتبددت جراتها ، ولم تدر ما تقول : فهو على حق ، والبريء شجاع ،
زلق اللسان ، أما المدئب ؟ ..
واستجمعت من الضعف قوة ، فقالت : « افسح عن نياتك ،
ماذا تبتغي مني ؟ »

فقال في حزم وصراحة : « ساتفاسي كما قلت عن كل شيء الا عن
رؤية هذا الرجل في منزلي ، فياك ثم اياك ان تستقبله هنا .. لم احرصي
على ان لا تثيري ريب الناس لثلا يعلو لفظهم . وهدان طلبان متواضعان كما
تعلمين ، هدان طلبان ان وفقت بهما وقيت نفسك من كل سوء مشفقرا ! »

ولم تر اتا في كلام زوجها ما يشير تقمتها ، فهو على حق في حرصه .
لقد علق قلبها بالغايات ، فماذا يضرها لو جارتها فلم تقض عليه القضاء
الميرم ؟ وغادرها الكسيس . . مضى الرجل المبيض الجناح في سبيله . . .

عاش الزوجان في بيتهما كما يعيش غربيان قضت عليهما الظروف أن
يتجاورا . كانا بعيدين كل البعد ولو أنهما كانا يتقابلان ويشاهدان .
على انه تجنب طاقته الجلوس معها الى مائدة واحدة . وكان لهذا
يتناول طعامه خارج المنزل . كما انها امتثلت لرغبته ، فتجنبت دعوة حبيبها
الى بيتها ولو انها كانت لتلقيه كثيرا خارج المنزل .
وعلم كارنين من امر زوجها كل شيء ، ولكنه لم يفتحها بشيء مما
يمسها ويتصل بعلاقتها المحرمة .
وقد داخل الرجل من مودة زوجة لفرونسكي ما ملا قلبه اشمزازا ،
تقمتها واحتقرها ، وابتقن ان هذه العلاقة لن تبقى سرا .
انه لذنب عظيم ، وسكوته ذنب اكبر واعظم !
وكان انا وثقت بوعده ، فتعادت في غيها وأسرفت في اتصالها بحبيب
قلبيها .

وكان مع ذلك يرجو ان تعود انا الى رشدها ، وتقلع عن الفحش شفقة
على بيتها من الانبيار ، ومستقبل ابنها من الزوال .
وجارى فرونسكي حبيبته ، فوكل امره للقدر ، ولكن حالته كحالتها
اضطراب وقلق وتوجس وانتظار . . وكذلك كانت حالة الزوج الصابر على
ضيم .

ولما مضى من الشتاء نصفه ، قضى فرونسكي اسبوعا متعبا ، كل
فيها من كثرة الحركة ، وارهقت اعصابه الرسميات التي ارغم على
مرامها .

فقد وفد على البلاد ضيف له مكانة وقدر . وكان هذا الوافد الاجنبي
اميرا شاه ان يلّم ببطرسبرج زائرا ، فاختارت الحكومة فرونسكي ليصاحبه
في حله وترحاله . وقد برم الشاب برما شديدا . وكان هذا الامير ايضا
متهافتا على اللهو ، ولا يربا بنفسه عن انتهاب اللذة ولو على حساب اسمه
وماله . . وقد قسر فرونسكي على مصاحبته ومعاشاته في مبته حينما من
الوقت ، لم يكحل عينيه بمشاهدته حبيبته .

واتفق وهو في ابان انهماكه مع الامير الثقيل ان يرجع في احد الايام

مكرا الى مسكنه ، فوجد في انتظاره رقعة بخط انا ففضها مستعجلا وقرأها .
فاذا فيها : « انا مريضة تاعسة ! لا استطيع الخروج ، ولا اقوى على العيش
دون ان اراك ! فتعال الليلة .. ان زوجي الكسيس يذهب الى دار الحكومة
في الساعة ويقفل راجعا في العاشرة .. تعال - ارجوك ! » .

وكان فرونسكي قد حظي في تلك السنة بربة « الكولونيل » فسادر
الثكنة العسكرية واوى الى مسكن صغير جميل .
ولم يبق الا والظلام يسربل الدنيا بغلثته السوداء . وغادر فراشه مسرعا ،
وركب عجلة صغيرة متوجها الى منزل محبوبته . ولما وصل كانت الساعة
تشير الى الثامنة .

وخطا الى صحن الدار ، الى انه فوجيء بكارنين نفسه يخرج من غرفة
جانبية . وجمد الرجلان ، ووفقا يتبادلان النظرات وقرأ كل منهما شيئا
خطيرا محفورا في وجه الاخر . وتفصد جبين الزوج بالمرق ، وبرقت عينا
فرونسكي ، وظل يحدق في الوجه الشاحب المصفر ، وهو حائر لا يدري ما
يفعل .

الا ان كارنين مس طرف قبته باصبعه ، ثم انحرف قليلا وغادر
البيت .

ذهب الزوج لا يلوي على احد ، ودخل العشيقي خدر الزوجية .
وحدث كارنين نفسه دون ان يفقه ما قاله لسانه . .
ولوح فرونسكي بيده وقال : « صدفة . لا احفله ولكن ، ما خطبه ؟ لم
يفعل شيئا ؟ لم لا يذهب عن شرقه فيقابلني ؟ تباله من رعيدي ، الا يتحرك
حتى انهي المسألة وابت بالامر ؟ »

وتقدم الى غرفة انا ، وطرق الباب .. خفيفا وفتحته .. كانت انا
بادية الانفعال تدرع المكان مهتاجة مضطربة . وما ان شاهدته يدخل حتى هتفت
وهي تشرق . هذا مربع انه لا يحتمل ! »

قال : « خففي عنك يا انا ، ماذا الم بك ؟ » .
قالت : « عذاب . . توتر شديد وانفعال وهياج دائمان .. وانا
اتحرق ليل نهار لن اصبر اكثر مما صبرت .. ثم تتلكأ أنت وتتاخر ، وتمضي
الساعات وانا اهلل النفس ، فما جرى يا ترى ؟ » .
وجلس الاثنان ، قبلها ، وهدهد خدها حتى اذا ما هذا نأثرها ، رنت
اليه متوددة وقالت :

« اخالكما تقابلتما وجها لوجه فهل تكلمتما ؟ » قال : « لم نتبادل
الكلام بل النظرات » قالت : « خيرا فعلتما » .

قال : « إلا اني اعجب بهذا الخطأ ، فقد ذكرت انه ذاهب الى دار
الحكومة ، فكيف ؟ »
فقاطعت قائلة : « لا اعلم عن امره شيئاً ، او بالاحرى لم اعد اعلم ..
فقد ذهب كرة ثانية كما رايت » .

قال : « لعله بيت امرأ ؟ »
قالت : « لا آبه فليضمر كل الشر .. اما انت فحدثني عن اميرك » .
قال : « انه متعب وصحته تفعمني سأمًا ، وهو اليوم متوكل يلسوذ
بمرقده ، والحمد لله ! » .

فقررت انا مفتبطة ، ولكنها سرعان ما قالت مقطبة : « على انك
زجيت معه وقتنا طيبًا ، وصاحبتة الى جميع ملاهي المدينة .. وانت رجل ،
والرجال لا يتأخرون عن اجتناء لذة ! »
فنظر مبهوتا ، وأفرعه في محياها تقلص غاض معه جمالها ، ولكنه
كتم اشمئزازه ورعبه واجاب :

« لا صلة لي بالمجون ، فقد صدفت منذ زمن عنه ، وثقي ان صحبتي
للامير تولاني منها ضجر لا يعدله ضجر ! » .
فتفرست فيه مرتابة مشككة وقالت :
« على اني وقفت على اخبار الليلة الحمراء التي احيها الامير ! »
« وماذا في ذلك ، وما شأني به ؟ » .
« ألم تسهم معه في الحفلة ؟ »

« كلا .. فقد كنت في معزل عن الجميع بفكري » .
« وماذا تقول عن الفتاة المستهتره التي تعرت ورقصت رقصتها
الصاخبة ؟ » .

« وهل الام انا ؟ هل امنع ما يريد صاحب الحفلة ؟ » .
« ويلكم يا رجال اليوم ! تقترفون الفاحشة ثم تنكرون ؟ وانا ، انا التي
اهواك واعبدك ، هل اعرف عنك النذر اليسير ؟ هل اعرف ما تقوم به غفلة
مسي ؟ » .

« كفالك لقوا يا انا فانت تجهدين نفسك فيما لا طائل تحته ، انت
تشيرين الي ، وعذابي بهذه الترهات ! »
« أصبت ، انا افعل هذا ولكن وحدتي قاسية ، قاسية لا تجارها في
نسوتها ملالة امرأة . »

كان في المدة الاخيرة قد قصرت همته ، وقلل من حبه لها بما ابدته من علائم الغيرة ، حتى شعر بالرابطة الوثيقة تنحل عراها ، وبالعلاقة الوطيدة تنقطع حلقاتها . كان يستعذب كلامها من قبل . وكان كل ما تقوله يحسن موقعه في قلبه .. وما اكثر ما ناجى نفسه قائلا :

« لتحبني فقط ! فأصبح اسعد اهل الارض طرا ! »

ولكن ، لما احبته هذا الحب الجارف ، وتبع ذلك غيرة ، تلاشى حبه الاول .. ثم ان شعور الهناء الذي تسرب الى قلبه يوم اعربت له عن حبه . لم يعد له وجود .. واعجب من ذلك كله انه جعل يتحسر على الايام الخالية . ويرى فيها سعادته الغائبة ، ويود لو رجعت .

لقد تبدل الحال ، وتبدلت اتا ولم تعد كما كانت من قبل ، لم تعد جميلة ينضج الحسن من محياها وجسدها .. لم ير وجهها ساعة غضبت ! لم يشهد تقاطيعها تنقلص عن كرهه وغيره !

وهو في كل طور من اطوار حياته كان يعتمد بقوته وارادته ، ويؤمن بأنه لا يعجز في كل وقت عن الاقلاع عن حب امرأة مهما كان راسخ الجذور . وانه في كل وقت يستطيع ان يكف عن عادة مهما كانت متمكنة من حياته . وقد لاحظت فيه ما اخافها ، فجعلت تقول وصوتها يفضح ندامتها :

« لن اخضع لنائمة الغيرة ، وساطرحها جانبا مهما كان الامر ، فاخبرني الان ، حدثني عن الامير صاحبك .

فضحك فرونسكي وقال : « ان عاداته مقبوحة مستهجنة ، وقد فكرت مرارا في ابقاء نفسي من مصاحبته ، ولكنني صبرت على كرهه حتى لا اسيء الى مركزي .. انه حيوان بهيم عقد على راسه تاج . فابتدرته متعجبة مستفهمة : « وكيف تسول لك نفسك هذا القول ، ومكانته في العلم والاطلاع لا يجعلها انسان ! » .

« اصبت ، الا انه اخطى فكره من الفكر ، وكانه عندما جمع العلم ، جمع معه الجهل .. او كانه عندما حصل على المعرفة حصل عدم المعرفة ! فضحكت اتا !

واستطرد وهو يقول : « فمن واجب العالم ان يعظ ، من واجبه ان يقوم الناس بلسانه ، اما هو فلا يظهر الا على خرجه . وتفاهة فكره ! » .

قالت : « زدني ايضاحا ، فقد اثرت فضولي » .

قال : « وفضلا عن كل هذا ، فهو صنيعه الشهوة ، يؤثر النساء على كل شيء اخر ، ويتبع الرذيلة الى اقصى المعمورة ! » .

فتجهم وجهها وتقبضت سحتها ، وقالت محتدة :

« وهذا نقصكم جميعا ايها الرجال ، تركيبون الالهوال لتناولوا رغبة النفس الجنسية ، وتسيطر اليد بالمال ، لتدركوا اوطاركم من النساء .. ان المرأة هي حياتكم .. انها الهواء الذي تنشقون ، والطعام الذي تأكلون ، والماء الذي تشربون ! هذا ما عاينته فيكم معشر الرجال ، وهذا ما عهدته غيري من بنات حواء ! »

« وانت ! هل تنكر ان غريزتك املت عليك التمتع بمنظر الراقصة العارية ؟ » . فقال محتدما قليلا : « خلت انك قلت منذ وهلة انك تخليت عن الغيرة ، فماذا دهاك ؟ »

ثم عاد فابتسم ودنا منها وقبلها مسترضيا .
وقالت : « لقد فتق حبي لك ان ينصب كلامي على ما يمس غرامي ، فلا تلمني ، لا تلم امرأة لعجها الحب ، فتألمت وتعذبت .. واظن ان المحبين متعرضون دوما لمثل هذه النزاع المتضاربة » .

قال : « اجل ! ان المحبين عرصة في كل حين لهذه الاحاسيس » .
قالت : « هلا اخبرتنى عن التناقك بزوجي ؟ وكيف تم ذلك ؟ » .
قال : « لما دخلت الباب فتح على حين غرة باب آخر برز منه الكيس ، فخفق قلبي ، ولكني سررت ، لاني ظننته رجلا يسوي حسابه مع المحسن والمسيء على حد سواء ! »

قالت : « فماذا فعلت بالله عليك ؟ »
قال : « مس قبعته بأنملته ، ووقف كانه سمر الى الارض ، ولم يلبث ان مضى مسرعا كما بدا ! » .

قالت : « وبله ، وويل جموده وصموده ! اني اكاد اجن من غموضه ! » .
وضحك فرونسكي ، وضحكت انا .. اما الزوج ، اما الكيس كارنين الزوج ، فهو لم يضحك ، بل قبع في مكتبه في مثل هذه الساعة المتأخرة ، يفكر ، ويتألم !

وهل هناك الم ابلغ اثر من الم زوج داست امراته على كرامته وحطمت شرفه ، وامتهنت اسمه ؟
كان كارنين يفكر بالقتل ، ويفكر بالطلاق ، ويفكر بالهجر ، ولكنه لم يصل الى نتيجة في تفكيره .

« ما أغسر زوجك على الفهم ! اهو جبان ، أم شجاع ؟ اهو شريف أم خائن ؟ اهو قوي أم خائر ؟ اهو عاقل أم ابله ؟ انه واحد من اثنين ، فلو كان فظا غليظا لارتحت ، ولكنه هاديء رزين ، وهذا ما يزيدني اضطرابا وقلقا .. »

ولو تحدثني ودعاني للمبارزة ، لاغبتبت نفسي ، ولكنه يراني الج بيته فيترك لي المجال .. اليس في تصرفه ما يحير ؟

قالت : « انه بليد الحس بطيء الادراك ، ولكنه لنيم الطبع ايضا ! » .
قال : « قد تكوني مخطئة ، واخاله يتالم كما يتالم رجل ذبيح ! » .
فضحكت ساخرة واجابت : « هو يتالم ! وهل يعرف هذا الرجل معنى الالم ؟ هذا الرجل الاناني الطامع لا يفكر الا في بلوغ مآربه من الحياة .. ومآربه الاول احتلال الفرقة ولو توصل بالباطل ! »

« ولكنه كما قلت لك يترمض على نيران العذاب » .
« وعلى ماذا تبني حكمك ؟ الا تربته يدعن ويرضخ ويقبل الامر الواقع ؟ الا تربته يرضى لامرانه ان تعشق عليه ؟ » . فمجب منها وذهل لكلماتها .

واستللت : « انه نسيج وحده ، فبدلا ما ان يقضي على المرأة التي خانته يطلب اليها ان تبقى معززة مكرمة .. اتعلم لماذا يريدني ان ابقى معه ، لانه لا يرغب في عرقلة مساعيه الرامية الى تدليل الصعاب .. هذا هو السبب ، افهمت ؟ » وازداد فرونسكي عجا .

ومضت انا نقول وعيناها تشعان ببريق غريب ، وعضلات وجهها تتوتر وتنكمش : « تباه له . لقد عدبني واسترقني .. اني امقته » .
وتضاعف عجب الشاب .

واتمت انا ونظرتها ترق بفتة ، واساريرها تتبسط ، ولونها يصفو بعد كدر : ولكن .. انا قد تكون ، مخطئين ، وكل متكهن قد يصيب وقد يخطيء » .

لم يعلم فرونسكي سر هذا الانقلاب .. لم يعلم ان شيئا خفيا تلملم في احشائها .. لم يعلم ان لمره حبها الاليم ذكرتها بهذا الشيء .
لم يعلم ، بل لم يعلم ..

بعد ان التقى الكسيس بعشيق امراته في بيته ، ذهب الى مكتبه ، ف قضى فيه ساعة لم توجه الى دار الاوبرا ، وانزوى في مقصورته يتأمل بالخلق ، ويحاول ان يرى كل من يريد ان يراه .

وعاد بعد منتصف الليل الى بيته ، ولاذ بغرفته . ولكنه لم ينم ، بل جعل يلدع الحجره وهو مستغرق في الفكر . وما زال كذلك حتى طرق سمعه دقات الساعة الثلاث .

كان يشعر بالغيظ والموجدة ، وبنقم على زوجته لانها ضربت عرض الحائط بتحذيره واستقبلت عشيقها في بيته .. ولهذا لم يبق له خيار بين الصفع والقصاص ، وسيعاقبها ، الى طلاقها بعد ان يحرمها من ابنها . وما تبليج الفجر ، حتى اندفع خارجا من غرفته وتوجه اليها في مخدع النوم ، وهو يزعم ان يصب على رأسها جام غضبه ، ويشفي غليله منها . كان الكيس كارئين رجلا متندا متانيا ، لا يتحرك ساعة يثور غضبه حتى لا يوقعه تهوره في المأزق . كان صبورا يفكر قبل ان يعمل ، ويعمل بعد ان يضع الخطة اللازمة . وقد فكر طويلا في ساعات تلك الليلة ، لقد صفع لها زلتها الكبرى .. وحذرهما من مغبة التفرد به في هذا البيت ولكنها تجاهلت تحذيره واستغفلته فاستضافت عشيقها .

وراته انا يدخل عليها وعيناه تبرقان حنقا فأوجست خيفة .. الا انها لم تظن قط انه سيأخذ من هذه الهفوة ذريعة لانتقامه شفاء لغيله . خيل اليها ان زوجها فقد كل رجولة .. خيل اليها انه احمق لا يقيم وزنا للشرف .

فلما راته مقبلا وفي عينيه شرر كأنه النار وجف قلبها خوفا . ونظرت اليه متسائلة فرأت في عينيه الشر مجسما ... واستنتجت انه آت ليسوي الامر معها .

وصدق حدسها . فقد كان متجهما .. وتهجم عليها بالكلام فحملت غير مصدقة . ثم انثنى الى خزائنه ثيابها ، ففتح جارورا صغيرا تضع فيه اوراقها الخاصة ، فصاحت : « اقصر .. ابعد .. لا تمد يدك » .

ولكنه لم يتردد بل دفع يده داخل الدرج واستخرج رزمة صغيرة من الرسائل . فوثبت كمن اصابه مس وامسكت بيده . ولكنه دفعها عنه بعنف ووضع الرزمة في جيبه وهو يقول :

« هذه الرسائل .. رسائل غرامك .. انها .. أصبحت لى ... وساستعملها في ما انوي القيام به .

وصرخت انا في وجهه ، ووجهت اليه تقريرا شديدا . الا انه حدجها بنظرة صارمة متوعدة وقال : « لن يجديك احتجاجك نفعا » ولن يعود عليك صخبك الا بالاذى ، فأجلسي واصيخي ؟ » .

فصدمت بالامر مشدوهة ، وجلست وانتظرت قوله : وتكلم الرجل وكان كمن ينطق بالحكم .. وقال : « ألم انبهك ؟ ألم انهك عن مغالبة عشيقك في بيتي ؟ » .

قالت ولسانها يتعثر في حلقها : « اردت ان اطلعه على امر .. اردت ان اخبره ان .. » .

فعارضها بصوت متهدج : « اردت فقط ان تقابليه ، وان تقضى بعض الوقت » فصاحت : « بيا لك ! الا تقنع ؟ » .

قال : « ابكلمناك اقنع ؟ هل اؤمن بما تزعمين ، وانت .. انت التي ؟ »
« ايها القاسي ! »

« انا لست بالانسان القاسي ، بل انا رجل ديس شرفه ، وتهتك عرضه وانت الست لصة ؟ وجيبك من هو جيبك ؟ » .
« ايها القاسي ! »

« الاتي انهك عن مقابلة عشيقك في بيتي تصمينني بالقسوة ، الاتي تفاضيت درءا للفضيحة تقولين انني متعنت لا ارحم ؟ »
« انك وضيع ! ومتى اجتمعت القسوة مع الضعة تناهى الرجل نسي الصغار ؟ » .

فحملك فيها متمجبا ، وتساءل فيما بينه وبين نفسه عن كنه هذه المرأة ، هل هي الانثى التي عاشها سنين طويلة ؟ ولما التصبت واقفة ومشت صوب الباب لتذهب ، اعترض سبيلها وقال وهو يشير بيده اشارة الامر الناهي : « اجلسي ! لا تبارحي المكان ، فلي معك كلام كثير » .

فهزت كتفيها وحاولت تجنبه ، الا انه قبض على ذراعها وضغط بشدة حتى صرخت ، ثم دفعها فانهارت على مرقدها وهي تتأوه وتتسحج . ورماعا وهو مائل فوقها ، بنظرة احتقار ساحقة وقال : « انت تثيرين غضبي ، وتأخذين علي اعتراضي على وجود عشيقك في بيتي ، الا فاعلمي انك انسى من صادفت من النساء الساقطات ؟ انت لا تخافين شيئا ، انت لا تشفقين على زوج وفي ابن طفل ما زال مستقبله يتارجح في كفة ميزان .. فكيف يطاوعك قلبك ؟ كيف ؟ » وانت المرأة تحت ضربات هذه الكلمات ، وذرفت عينها دموعا غزيرة ، ولم تنطق بحرف ، فقد سلمت له في قرارها بحقه ، فهو مظلوم ، وهي باقية .

واستطرد هو يقول : « وهل هناك في تعابير اللغة والفاظها ما لا ينطبق السبب منه على حالنك المريرة ؟ » . فاجابت متلعثمة : « وانا اعرف كل شيء فلا تنمادى في وصف ما اعرف » .

« فكيف ضربت بتحديري اذن عرض الحائط ؟ » .

« ماذا تطلب الان ؟ ابن عن ماربك ، امط اللثام عن مقصدك » .

فاعلمني اذن اني سالجا الى القانون حتى ينقلني من هذه المصيبة

التكراء ، سأفعل ما يليق به فعله ، قبل ان نفيقي انت وعشيقك من
نشوتكما ، وقبل ان نفيئا الى نفسيكما » .

قالت : افعل ما يحلو لك ، فليس احب على نفسي من وضع حد لهذه
الماساة التي طال امرها » .

« حتى تكرسى له وقتك كله ، حتى تنعمي بحبك الملوث ! » .
« كفى ، كفى .. فاللغو في مثل هذه الحال لا يعني عن الالام » .
« وماذا يعني عن الالام ؟ » .

« الا تشعر بالاباء ؟ الا تشفق على امراة صرعتها النائبات ؟ او تظنني
سعيدة بما آلت اليه نفسي ؟ اني اتعذب ! » . « اني اشفق على نفسي ايضا ،
نفسى التي ربأت بها عن المنكر فابتلت بما هو شر من المنكر ! » .
وعظمت في ناظرها جريماتها ، وانباها حسبا بأنه اهل لكل شفقة ،
فأين الرجال الذين يستطيعون ان يحتملوا ما احتمله ؟ اين الرجال الذين
يكتبون مشاعرهم وينعذبون بصمت وسكون ووحدة ؟

ولكنها جمجت بأسى : « وماذا تراني فاعلة ؟ لقد تلاشت قوتي ونحلت
عني ارادتي » . قال وكأنه لم يع كلماتها : « لقد سبق السيف العدل كما
ارى ، واعلمك اني مسافر غدا الى موسكو ، واني عن هذا المنزل مبتعد لا
اروم رجوعا .. سالجا الى محامي واطلب اليه ان يقوم بالاجراءات التي
اسوي بها مسالتك ، سأطلب طلاقك .. اما ابني فسأبعث به ليعيش في كنف
شقيقتي » . فارتعدت فريصتها وجحظت عينها وهتفت :

« اتحرمني حشاشتي ؟ اتزع مني فلذة كبدي ؟ »

« لا مندوحة لي من ذلك ، فهذا امر يحتمه الواجب » .

« او تنتقم من امراة يائسة مستضعفة؟ » . « بل انقل طفلا من حماة ! »

« بيد انك لا تحبينه ! » . « كلا .. وهل ابقيت لي مجالا لاجبه ؟ » .

« فاتركه لي اذن تعزية وسلوانا ! » .

« بل اني آخذه منك ، هذا واجب يفرضه علي التقليد والشرف » .

وخطأ خطوتين نحو المخرج . فاعترضت سبيله وقالت متضرعة :

« ارحمني .. اترك لي ابني .. لا تصفع ، لا تغفر ، بل افعل هذا فقط ،

اقعله ، ارجوك » .

واشرقت بدمعها وزفرت ، فخبيل الى الرجل انها تنفخ النار . ولكنها

تعالكت وقالت : « من ذا الذي يستطيع ان يسلب الام ابنها ؟ من غير

الشیطان ؟ » .

قال : « الشيطان الذي يرحم احيانا .. » فسرج « طفل ، وخير له ان يعيش وحيدا من غير ام ، من ان تكون له ام خلعت العذار وارتكبت المعاصي . »

قالت : الا تخف ربك ؟ يا الكسيس كارنين ؟ فكر بما انت فاعل ، فكر بقلب تسعى الى تمزيقه اربا اربا . لا تسلب نور عيني ، لا تقطع قلبي من بين اضلاعي . »

فلم يحر الرجل جوابا ، وظل واقفا جامدا مستغرقا في الفكر .
وانت : « كن رحيما ولو اسأت اليك ، يرفع عنك الله الاما كثيرة » .
قال : « اني ارحم الانسان لضعفه ، ولكن علي اعني بولدي فلا اتركه لينشأ في احضان فاسقة » .

فاعولت انا ، وظلت في مكانها وهي تنسج وتنتحب . فنظر اليها زوجها قليلا ، ثم غادر الحجرة وهو يتمتم : « انت اخترت هذا المصير ، فتلعظي بقلع جريرتك » .

اما سبب اختيار كارنين لمدينة موسكو لكي يجري فيها طلاقه من زوجته ، فيرجع الى ان اعماله كانت تطلب منه القيام بزيارة الى موسكو والمكث فيها زهاء عشرة ايام ، والى انه كلما ابعد عن بطرسبرج كلما خفت وطأة اللفظ . وقد ظن في اليوم التالي الى المدينة . وبعد ان استراح من عناء السفر ذهب الى محام شهير مشهود له بالبراعة .

وانتظر كارنين في قاعة الاستقبال حتى يرم وعيل صبره ولما رأى ان الوقت قد يطول قبل ان ينتهي الرجل من مقابلة عملائه جميعا ، ارسل له بطاقته . وما اسرع ما جاء المحامي مهرولا ، فحياه وبش في وجهه ثم صحبه الى مكتبه .

ولما استتب المقام بالرجلين وتبادلا كلمات المجاملة ، دخل كارنين فسي صلب الموضوع ، فقال على المحامي يقول : « ان ما جئتك من اجله قضية خاصة لا مفر لك من احاطتها بالكتمان والسرية » .
فاجاب المحامي وهو يقطب قليلا : « ولا احتاج الى تنبيه يا سيدي ، فعممة المحامي كعممة الطبيب » .

وتأمل فيه كارنين للمرة الثانية واستطرد : « انت تعرفني ولا غرو ؟ »
قال : « اجل . فانت من وزراء روسيا ، وهذا شرف عظيم لي » .
« ولم يجبه كارنين » بل ظل صامتا شاخصا امامه . وما عثم ان ابتدر

المحامي يقول : « الا فاعلم اذن ان هذا الوزير زوج مخدوع لا يرى ندحة من طلب الطلاق » . فقال المحامي :

« وانت تريد مني ان انهي المسألة بحسب مشيئتك ؟ » .

قال : « هذا ما آتيتك من اجله ، على ان تفعل اللزوم ليقب لي حق الاحتفاظ بولدي » .

« ثم ؟ »

ثم ، اود ان اجعلك على بينة من امري . انسى الان هنا لاحظي بمشاورتك ورايك . قد يقتصر عملك الان اسداء مثل هذا الراي وتلك المشورة ، وقد يقتضي قيامك بالاجراءات حتى اخر مرحلة منها . واعلم ان ما اتيه من تطبيق زوجتي برهن ببعض الشروط ، وهذه الشروط هي لازمة لي ، وربما يضطرنني عدم توافرها الى عدولي عما اريد .

« هذا شأنك ، وانت حر فيما تريد » .

« فهل لك ان تحيطني علما بالخطوات التي يخطوها المرء في مثل هذه الحالة » . « او تبغني مني ان اسرد عليك التفاصيل » . « نعم ، افعل ان كان هذا لا يرهقك ويبدد وقتك » .

« اعلم ان التشريع في بلادنا يحيز الطلاق في احوال معينة ، اولها : عجز في الجسم او في نقص معيب في تركيب الرجل او المرأة الطبيعي ، ثانيا : هجر طويل الامد ، او على وجه التحديد تغيب احد الطرفين لمدة لا تقل عن خمسة اعوام ، ثالثا : الخيانة الثابتة . فما هي قضيتك . وعلى ماذا تستند » . فاطرق كارئين ولم يجب .

واستلنى المحامي وهو بهز راسه : « ففي حالتك اذن ، حالة الخيانة الزوجية يكون الجرم متفرعا الى شعبتين - زنا الزوجة بموافقة الزوج ، ووقوعها في الفحشاء في غفلة عن زوجها ! » قال : « وماذا تعني ، اوضح ! » قال : « قد يتفق ان يرى الزوجان ان علاقتهما شابتها غيوم تلبدت في سمائها حتى حجبتهما وكدرتها ، فيفصلان متفقين ، وتعهد الزوجة الى الحياة مع حبيبها ، وهذه الخيانة لا تحتاج الى دليل في القضاء ، ورسالة واحدة تكفي للظفر بالحكم ، والاشهاد عليهما في الجرم المعروف هو كذلك دليل لا يحتاج الى اثبات . . فما هي قضيتك ، وكيف تريدني ان اسر بها ؟ » .

ونظر الى كارئين متسائلا ، واحمر وجه الاخير ولم يجر جوابا . واردف المحامي يقول : « عليك ان تكون شجاعا فتغضي لي بالحقيقة ، لا تخش سوا ، فكلنا في المصيبة سواء ! » .

وتعلم كارنين في مجلسه ، ثم انتصب واقفا وهو يتأهب ليذهب :
« علي ان اقلب الفكر على مختلف وجوهه ، فلذني اتامل في هذه المسألة ،
وسارجع اليك ! » .
قال : « انت في امورك مخير ، فافعل اللازم ، وثق اني على قدم
الاستعداد لخدمتك في كل حين » .

مشى كارنين ، وما زال يضرب في الطريق على غير هدى ، حتى التقى
بفتة باستيفان اوبلنسكي شقيق زوجته انا .
وقد اجفل ساعة رآه ، فهو منصرف بذهنه عن الجميع ، لا يرغب
في التحدث مع انسان ، ولا سيما هذا الرجل الذي يذكره بانا وخيانتها .
وحياه بايماءة ، واستمر يمضي ، غير ان اوبلنسكي استدار على عقبه
وهول وراه . ثم قال بصوت مشرب بالعتب :
« اتاني الى موسكو ، ولا تعرج علينا ؟ تأتي دون ان تطرق بابنا ؟ هذا
عجيب ، هذا امر مذهل ! » .
فقال كارنين بصوت خشن اجش :
« اتني في شغل عن الجميع ، وليس لدي من وقتي فسحة ازور فيها
الاصدقاء » .

ولم يابه اوبلنسكي لجفائه ، بل تابع يقول بصوته الجهوري :
« لا مندوحة لك من المجيء فنحن في شوق شديد اليك .. واعلم اننا
مدعوون غدا الى الاحتفال الرائع الذي يحييه آل شرباتسكي بمناسبة خطبة
كاترين .. او تعلم من الخطيب انه ليفين .. ولا بد لك من حضور الحفلة
معنا » . ولكني راحل الى بطرسبرج .
« فلتات اذن لتشاركنا طعام الغداء لان داريا ترغب كثيرا في رؤيتك » .
« لن اتمكن من ذلك » . « حاول ، ارجو ان تحاول » .
ورمقه بعينين متوسلتين لانت تحتكما خشونة كارنين . لقد كان
مصمما على مجافاة هذا الرجل حتى لا يضطر الى مصاحبة شقيق زوجته ،
ولكنه احس بعد هذا الالاحاح ، الميل اليه ، وخجل من نفسه ومن جفوته .
وتناهى اليه وهو يفكر ، صوت اوبلنسكي يتساءل : « وماذا يحول دون
مجيئك ؟ هل ثمة ما يقلق بالك ؟ » .
ففكر كارنين قليلا واجاب : « لم يعد بيننا رباط كالسابق ، لقد فصمته
انا بمحض ارادتها ! » .

فصاح الرجل مشدوها : « افي حلم انا ؟ وهل تقول الحقيقة ؟ » .
قال : « كلها يا صديقي كلها .. وما مجيئي اليوم الى موسكو الا لانني
علاقتي بها بالطلاق » .
واصفر وجه اوبلنسكي - لم يكن يتوقع هذه المفاجأة الهائلة - لماذا .
يزمغ كارنين ان يطلق زوجته ؟ وما السبب يا ترى ؟
قال متلعثما : « ما الخطب ؟ هل جرى ما يقتضي الطلاق ؟ » .
« اجل .. فقد حادت اختك عن الصراط » .
« كن عاقلا يا الكسيس كما امهدك ، فكر في الامر قبل ان تقدم ، لا
تكن عجولا فتندم » .
« بيد ان الحالة غدت لا تطاق ، وارتكبت انا ايشع فعل ترتكبه امرأة
في مثل مقامها ومنزلتها » .
« على ان العجلة تعقب الندامة ، فترو ، ترو » .
« ما اكثر ما لزمتم جادة الروية والصبر ، ولا مرة ان جمودي شجما
على التماذي » .
« ما افظع ما سمعت . هذا الامر لا اكاد اصدقه . ففكر ناشدتك
الله ، فكر .. فلك مركزك ، ولك سمعتك ، ولك ابنك » .
« فكرت بكل شيء .. ولكنها لم تفكر يوم دامت كرامتي ، وتلمت
عرضي ، واستباححت شرف ابني . لم تفكر .. وكأثما جنت ..
تعالم الينا ، تعال فقد تجد السلوى والرأي السديد لدى داريا ، فهي
مخلصة لاصدقاتها ، تمنى لهم كل خير » .
وتردد كارنين ولم ينبس ببنت شفة . ثم تابع اوبلنسكي بقول فسي
توسل واستعطاف : « تعال الي بيتنا غدا » .
« ولكنني في حيرة عظيمة من امري يا صاحبي ، فقد آليت ان انساى
بجانبي عنكم ، وها انتلدا تلح علي ان ازورك » .
« وماذا يحدوك على احلال القطيعة مكان الوداد ؟ » .
« لان انقسام علاقتي بزوجتي يوجب علي الابتعاد عن سائر افراد
العائلة » .
« على ان صداقتنا راسخة لا يخلق بامرأة ان تعكرها . انا مخلص في
قولي ، ولم اكن لك طوال ايامي الا التجلي والاكبار والحب .. » . « وانا
اشكر لك طيبة قلبك » . « لا ارى غير ذلك ، فقد سلبتني حجتي » .
وتصافح الرجلان .. وابتمس الكسيس كارنين في هذه المرة .. ثم
افترقا على ميعاد .

لم يستطع كارنين ان يخرج من حده ، واستجاب لنداء الصداقة ،
وجاء بيت اوبلنسكي في منتصف نهار اليوم التالي .
وكان هناك رجل في طور الشباب يدعى بوشكين . وقد تعرف به
كارنين ، وارتاح الى حديثه ، ولا عجب في ذلك فالشاب صحفى مشهود له
بطول الباع .

وتناول الجميع طعامهم ، وتجادبوا وهم ياكلون الوانا من الحديث
المتع الرصين . وما زال البحث ينتقل بأفكارهم من طور الى طور حتى
رسي نهاية الامر على موضوع المرأة الروسية - وهو موضوع شائك طالما
اقلق بال الحكومة وازصح رجال الحكومة ، وسبب كثيرا من القالة بين اوساط
الشعب . فالمرأة لفر محير ، نارة يرى الناس انها جديرة بكل تقدير
فطالبون لها بالمساواة ، ونارة اخرى يسمونها بالنقص والتفاهة ويصررون
على بغائها حث هي .

اما الصحفى القدير فقد كان من الفئة التي تطالب للمرأة بالمساواة ،
ولا يرضى عنها بديلا .. ويرى ان المساواة لو تحققت لنهضت دون شك
بالمراقق المتأخرة والنواحي المتخلفة .. وتلاشت الى حد كبير ما تجنح اليه
المرأة من خيانة .. فلو تساوى الرجل والمرأة في نظر القانون ، لخاف الرجل
عاقبة الخيانة كما تخافها المرأة ، ولتردد الاثنان مئة مرة قبل ان يقدموا
على استباحة دمار العلاقات الزوجية المقدسة .

وقد تجهم وجه كارنين . وبدأ عليه الانفعال ، الا انه كبت مشاعره ،
حتى اذا فرغ الجميع من الطعام ، ابتسم كارنين ابتسامة مغتصبة لكي يظهر
لاوبلنسكي ان ما سمعه لا يؤثر عليه ، وما عثم ان قال موجها الحديث الى
الصحفى بصوت هادىء مشرب بلهجة التهكم والسخرية مشرب بشيء من
الغضب المكتوم : « على ان الامر لا يبدو الاعراب عن رأي لك ورأي لي ، واخال
ان رأيك يناقض رأيي ، فالمرأة مخلوق متأخر يجب تسييره وتوجيهه ، وعلى
هذا يتعلم وضعها في مصاف الرجل - في المقام الذي وصل اليه » .

ولما هم بالانتقال الى قاعة الاستقبال استوقفه بوشكين وقال : « ان
الخيانة كما اكدت لك هي وليدة الفارق الذي تؤيده يا سيدي ، ألم تسمع
البارحة ما جرى ؟ » .

« وماذا جرى ؟ »

« لقد تحدى الكونت بركنكوف غريمه في زوجته ، وتبارز الاثنان فقتل
العشيقة لساعته ؟ » .

ولفتت نفس اوبلنسكي .. وود لو استطاع ان ينه الرجل الثرثار الى تهوره ، ود لو سقعه على وجهه .. وحاول ان يصرف الاثنين عن متابعة الحديث ، فدعاها الى مغادرة مائدة الطعام . الا ان كارنين حدجه بنظرة صارمة والتفت الى الصحفي وسأله وكأنه لم يسمع جميع كلامه : « وما السبب ماذا جرى ؟ اشجار ، ام خلاف في المبدأ ؟ » .

قال الصحفي : « انها الخيانة الزوجية كما قلت لك . ولا شيء غيرها .. وقد اتى الجميع على الزوج ، فهو شجاع دلال بحزم على شجاعته . واستاهل بذلك كل تقدير ! » .

وعض كارنين على نواذجه ، واحنى رأسه . ثم مشى برفق الى قاعة الاستقبال فتهاكك على مقعد صغير ، وجلست داريا الى جانبه واسترقت اليه نظرات خائفة وجلة ، وقالت :

« لكم سبب لي حضورك من سرور وانسراح يا سيدي ، فانت دائما في القلب .. انت صديق يرتاح الانسان اليه كل الارتياح ! » .

فتكلم كارنين الابتسام واجاب : « هذا واجب تقتضيه العشرة والالفة يا سيدي ، واني وايم الحق جذل لهذه الفرصة » . وكم تراك تعكث بيننا ؟ . « سأرحل على التو ، فأعمالي كثيرة ، وهي تضطرني الى التجوال في المناطق البعيدة عن موسكو » .

وفتحت داريا فاهها للتكلم « ولكنها اطبقته دون ان تتكلم ! » ورماها بنظرة لطيفة شجعها على ما تريد فابتدرته تقول :

« لقد داخلني من مودة انا ما جعلني دائما في شوق اليها فكيف هي الان ؟ » . قال : « انها وافرة الصحة والهناء ! » .

وقطب قليلا وتوترت عضلات وجهه ..

قالت : « ومع اني اعلم ان ما اطلبه منك هو من الاسرار التي يجب كتمها الا اني اتوسل اليك ان تبثني همك وتطلعني على دفين امرك » .

اعلمني ان هذا الكلام شديد الوطأة على نفسي ، فحولني ان اردت دفته الى اتجاه آخر » .

« اطلب الصفع يا صديقي ، بيد اني الح ، فاتبثني باليقين ، ولا تكتم ما سوف يفشو ويشيع » .

« ان زوجك ، ان صدقت فراستي قص عليك خبري » .

انه فعل ولكن بايجاز ، فماذا تأخذ على انا ؟ ماذا فعلت حتى استوجبت

« العقاب ؟ »

« الفاحشة ، ارتعت في احضان الفجور ، شربت من المياه الأسنة
التي تسم شاربها بالذيلة والزنا ! » لا .. لا .. لن اصدق ! » .
هذا شأنك ، ولك ان تصدقني كلامي ، او تنسبني الى الكذب الوضيع .
« انا واثقة من استقامتك ، موقنة من كرم طباعك ، غير ان الغيابة
لم تخطر لي على بال ، فانا اعرف انا واحترمها ، واقدر رجاحة عقلها » .
فتلهب كارنين غضبا وهتف متاجما محتدما :
« انت تدافعين لمجرد الدفاع ! او لان صديقتك عزيزة على نفسك ، لا
ترضين لها المدلة والهوان . ولكن ، ما قولك في اعترافها ! لقد اعترفت لسي
هي بمحض ارادتها ، اعترفت بعلاقتها الاثيمة .. وهل الكلام الذي ينطق
به انسان بملء اختياره يعتبر لفتدا وهراء ، وخاصة اذا كان اعترافا » .
« اعترفت » .. « وقالت انها تنظر الى السنين التي فطمتها معسى
كانها سنون يؤس وشقاء ، وان ما تبقى لها من العمر سوف تعرف جيدا كيف
تقضيه » .

« اواه وهل في مكنتي ان اوفق بين صديقتي انا وبين الخيانة الزوجية .
انا .. تلك المرأة العاقلة الابية ، تردى في مثل هذا الجرف ا » .
اما كارنين فقد الر عليه كثيرا ما شاهده من الم داريا ورفقتها ، فسارع
يقول :
« تغاضيت في اول الامر ولم ارد ان اعاقبها من ان ذنبها اكبر من ان
يفتقر ، ولكنها استغلت سكوتي وصفحي فعملت على قتل احساس الشفقة
في نفسي .. لكم كنت اود ان تغيء انا الى نفسها وتستعيد رشدها » .
وتابع يقول :

« كلنا يخاف الشك ، لانه يمزق الصدر ، لكن متى انقلب الشك يقينا
قلب الروح .. لقد ذهب الامل يا داريا وانا اكره ان انظر اليها ، لاني كلما
رايت الرجس مجسما ، والفحش منطعا بصورة مروعة في اساريرها » .
« هذا مخيف يا كارنين » . « واخوف منه ما طلقت اشعر به من نفور
شديد من الطفل البريء اتصدقين ! لقد اصبحت انفر من ابني » .
« يا لك من شقي » . « انني اشقى من وجد ، انني التعاسة التي تفرع
منها كل تعاسة عرفها الانسان » .
« وعلى ماذا عولت ! هل عزمت على طلاقها ! » .
« وهل لي نذحة من ذلك ! الديك غير هذا الحل » .
فلاذت داريا بالصمت ، وانغمضت عينيها ثم فتحتهما فاذا بالمصوع

تترقق في حديهما ، واذا بها تقول : « لا يستعصي على مثلك البحث عن حل آخر » .

« وكيف ؟ وهل ابقى كما انا الان . هل اصبر على هذا الضيم ؟ لقد عملت الفكر طويلا ، فما اهديت الى وسيلة اخرى غير الطلاق .. ام هل تريدني ان يكون لزوجتي زوجا ثانيا ؟ » .
فتصاعد الدم الى وجهها ، واستعبرت عينها ، وانشأت تمنم بهمس :

« ما اصعب الموقف ! ما اصعب الموقف ! ثم استدارت بفتة ولففت ، وما عمت ان اردفت :

« ولكن ، ما قولك بما حرمه الله على عباده ؟ او تجيز ما يمنعه الله ؟ او تضرب بوصية الله ؟ اولتقسو حيث حثنا الله على الرحمة ؟ وماذا يحدث ! وماذا كل بها متى اصبحت بلا زوج وولد ! اترضى لها بالنهاية الرهيبة التي تنتظرها ان تخلت عنها .

« ما اكثر ما رفضني هذا الفكر ، بيد اني رايت اخيرا ان اسحق نامة الرحمة والشفقة ، وابحث عما يتغني ويخفف الي » .
« اذن ! .. » .

« منحنتها الفرصة لتتوب وترجع ، فلم ترتدع ، بل اسرفت فسي استهتارها ، ووصل بها جنونها الى درجة لم تتورع معها عن استفدام هسيقتها الى بيتها - بيتي انا - ابعد هذا كله تطليبين مني ان احجم عن الطلاق ! » . « نعم ، لا زلت مصرة على استحلافك بكل عزيز وغال ان تنزع هذه الفكرة الكريهة من رأسك » . « وبماذا تشيرين ؟ ماذا افعل لحسر ذلك » .

« الكسبي كارنين ! كن انسانا .. كن ذلك الانسان الذي عرفت واحببت كن انسانا ضح من اجل روحها الخائرة .. لا تقذف بها في العمأة ، والله بصير وسوف يكافئك وبجازيك ! » .

« وما العيلة ! انبئيني » . « فكر انت ، ولا تفرض امرك الى اليأس » .
« وطالما فكرت ، وطالما قدحت زناد الفكر ، فلم اصل الى نتيجة . على اني لا انكر فضلك ، ولا يسعني الا شكرك . انني ذاهب الان فثمة ما يضطرني الى مبارحتكم » .

« تريت يا كارنين ، ابق قليلا . ولا تهب التقاليد البالية ، بل اب الى الامام ، واظفر بنزعتك الانسانية السامية » . « تطليبين المحال » .

« بل اطلب المستحيل من شخص قادر على كل مستحيل » . .
« ألم يفعل بي زوجي ما فعلته أنا بك ؟ ألم اباقتكما متلبسين - هي
وزوجي ؟ وصممت ان ابتعد عنه ، ان اهجر بيته ، ولكن اتا جاءت مبرعة
وحدثتني حديث الرحمة ، ففنت الى نفسي وثاب الى رشدي ، وانقذت بيتي
من الدمار » .

« وكيف تشعرين اليوم ! »

« رجعت الى سعادتني بفضل انا ولن يغرب عني مهما امتد الاجل
ما فعلته وما أدته . . لقد صفحت وعفوت ، فانسج على منوالي ، واصفح
صفحا جميلا تلق عاقبة جميلة » .

فهز رأسه بشدة واجاب : « يؤسفني ان اخيب في رجاءك ، فلست
قادرا على الصفح ! لا يمكن ذلك ، فدون العفو خرق القناد ! » .
« او تخلف ظني فيك » .

« قلت يؤسفني ذلك . . وتأكدي ان اصراري لا يتم عن ظلم او طغيان
او قسوة وتحجر . . انا لا اكره شخص في الوجود ، على انها علمتني المقت ،
علمتني المقت الشديد الذي يتلفني ويستمر ! » .

وظفرت عبرة محرقة من عينيه ، فمسحها بظهر يده واستتلى . « ما
اجمل الصفح يا داريا ساعة يستحقه الانسان ، اما ان تصفحي عن امرأة
فاجرة حطمت بيتها فجريمة تكراء ، واخال ان الله تعالى لا يبارك من يصفح
عنها ! » .

وصمت فينة ثم مضى يقول : « ولا ارى فيما ابديت رأيا سديدا ، لا
ارى فيما قلت ما يقوى على ثنبي عن عزيمتي . انني اصبت مليا وصيرت
ملياً ، ولكنني مضطر الان الى ان اذافع عن نفسي حتى اطمئن في بيتي
وبلدي » .

ذهب كارنين في جولته العملية في ضواحي موسكو وفي الامكنة
البعيدة ، ثم رجع قافلا بعد بضعة ايام وهو معول على استئناس السعي
للظفر بالطلاق .

ولكنه ما كاد يستريح في الفندق من عناء السفر حتى وصلته برقية
من بطرسبرج ما ان اطلع على محتوياتها ، حتى دهش وتولاه الاضطراب ،
كما اصابه هلع شديد . فقد جاء في البرقية :

« انا اكاد ان افارق الحياة . فأقدم بسرمة ، تنال قبل فوات الاوان

لان نفسي المذبذبة لن تهجع في لحدها وتترجح قبيل ان اثال صفحك
وغفرانك .

وادخل الشك في روعه ان انا تروم خدعه ، وان حالتها طيبة لا تستدعي
القلق والخوف .

ولم يحزم امره على شيء ، بل اعاد تلاوة البرقية وتعمن في الكلمات
تري هل اصابها مكروه ؟ ان الجنين الذي حملته سقاها ابي ان يبقى ليعيش
شقيا منبوذا مقصيا ؟! انها تطلب الغفران ، افبيخل عليها بمشيئتها الاخرة ،
افخيخ رجاء امرأة محتضرة ؟

وقام لساعته فرتب شؤونته وانتظر موعد القطار فركب فيه في طريقه
الى بطرسبرج ، وهو يتنهل الى الله ان يصل قبل ان تلفظ المشغية انفاسها
الاخيرة .

ولكنه في نفس الوقت كان يؤكد لنفسه انه لن يتأخر لحظة عن الرجوع
ان اكتشف محالها وعلم انها غررت به وخدعته لحاجة في نفسها ونفس
حبيبها !

وتقابل وجها لوجه مع الحاجب ، فابتدره يسأله عن زوجته .
فأحس الرجل هامته وابتسم واجاب : انها مريضة يا سيدي ، وقد
وضعت امس مولودا اثنى .

فاستحال وجه كارنين كوجوه الموتى ، وسمر الى الارض ، والجسم
لسانه فلم ينطق .. وود في تلك اللحظة الحالكة لو قال له الحاجب :
« لقد قضت سيدتي نحبا ! » .

وعاد يسأله : « ماذا اصابها ؟ ما هو مرضها ؟ » .
قال : « لا ادري بالتمام ، على ان الطبيب لا يبارح مخدعها » .

وتقدم كارنين مطاطيء الراس يشعر بالمضض المتناهي ويكاد ان ينوء
تحت ثقل الضربات المتلاحقة ولمحت عينه في الزاوية معطفا عسكريا ، فحملق
فيه مذعورا ، وما عثم ان سأل خادما اخر عن صاحبه .

فتردد الخادم واجاب : « انه .. معطف فرونسكي » .

وللفت حوله ، وخطا الى الامام مجفلا مختارا . واذا بباب غرفة انا
يفتح بسكون وتخرج منه القابلة بثوبها الابيض . فلما شاهدته خيمته بيسمة
طفيفة وابتدرته تقول :

« لقد اثبت ، وهذا من حسن الحظ ، فهي لا تفتأ تطلبك وتردد
اسمك » .

وارتفع صوت اجهش يهيب بالقابلة ان تسرع بانبة الثلج فادرك انه الطبيب . ولولا ان حالة انا سيئة لما علا صوت الطبيب ، ودلف الى حجرة صغيرة تجاوز مخدع النوم قرأى فرونسكي جالسا على الاريقة ، وسمعه ينشج بالبكاء .

وتناهى الى الشاب المكتئب ركز خفيف فرقع راسه ووقع طرفه على كارنين فارتجف وارتعش ، وتعلمل في مكانه كأنه ينوي الوقوف ، ثم عاد فتراخى ومال براسه الى جانب .

وعاد فتنهض واقفا وتقدم من كارنين خطوة وقال : « ان زوجتك تسير بسرعة نحو الموت ، انها تحتضر .. واصارك باتي طوع امرك في كل ما تطلب ، على ان تتركني الان فلا تطردني » .

واثنى كارنين براسه كأنه لا يود ان يرى فرونسكي ، ثم عجل فتقدم من المخدع ، ووقف مرهقا اذنيه .

اصاخ كارنين ، وتناهى اليه صوت امراته . كانت تثرثر بسرعة وتهضل بكلماتها بصوت قوي التبرة . فدفع الباب برفق ودخل . فاذا بها مستلقية على مضجعتها ، وقد جحظت عينها وتضرج محياها وتدفق العرق من جبينها . وكانت تهذي بكلمات متقطعة لا معنى لها .. كانت تهذي وتقول :

« يا الكسيس كارنين .. ويا الكسيس .. واي اسم واحد لكليهما ؟ اصدفة هي أم نعمة مصبوبة على راسي ؟! الكسيس كارنين ، ابن انت ايها الزوج الرضي الخلق ؟ اما تأتي لقد دعوتك ، فانت ... انت كريم النفس ، سمح لا تعاقب ، فتعال ، ارجوك . اكاد اختنق اختنق .. اكاد اموت . اعطوني ماء . اعطوني دواء .. ماذا جرى لي ! وابن طفلي ؟ احموها من كل سوء . اطعموها . ارضعوها . ولكنه سيتعذب ساعة يسمع ويرى .. فما العمل ؟ » .

ورد عليها الطبيب وهو يمسح على جبينها اللتهب بمندبل مبتل :

« انه هنا يا سيدتي انا ، ان زوجك معنا هنا » .

فلم تع ما قاله ، ولم تر يعيونها المفتحة الا اشباحا واطيافا ومضت وهي تهذي وتقول : ابن طفلي ، حبيبتي ؟ هاتوها انني ارجب في رؤيتها .. ما باله تمنع لم لم يات ؟ وبله . انه لم يات ، فقد آلى الا يصفح عني .. انا موقنة من ذلك .. فهو شديد المراس .. يحلم كثيرا ، وبصبر طويلا .. فاذا غضب لا يستل الغضب من قلبه شيء .. حتى الموت » ..

وتفتحت عينها المنتفختان ، واثجرت الفشاوة التي كانت تضللها ،

فراحت زوجها ، واضطربت وارتعدت . صرخت بصوت مبجوح :
هو هنا ، فليعلم أنني مطعنة لا ارهب نظراته الصارمة .. اما الموت ..
اواه . ابتعد يا موت ، ابعد .. ابتعد ايها الطبيب : اصنع شيئا .. ادرا
الموت عني » .

ولم يطق كارنين صبرا ، وذاب قلبه شفقة ، فانحنى ثم جلس على
حافة السرير ، وربت على يدها الساخنة ، وامسك بها كأنه يود ان يطمئن
زوجته الى صفحه وما لبث ان اغمض عينيه .. وانبرت انا تقول :
« الا شكرا على مجيئك ، ولست ارغب اليك الا في امر واحد - هي
مفغرتك ، فاصفح عني ، اضرب صفحا عن سيئتي » .
« وقال الرجل المتالم : انا ... » .

ولكنها لم تتركه يتم ، بل تابعت : انا امضي بسرعة الى عالم المجهول،
وقد طلبتك ، وها انتلدا هنا . ولن انسى وانا هناك .. بعيدا انك كريم
رحيم متاصل في الشرف » .

وتبدلت حال كارنين ، وانتقل به الشعور من الالم الشديد الى
الاطمئنان المتناهي .. تذكر كلمات رائعة نطق بها السيد المسيح وهو يوصي
بالصفح والمغفرة ، ويحث الانسان على ان يحب حتى عدوه .. واقعم شعوره
بسمو هذه المحبة .. « احب عدوك .. احب من يبغضك » وجنا بقرب
السرير ، وانحنى برأسه حتى لامس جبينه يد انا واستخرط في البكاء .
وجمد الكل في اماكنهم مشدوهين ، وتحركت انا من مكانها فمسحت
على رأسه الخالي من الشعر بيدها . وتمتمت بصوت الظافر الجدل :
« انه صفح .. صفح .. فيا للرجل النبيل ! بيد اني اود ان اراه
ارى الشاب .. الشاب .. فابن هو ؟ دعوه الي » . وهتفت « فرونسكي ..
فرونسكي » ..

وجاء الشاب اللطاع ، وحدد في المريضة حبيته نظرة المتامل الفاحص،
ولهفت نفسه ، فاشاح وجهه وتاوه وزمجر .

ولكنها ابتدرته تقول : « ما بالك ؟ الا تصبر على مكروه ؟ الا تنظر اليه،
الى زوجي ؟ انظر اليه ، الى الرجل الكبير .. الى الملاك الطاهر » . فلم
يتحرك فرونسكي ، ولم يلتفت . وخاطبت انا زوجها عندئذ فقالت :

« ادن منه يا الكسيس ، ارغمه على الاتجاه الي بعينه » .
فامتثل كارنين ودنا الى فرونسكي ، وطلب اليه ان يفعل ما تطلب منه
انا . وقالت المحتضرة بلهجة قوية وصوت متهدج :

« الكسيس ! امدد له يدا بيضاء نقية ، صافحه .. صافحه .. » .

ولم يتردد الرجل بل مد لعشيق زوجته يده وصافحه ، وضغط على كفه . وانهمرت من عينيه الدموع .. وهتفت وهي تبسم وعيناها للمعان :
« رباة ! اني لك شاكرة ، وللموت مستعدة .. فقد صفح من كل قلبه . وصفحت انت يا ربي ! »

وانكفأت على جنبها وانغمضت عينيها ولهت لها شديدا .
خرج الجميع والياس من حياتها يقوى على الامل .
وانتصف الليل . وكانت حالتها تندهور وتنحط ، حتى ان الطبيب
جاهر الجميع بان ما تبقى لها يحصى بالدقائق .
ومضى فرونسكي الى داره حزينا مكتنبا .
وظل الكسيس صاحبنا مستيقظا مفكرا ، ينتظر الخبر المحتوم راجف الجسد .

وانقضت ساعات الليل دون حادث ، وجاء فرونسكي في اول النهار .
فحياه كارنين وقاده الى الغرفة الصغيرة المجاورة لمخدع انا ، وتحدث اليه قليلا .
ورجاه ان لا يبرح الدار فقد تطلب انا رؤيته .

وانقضى اليوم الثالث ، وطرا عليها تحسن طفيف ، فاستبشر الطبيب واعلم زوجها ان مجال الامل قد اتسع من جديد ، وان ذلك لم يتحقق منه الا باعجوبة سماوية .. ومضى يومان اخران عظم فيها رجاء الطبيب .
في ساعة الظهيرة في ذلك اليوم انفرد الكسيس بعشيق زوجته في تلك الغرفة الصغيرة واخذ يتكلم بتؤدة وتمهل .

وخيل لفرونسكي ان الزوج المخدوع يرغب في البت في امرها ، وانه ما جاء اليوم الا ليطلعها على قراره ، ولهذا عجل فقاطعه بقوله :

« يا الكسيس كارنين ، انا ميلل الفكر اليوم ، موزع النفس ، فارجىء البحث فهو يعذبني كما يعذبك » .

وتحرك من مكانه في طريق الى الباب .
الا ان الكسيس اعترض سبيله قائلا : « لا تتعجل يا سيدي ، بل اعزني سمعك فانا شديد الرغبة في احاطتك بشعوري الحقيقي » ..
وصمت فينة ثم مضى يقول :

« كنت قد اعترمت الطلاق ، وخالك سمعت بما صممت عليه . وقعت بالاجراءات الاولى تمهيدا لاعلام زوجتي بالدعوى ، ومع ذلك كنت خائفا انتردد وافكر وانحجر .. ولما وصلتنى برقيتها بخبر وعكثها ، لم تتبدل حالتي ، بل عدت ادراجي ورغبتني في الانتقام لا تزال تجيش بها نفسي .. ثم جرى ما جرى وائر علي الموت المائل ، فتذكرت وذكرت ، واخذت العبرة ،

واهتديت الى سواء السبيل - وعفوت ، اجل عفوت .. وللصفح يا صديقي
وقع عظيم على النفس انه مصفاة الادران ، ولدة النفس الكبرى ..

« لقد ضاقت نفسي بالدنيا ، وصغر الانسان في عيني ، رايت كل شيء
حقيرا ، الا السانعة التي تستمدتها من قوة الخالق - اية سانحة .. الشعور
الجميل ، المغفرة ، كلمة الدين - وآليت ان اتقبل الصفعة كما تقبلها هادي ..
ان زوجتي مذنبية . ولكني لا املك عقابها ، واني اذ افعل هذا ابتهل الى الله
ان يديم لي هذا الشعور الجديد الحميد ! » .

وانحدرت مدامعه على وجهه ، وتجمست المهابة في تقاطيعها ، حتى
دهش فرونسكي وتولاه الدهول .

واستطرد كارنين يقول : « ولك ان شئت ان تضاعف كيل المهانة ،
فانا بعد اليوم لا آبه لشيء لك ان تذلني وتقهرني وتجعلني مضغة الافواه ،
بيد اني لن اتخلى عنها ، سأعنى بها ، حتى النهاية ؟ » .

وحلقق فرونسكي في وجهه مشدوها لا يقهم ولا يمي .

وانم كارنين حديثه وهو يطرق مستسلما :

« يخلق بك الان ان تلوذ ببيتك ، ابق هناك وانتظر الكلعة فربما شاءت
ان تراك ، ربما بعثت في طلبك ! » .

وتبادل الرجلان نظرات غير نظراتهما الاولى ، وخامر قلب فرونسكي
احساس بالضعفة والهوان ، ورأى نفسه قرما امام الطود المتعالي .

ان كان شيء ينطق بالذنب ، فوجه فرونسكي كان ابلغ ناطق بلذنب
ساحه .. فقد اندفع خارجا ، وهو يتعثر ويقول : « وبلاء ! علام يصفح
هذا الرجل ؟ انه لو اراد الانتقام لما تألت .. ولكنه وقد صفح ، تبينت اني
على ضلال .. فيا ايها الحب المستبد لقد جعلت صدري يزرع تحت حملك
الثقيل ! » .

وتحمل الصدمة التي اعقبها صفح كارنين ، وفي قلبه نار تتأرجح ،
كيف يعفو الرجل ، وقد لحق به ما لحق من الغار ! ؟

وتساءل في عيني ذاته ، ويبحث عن كرامته فلم يجد كرامته .. وتساءل
على مضض كيف سمح لنفسه ان يفقد الشرف والعزة ..

ونظر ببصيرته الى كارنين وقال : « اكرم به من رجل كيف تتصرف
عن نفسه البقضاء .. كيف تتحول روحه الى النواحي الرائعة .. ان في
جسده عناصر قيمة نادرة !

عنف نفسه على ضعفها ، وقرعها على تهافتها ، ولكنه لم ينم .. وقارن

بينه وبين كارنين ، وود لو قضى نجه على النو .
انه الضمير المعدب .. لقد انفصل الضمير عن الجسد ، وجعل يبحث
في الحقائق ، ويسبر غور الصالح والطالح .. حتى بغض فرونكي نفسه ،
وحتى ايقن انه يعيش في وهم لانه ضعيف ضعف الاندال ، ولانه لا يملك
سلطانا على شهوات نفسه .. وخيل اليه . وضميره بسوطه بشدة ، انه
صرصار يعيش من ابخرة النش والاقذار .

ان الطمع فضيلة في كل حين . وهو مهلكة متى تنازعت صاحبه مشاعر
الخوف ، ومتى رأى صاحبه ما يذكره بالنهاية . وما يكشف له عن حقائق
ثبت امورا غامضة تحسر القناع عن وجه الحياة .
ووثب من مكانه كمن لدغته افعى ، وصاح :
« وهل اموت ؟ وهل اقتل نفسي ؟ » .

وعاد فانطرح ثانية على المقعد وهو يتمتم : « كلا .. كلا .. فلدي امور
اخرى .. فأتا في اول عمري ومستقبلي باسم زاهر ، والجيش يربطني ،
والبلاد يطليني ، والمجتمع يرغب في وجودي ، فلأنم لانم » .
ولكنه لم ينم .

وتناول من الدرج شيئا اسود ضخما . ومزق السكون دوي شديد .
وترنح .. وترنح .. وسقط ..
لم يكن الكسيس كارنين ليؤمن بشقاء زوجته ، وقد رآها مشفوية
تكاد تلفظ انقاسها .. ولهذا سارع بالوقوع في الغلط ، نصفح وعفا ، وقد
داخل نفسه من توبتها اعتقاد وبقين ..

واتضح له غلظه بعد ايام كثيرة ، رأى غلظه بشعا ، وسمعه يصرخ في
وجهه : « يا وبلك » .

ولكنه ما كان ليملك نفسه من الصفح عنها ساعة شاهدها تبكي من
الندم وتتلوى من الالم .. ما كان ليستطيع غير ذلك وهي مسجاة امامه
على فراش الموت ، وقد ذرف معها الدمع السخين ..
وما عثم ان غفر وعفا ، واحب ابنه ، وعنف نفسه على تنكره له ، وزاد
على ذلك فحبا الطفلة بعطفه وحنانه ، واحبها واعتنى بها .

لقد ولدتها امها سفاحا ، بيد انه اشفق عليها لما رآه من صغر حجمها ،
وضعفها ، ولما سمعه من بكائها .. كان قويا يشعر بقوته ، وكان انسانا
يشعر بضعف غيره ، لهذا كانت شفقتة على الطفلة عظيمة لا تضاهيها
شفقة .

والعجيب في امر هذا الرجل ، انه شعر بالهناء وشفاء النفس وراحتها

ابان خلوته بهذه الطفلة .. وامعجب من ذلك وجود الطفلة كان يستل اي شعور بالحقد والموجودة قد بداخل قلبه .

على انه كان يعلم ان مضيه على هذه الوتيرة امر له نهاية ، فعلمه لا يستطيع ان يقطع الصلة بين شعوره وشعور سواه ، وهو انسان من لحم ودم . ولا بد ان تراود نفسه ما رواها من الفل كلما فكر بزوجته وخيانتها . وكان يتراعى له ان امرانه تختلس اليه نظرتها الموجلة ، وتشيح بوجهها عنه كلما حدق في اساريرها ، كان يتراعى له انها تود ان تقضي اليه بما يعتمل في صدرها ، ولكنها لا تلبث ان تحجم خوفا ومهابة !
وطغى عليه الهم من جديد .. وجاء مرة الى بيته ، فلمح في زاوية الملابس معطفا لينا ، فدعا الخادم وساله قائلا :

« لمن هذا ؟ من في البيت ؟ »

فاجاب الخادم : « انه معطف الاميرة بتسي يا سيدي » .

وصمت كارنين ، ولكنه لمح شبه ابتسامة واهية ترتسم على فم الخادم لتتلاشى بسرعة خاطفة ..

وتساءل : الا من نهاية لهذه الحالة ؟ اما من خلاص لليوس ؟ ان الجميع طفقوا في الاونة الاخيرة يعنون به وبزوجته .. بل انهم كلهم جعلوا يتتبعون اخبارهما ، ويلغظون ثم يهزون الرؤوس ؟ ويلوحون بالابدي .
افليس لهذا الامر نهاية ؟ او يقدر على الاستثمار ؟

ولما اخبره الخادم ان الاميرة بتسي موجودة في البيت زاد الم نفسه فهو ينفر من هذه المرأة .

ولم يجد مندوحة من تقبل الامر الواقع ، فتقدم من غرفة زوجته وطرق الباب ودخل .. ولكنه قبل ان يفعل ذلك تناهى اليه كلام يقال في الداخل ، وسمع دون ان يسترق السمع ، صوت الاميرة بتسي تقول :

« هذا هراء لا معتمد عليه يا عزيزتي .. فكيف ترفضين ملتصق رجل يحب ؟ كيف تسول لك نفسك مثل هذه القسوة ؟ ان فرونسكي يزعم ان يرحل من بطرسبرج ، وهو يرغب قبل رحيله في مقابلتك والتحدث اليك - لآخر مرة - فلا ترديه خائبا ، لا تفعلني ذلك في الوقت الذي اشعر فيه ان زوجك نفسه لو سئل للبي طلبه دون تردد ! » .

وسمع زوجته ترد قائلة : « وهل تظنين اني اتجاهل طلبه لكي اوفر على زوجي ما قد يكابده من الالم ؟ الا فاعلمي اني ارد هذا الطلب من اجلسي انا ، فاعلمي يا بتسي عن هذا الكلام ؟ اقلعي ناشدتك الله » .

« ان هذه القسوة لا مثيل لها ؟ اتصفعين وجه رجل ضحى بكل شيء وحاول ان يقتل نفسه ؟ »

« وهذا ما يجعلني امر على تجنبه » .
 ورن عليها الصمت حين دخل كارنين . ونظرت المرأتان الى الوجه
 المتفطن المنقبض وبقلق وتوجس .
 وما عمت انا ان حيثه بايعة . اما بتسي فرعان ما استعادت
 رباطتها ، فقالت ساخرة : « هذه نعمة كبرى فانا لم اكل عيني بمراك منذ
 زمن طويل .. فماذا حبسك عني ؟ » .
 فلم يمن عليها بالرد .. ولكنها اتمت قائلة :
 « ما اكبرك ! وما اكبر نفسك ! اطلعت على جلية الامر ، وعلمت من
 مسائلك ما ملاني اعجابا بشجاعتك ! »
 ونكس الكيس رأسه ، وانحنى فلتش زوجته ، وطرح عليها بعض
 الاسئلة مستفسرا عن صحتها في تكلف من يقوم بواجب كربه !
 ولما طمأنته بأنها في احسن حال ، وانها تشكر له غيرته واخلاصه هز
 رأسه وقال : « ولكن عيناك تبرقان وتشمعان ، « يخيل الي انك ما زلت
 مريضة لم يفارقك وصبك ، ولم تتخل منك الحمى الملعونة ! » .
 واتبرت الاميرة بتسي تقول وكأنها تعنف نفسها ، او كان الامر يعينها
 قبل ان يعنى سواها : « قد اكون الملوثة على ذلك ، فربما ارهقتها بحدِيثي ،
 ولا عجب لمودتي ومحبي تشفعان لي ! » .
 ولما لم يبد من الرجل اي جواب ، تحفرت للنهوض وهي تتمتم
 قائلة :

« وارى الان ان اذهب في سبيلي » ..

فهتفت انا معترضة :

« لا .. لا تدهبي يا عزيزتي ، فلا بد لي من اطلاعه على جلية الامر » .

وشعر الكيس بأنها تريد ان تقول شيئا .

واردفت انا موجهة الحديث اليه :

« واعلم ان الكونت فرونسكي اعرب عن رغبته في القدوم الينا اليوم

قبل سفره الى الخارج ، وهو لهذا ارسل صديقتي بتسي » ..

واستطردت : « على اني رفضت ، ورجوت بتسي ان تنهي اليه

قراري » .

وسارت بتسي تقول : « او على الاصح اتناطت مسألة البت بالموضوع

لزوجك الكيس كارنين ! » .

وقالت انا محتدمة : « هذا محال .. ولن اراه مهما كانت الاسباب ،

ومهما كانت النتائج ؟ » .

ونظرت الى زوجها متأمل ، والقت رأسها على الوسادة منهوكة وتمتمت
بضعف وخور : « لن اقبله ، ان ما مضى قد انقضى .. انقضى » ..
وخطا الرجل ونفرت انا من لسته ، وودت لو سحبت يدها من يده ،
بيد انها احجمت وتمالكت نفسها ..

وتكلم الرجل المتعلق بخيط واه من الامل في عودة الرشد ، فقال :
« هذه اصالة ، واني اشكر لك تمعلك » .

وتحول بناظره الى بتسي ، واختلجت اهدابه ، وكانه يريد ان يقول
شيئا ولكنه لا يستطيع لوجودها .

كان كارئين يعتبر بتسي امرأة خارجة على العرف .. كان ينظر اليها
كانها الجبروت والقسوة ، وادركت ما خالجه انذاك ، فالتصبت واقفة ،
وقالت :

« انا ذاهبة يا حبيبي انا . وسأمرح عليك فدا ، فالى اللقاء القريب » .
وغادرت المخدع ، ولكن الكسيس هرول وراءها ، ثم استوقفها .
ولعله كان يروم ان يرفع النقاب لها عن حقيقة ما يعتمل في صدره نحوها ..
ولكنه تردد .. وما عتمت ان رأت ترده ان قالت :
« انت رجل بكل ما في كلمة الرجولة من معنى .. انت رجل ذو قلب
واحساس فانت انسان » ..

انت كبير يا الكسيس في كل شيء ، ولهذا اجسر فابثك نصيح صديقة
مخلصة ، فذرها تقابل فرونسكي دعها تجتمع به .. وهو ان كنت لا تعلم
ذاهب الى مكان ناء سحيق ، الى مقاطعة « طاشقند ؟ » .

فحدجها بنظرة صارمة لائمة واجاب : « ما افلى نصيحتك ، وما اجدر
الانسان باتباعها بيد ان زوجتي كما يتراءى لي ، هي الانسان الوحيد الذي
يملك حق البيت في الموضوع ، افلا توافقين ؟ الا اقول الصدق والصواب ؟ »
فعمجت المرأة وتولتها دهشة . ولكنها شمعت بمجرها ، بل احست بالرهبة
والخوف ، فعمجت بالذهاب ، واندفعت من الباب لا تلوي .. اما هو فقد
عاد ادراجه الى مخدع زوجته .

فلما دخل المخدع راي علائم القلق تتجلى بوضوح على امانرها ، ولمس
الدموع تبلل خديها ، فخطبها ملاطفا : « كنت عاقلة اليوم يا انا ، فتقبلي
ثنائي ودعائي .. انت ما زلت صافية التفكير فهو مسافر عن قريب ، ولا
حاجة لرؤيته ! » .

فبترت المريضة الناهقة منغلة : « الم اقل هذا ؟ فلم التكرار اذن ؟ »
وفكرت قليلا . ورات فرونسكي بعين خيالها ، وخفق قلبها ، وناجت

نفسها الواهية : « انه ذاهب الى بعيد فلن احدثه .. انه مسافر ، فما جدوى الاجتماع به ؟ الا تنكأ المقابلة جرحا اندمل ، وتبعث اسى اخف وشجا ؟ ولكن ، الا احبه ؟ وهل يخلق به ان يفادر الديار دون ان يودع المرأة التي تتيه فيه ، والتي سيجرقها الردى شوقا وتدلها ؟ »

وصعدت ناظرها المستعبرين في وجه زوجها فعاودها بالاشمئزاز عنيف جارف .. وكادت ان تتمرد على الاوضاع . كادت ان تصيح بملء فيها :

« ويلك ! اخرج ! اغرب عن وجهي ! » .

ولكنها قالت بصوت خافت : « الا ، انه الحديث في هذا الشأن ، ودع الامور تجري في طريقها المرسوم » .

قال : على اني اذكرك برائي ، فانت حرة في كل ما تفعلين » .

« لن اعدل عن قرار اتخذت ، او انقاض وعد قطعتم ، فاقصر ارجوك ! » .

ودهنى كارنين - انها تتكلم معه كما تتكلم مع خادم حقير ، انها نافذة الصبر ضيقة الصدر .

يا للرجل الذي قصمت ظهره امرأة !

خرجت بتسي وتلفتت حولها باحثة عن عريتها . ولكنها رأت وجهها نعرفه ، وما كادت تتامل فيه حتى الفت لتلقاها اوبلنسكي .

وبادلها الرجل النظرات وهتف بعد ان تبينها وادرك هويتها : انت هنا ؟ انت ابنتها الاميرة ؟ هذه ساعة حظ وسعادة ، وما كنت لاحظي بها لو قصدت لقياك .. »

وكان اوبلنسكي قد اطرته بعض الاعمال الخاصة الى الحضور الى بطرسبرج .

واجابته الاميرة بتسي ضاحكة مستبشرة : « وماذا جاء بك ابها الصديق اعطى موعد انت - موعد غرام » .

فبادلها ضحكتها ، ثم انحنى فلقم يدها واجاب : « انتي حقا على موعد ، ولكن ، موعد عمل وبلا لاسف » .

« فاذهب اذن » .

« ذريني اراك ، اريد ان اجتمع بك » .

« ومن انباك اني ارضى باللقاء ؟ » .

« نحن صديقين ، والاصدقاء يرغبون في تدليل كل صعب » .

« ولكنك خطر » .

« انا انتي رجل منهك في العمل ، اني اب يداب على خدمة اولاده ، ثم

أى علاوة على ذلك اضني بالبحث عن حلول لمعضلات الناس !
ونظر إليها نظرة ذات معنى وأومض بعينيه ، فأيقنت المرأة انه يشير
من طرف خفي الى شقيقته أنا وزوجها ، فقالت باهتمام : « هذا جميل .
ثم باللازم ، افعل المستحيل حتى تزيل كربها وترفع عنها وقر غمها » .
وصافحته . وانحنى بلثم اليد البيضاء ، وانثنى مصعدا الى بيت
شقيقته وهو يتسم وقد نسي همه !

ودخل مخدع انا فقبلها قبلة الاخ الحنون ، وسألها عن حالها .
فاجابته وهي تدمع : « ما اشقى شقيقتك يا عزيزي ! ان صباحي كظهوري
ومسائي . اما ليلى فهو المصيبة التي لا اخلص منها .
فهددها عاتقا وقال : اهدئي وكوني كعمدي بك صابرة قوية
العزيمة . ثم تشجعي وابتسمي للحياة ، ولن تعتم الحياة ان يتسم لك بملء
فيها » .

« بيد ان شقائى لحالة نفسية طارئة ، فقد سمعت ..
فقاطعها متعجلا : « لا يهمني ذلك بقدر ما يهمني حالك » .
ثم ، ثق يا اخي اني اكره زوجي من كل قلبي .. اكرهه .. او تدري
السبب ؟ اكرهه لانه مستقيم ! اكرهه لانه فاضل ! اكرهه لانه يرحم
ويعفو ! .. » ماذا تقولين ! » .

« اجل اكرهه لهذه الحسنات ، ولا اكاد اطبق النظر الى اماله » .
« المسكين ! وقد اذاك ؟؟ »

« نعم ولا .. كل شيء كان بهون غير صعته .. كل شيء الا هذا
الهدوء .. هذا الغموض .. ان نفسه غامضة مبهمه .. انه مخيف !
ولكن .. » .

« ولكن ماذا .. ماذا بعد ولكن .. لم اسمع برجل في مثل نبله ، لم
اسمع برجال يتحمل ما تحمله ، واني ان قورنت به ، خرجت بصفر كامل !
ومع ذلك فمقتى لشخصه لا حدود له ولا حدود ! انا ندلة ؟ ام انا احقد على
كل من سقتنى في شرفه وخلقه وصفاته ؟ » .

« فهاج وحده اوبلنسكي ، فرفع اليها يد امرأة وقال صمنا ، صمنا فانت
تهذين ، انت مستضعفة اضناك المرض . وقت في عضدك السقم » .
« كلا ، بل دعني اكلم » .

« غير اني لا ارى فيه ما تربته با انا » . ولم لم يتركتي وشائني ؟ له
لا ينبلني حتى اعرف اين انا ، واين اضع قدمي ؟ وكيف احيا ، وكيف
انفسي ؟ اتعلم اني اكاد اختنق ؟ !

« هراء .. هراء .. بل انك تهذين يا انا .. وقد اعمتك حالتك فلم
تعودي ترين الا الناحية المظلمة من حياتك .. اما يخلق بنا الان ان نحلل
العقدة ؟ فهلمي نحلل الامور رويدا رويدا » . « افعل ما بدا لك » .
« لقد بنى عليك رجل حياته ولكن يزيد منه كثيرا عن سنك ، ورغبت
انت به دون ان تبادلوه عاطفة الحب ، بل اقتربت به ونفسك عن الحب
بعيدة » .

« اصبت ، وقد اخطأت فيما فعلت » .

« وما نفع التفجع لخطأ لا سبيل الى ملافاته ويترتب علينا الان ان
نستمر في عرض صفحة حياتك - لقد تبع ذلك شيء طبيعي ، فأغرمت بشباب
بضاهيك سنا وحسنا .. وهذا ايضا خطأ لا يتدارك » .

وهزت اثارها موافقة .. واستأنف يقول :

« واكتشف زوجك الحقيقة فأغضى ثم غفر . فهل لك ان تصبري
على ما وصلت اليه ؟ هل يمكنك ان تعيشي في كنف رجل غفر رغم الاساءة ؟
« اواه ! اني انخط في لجة الحيرة » .

« الم تقولين منذ لحظات انك تفضلين الموت على الحياة معه » .

ولم تجب انا .. واردف : « الم تقولين انك تمقتينه ؟ » .

فصاحت : كلا .. كلا .. لم اقل .. ولو فرضنا اني قلت ، فليست
في قولتي الا مغالية .. او اي اهرب بما لا اعرف ! » .

« فلاشرح لك الامور » .

« كفى ، فلن افهم كلمة ، لقد ارتبك تفكيرى .. ووقفت على جرف
هاوية سحيقة الغور .. ولن انجو » .

وما ادراك ان الحيلة تعجز عن النقاذ ؟ اليس في وسعنا ان نتلفك في
منتصف الطريق الى الغور السحيق ؟ فابيني عن حقيقة مشاعرك ، اكشفي
لي كل شيء ، قولي ما تريدن ! » .

« لقد تجمد شعوري وتحجر احساسى ولم تبق لي غاية ، ولم يبق
هدف ! » .

« ولا جرم ان قرانك يتالم من هذا الشعور ايضا ، ولا بد والحالة هذه
من انتهاء الامر ، علم تلجان الى الطلاق ؟ » .

فأطرقت واستفرقت في الفكر . ونهض وخرج وهو يقول : ساجتمع
الان اليه . فمسي ان يوقني الله الى ما فيه مصلحة الطرفين !

خطا اوبلنسكي داخلا ، فلما وقع طرفه على وجه كارئين المنجهم فارقت
شجاعته ، وتولته حيرة عظيمة . ولكنه استجمع شئنا عزيمته وخاطبه
متلعثما :

« أخاف ان حدثتك قليلا ان اتقل عليك يا الكسيس » .

قال : « قل ما بدا لك .. » .

« أجل ، أريد ان اقول شيئا .. » .

« هات ما عندك ولا تنردد » .

« اني احب انا شقيقتي ، واشفق عليها » .

ولما لم يحر كارنين تابع يقول :

« وارغب رغبة صادقة في مباحثتك بشأن شقيقتي هذه ، وعلاقتها

الشاذة بك كزوجة » .

وسعد كارنين نظرا حزينا في وجه محله ، ثم اغضى بعينه واخذ

عن المكتب ورقة مد بها يده اليه وقال : « اظن ان في هذه الورقة ما يغني

عن كل كلام ، فاقرأها .. اتا شقيقتك سئمت من زوجها ، وبرمت بطفلها ،

وكرهت الحياة المستقيمة - فلم اجد مندوحة من كتابة هذه الرسالة اليها » .

وتناول اوبلنسكي الورقة ، ثم نظر الى كارنين ، وما لبث ان اتهمك

في القراءة .. وقد جاء في الرسالة :

« ان الحياة صعبة ، وانت كما ايقنت لا ترغين في قربي ، انت تكرهين

زوجك ، وهذا يحز في صدري ، ولكنها الحقيقة .. » .

لقد ألمت بك وعكة شديدة انحلت من وطائها قواك ، ولا انكر اني مت

فرقا حينما رايتك تتهاقتين من السقم وتنهارين من الاعياء . وانني بعد ان

شاهدت وصيك عاهدت نفسي على نسيان الماضي ، وقررت ان اقلب

صفحة جديدة من صفحات حياتنا . ولم يداخلني ندم على ما وطدت العزم

عليه . وما شاب احساسي حيرة على ضعف قلبي ، فقد شئت ان اعطيك

فرصة التوبة ، كما شئت ايضا ان اغسل ادران الماضي واقذاره . بيد

اني اخفقت وبؤت بالفشل .

انني الان انتظر ردك ، فقولي ولا تخفي شيئا - قولي ماذا يسبب لك

الهناء والعيش الرضي ؟؟ وتقي اني ابي طلبك ، واقوم بالمستحيل لاوفر

لك السعادة وهدوء البال ! »

ومد اوبلنسكي يده ببطء وارجع الرسالة الى كارنين . وحدث فيه

غير مصدق ، وناجى نفسه ، وتمتم ، وتمتم ، ولكن الكلمات لم تخرج

واضحة من فمه . وراى على الغرفة سكون رهيب . وما عثم كارنين ان

خاطب صديقه قائلا :

« اوصيت معنى كلماتي ؟ افهمت مغزى عباراتي ؟ »

قال : « أجل لقد قرأت وفهمت .. فهمت كمالك ، وفهمت شخصيتك

وجبلك » .

« ألا ترى معي أنني طلبت منها أن تحبطني علما برغبتها حتى أستطيع أن أخدمها وأبذلها ما تصبو إليه ؟ »

« على أنها كما أتق شاردة كمن طارت نفسه شعاعا ، أنها موزعة الفكر مربكة ، وأخال صفحك عمل على مضاعفة وله نفسها . وسوف تزيد هذه الرسالة من أشجانها ، لأنها ستضاعف من علوك ومن انخفاضها »

« صدقت .. فما العمل إذن ؟ وكيف أتصرف ؟ »

« أحسم الموقف ، لا تتردد ولا تتريث ، فانت وحدك الشخص الذي يجدر به الفصل في هذه القضية . »

« أتريد مني أن أنهى المسألة ؟ قل .. على أي وجه ، في أية صورة ؟ قل .. تأسدتك الله ! »

« ألم تعزم منذ زمن على فصم زواجكما بالطلاق ؟ فان بدا لك الآن ان الطلاق هو الحل الاوحد ، فلم لا تلجأ إليه ؟ »

« أنتي على قدم الاستعداد لكل ما يرفع عن كاهلها العبء الثقيل . »

« اعلم يا كارنين ان الزواج متى انصدع لا يربأ ، وان علاقتكما اضعفت كالزجاجة المنحطمة ، فبنا في الامر بالفراق ، واحسنا المشكلة بالعباد . »

« أوضح يا صاح ؟ »

« اعني ان الطلاق هو خير علاج ، فأجنع اليه . »

« ونفس كارنين الصعداء ، وزفر زفرة محرقة ودفن رأسه بين يديه . »

« ونهى أولنسكي كلامه بقوله : « فان لم يفكر أي منكما بزواج ثان فيسهل الامر ، وتصبح انا حرة وتزول احزانك وآلامك . »

« ان شقيق زوجته يرى في الطلاق خلاصه وخلاص انا : فهل الطلاق حقا هو الحل الاوحد ؟ كلا .. كلا .. شقيق زوجته يرى هذا ، ولكن ، لشقيق انا الحصافة والعقل ؟ انه لم يدخل في حسابه مثل ما ادخل كارنين ، ما يقتضيه الطلاق من اجراءات واعمال لا تجر عليه الا الفضيحة والشهير . اليس الزوج مطالبا بالاعتراف جهارة وعلى ملا من الناس بخيانة امرائه ثم الا يقصر الزوج على المثول امام القاضي والاعتراف بما رأى وبما سمع ؟ بل الاعتراف بان المولودة الجديدة هي ابنة السفاح والزنا ؟ ! »

« لا .. انه لا يقدر على هذا الامر ، ولا يقوى على اتهام انا : فقد احبها حبا عظيما . وقد تدله بها .. ثم ، ألم يفكر لها وهي تقاسي المرض ؟ وولده .. وهل فكر هذا الابله - أولنسكي - بولده ؟ ابتركه لأمه حتى تقضى عليه وعلى مستقبله ؟ »

ولو فعل ذلك أبقى ابنه حامل لاسه ، أم تبديل المرأة اسمه
تكتابة به !!

وهتف كارئين بصوت متحشرج : « ماذا فعلت ؟ ارتكبت حتى أمني
بكل هذا الشقاء ؟ ما هي جريرتي حتى يعاقبني الله هذا العقاب ؟ آواه !
وانكفا بوجهه على المتضددة وهو ينشج !

واستلنى أوبلنسكي : « لشد ما اشعر معك ! لشد ما اتالم من اجلك !
ولكن .. ولكن .. ما العمل ؟ اني مثلك اقلب على وقد الحيرة ! »

ولم يحرك كارئين ساكتا ، ولبت يفكر - لقد استغرق هذه المرة في
فكر هادئ ، رصين ، كان يفكر بالقول المأثور - من صفحك على خدك الايمن ،
فأدر له خدك الايسر ! كان يفكر بالحلم والصفح ، ويفكر بالمغو والمغفرة ..
ولكنه زمجر على حين غرة - وكان الصوت كأنه غير صوته :

« ليكن ذلك .. سوف اسمى الى الطلاق .. وسوف اتركها واترك
ابني ! »

وهتف أوبلنسكي بقول بصوت متهدج مبسوح :

« ما اسمي عليك ، وارق شعورك يا الكسيس ! »

ولم يحرك كارئين جوابا ، فقد كانت صراته تترقق في عينيه وتجمع
في أنفه وفمه ! واستلنى أوبلنسكي وهو يتحضر للذهاب ، « ما أعظم المأساة !
ولكنك برهنت لي على أنك اصلب عودا من أن تحطمك التكبنة وتسلب
حجلك ، وتحرمك من نيلك وكرمك وروعة احساسك ! »

ومضى الرجل في سبيله .. وسرعان ما افترت شفتاه عن ابتسامة
الظافر المنتصر .. لقد نسي الرجل المتالم ، ولم يعد يذكر إلا نجاحه في
مهمته .. فها هو كارئين يعزم على الطلاق ، وها هي اتا ترتاح من عداها ،
وتبتعد عن زوجها !

وانشأ يحدث نفسه : « ألم اكن ماهرا ؟ »

انحر فرونسكي .. لكنه لم يمت ، فقد ارتعشت يده بالمسدس ،
فالتجرفت الرصاصة ولم تصب منه مقتلا ..

إلا ان الرصاصة اخترقت جسده واستنفوت دمه ، ولو لم يسارع
ذووه الى نجدته لما بقيت منه قطرة ، ولقضى بعد ساعة نجبه ..

فتح فرونسكي عيناه الدابلتين ، وتلفت متعجبا ، فرأى زوجة شقيقه
متكئة عليه وهي تعني به وتضمد جراحه بحنان ، فسارع يقول :

« اي فاريا ! كنت أعث بالمسدس فانطلق من تلقائه .. افهمت ؟ لقد
انطلق قضاء وقدرأ .. »

فهزت المرأة رأسها وابتسمت وربتت على جبهته ،
ومضى يقول بصوته الواهي :
« احلري يا فاريا ! فانا لا اريد ان يلغظ الناس بقصتي ، ويتساءلوا
عن السبب ، لقد اصبحت وانا اقلب السدس » !
فقالته وهي تضحك قليلا : « على ان تمدني بالا تنطلق الرصاصه من
تلقائها مرة ثانية ! »

وزال عنه الخطر بعد ايام ، وفارقه ذلك الياس المرير الذي انتابه
على حين غفلة ! وخيل اليه ان دمه ابرا شعوره ، وان عاره قد غسله هذا
التقيع الذي نرف من قلبه ! كما خيل اليه انه يستطيع الآن ان يمسي
مرفوع الرأس بين الانام وان يحرق في العيون دون وازع من خجل او
حياء ..

لكنه ما زال يحب انا وما زال يشعر نحوها بتلك العاطفة الملتهبة .
ولما مرض عليه اولوا الامر منصبا رفيعا في بلاد نائية ، هي ولاية
طشقند لم يتردد لحظة ، بل وافق على الاضطلاع به فوراً .
ومضت الايام ، واقترب ميعاد سفره ..
غير انه كان يتشوق الابصار الى لقيائها ، كان يتلف الى الاجتماع
بها ولو مرة واحدة قبل رحيله .

وما كان منه الا ان كاشف الاميرة بتسي برفيته ، سارعت الى انا
تطلعها على ما يطعم فيه فرونسكي . فلما تمنعت انا ، وعلم فرونسكي بما
كان قال للاميرة ، وهو يظهر الصبر والتجلد وعدم الاكتراث :
« عسى ان يكون في هذا كل الخير لي ولها ، فمن يعلم ، قد تخوتني
عريمتي لو اجتمعت اليها ! »

وجادته الاميرة بتسي بعد يوم لتزف اليه بشرى ما عزم عليه كارنين
من طلاق زوجته - وكان اوبلنسكي شقيق انا قد اطلعها على فحوى حديثه
مع كارنين . فنهض فرونسكي وتوجه لساعته الى بيت محبوبته وهو لا
يكاد يظن الارض تبيها ومعجا .

وما عتعت انا ان قالت : « انا الآن لك يا حبيبي ، انا لك الى الابد ،
فاصنع بي ما تشاء ! »

فاجاب بصوت ينضح حيورا :

« ابي حلم انا ؟ هل اصبحت لي انا دون منازع ؟ »

قالت : « هو ذاك ، الا ابي سافعل ما اريد دون ان انتظر منه بادرة

من احسان سافعل ما يحلو لي ، وليكن رد الفعل ما يكون .. ان طلقني خيرا يفعل ، وان ابي غادرته .. ولا يشغل بالي الان الا مصير ابني « !
ووجد اخيرا في نفسه ما يقول : فخطبها بصوت حنون : « لا تجزعي نفسك الان يا انا ، فقد ركبتنا الاهوال في حبنا وتجنبنا الاخطار ، ولا يصعب علينا بعد الذي قاسيناه ايجاد الحل اللامس .. اما الان ففكري بسعادتنا ، فكري بهناتنا ، واعلمي اني لا ارى في الدنيا شيئا كالرضى ..
فارضى واستشري « !

فاجابت وهي تعانقه : « ان حسن الثقة بك يؤنسني يا فرونسكي ، وها انا ارضى بما صار اليه امري ، وسانتقل من بيتي معها كلفني الامر ... » .

وصمت بغتة ثم هتفت بصوت المتذكر المتألم : ليتني مت ! ليتني مت !
مت ! «

قال : « حنانيك يا انا ! لم كل هذا التقلب من حال الى حال ؟ لم تسلمين نفسك الى الموت من غير ضرورة تدعوك الى ذلك « !

قالت : « لقد فقدت الصواب يا حبيبي ، ولم اعد ادري في اي وقت ينبغي لي ان اتكلم او اصمت .. لم اعد ادري متى يخلق بي ان احزن ، ومتى يجب علي ان اجدل ! انني مجنونة .. « وهمرت الدموع من عينيها ، وضمت فرونسكي الى صدره ، وقبلها مرارا ..

رجع فرونسكي الى منزله ، فكتب يرفض المنصب الجديد ، ولم يابه لما يسبه رفضه من اضرار ، وكان همه نيل مبتغاه !
وغادرت انا بيتها .. هجرت زوجها .. هجرت ابنها .. هجرت سعادتها ..

هكذا افترقت انا عن زوجها وذهبت مع فرونسكي الى اوروبا ، وانتهى بها المطاف في ايطاليا حيث صرفا شهورا ثلاثة زارا خلالها المدن الايطالية الشهيرة كروما وناپولي ، والبندقية وغيرها .
ولم يلبث ان اخذنا لهما مسكنا في مدينة صغيرة هادئة وعاشا في نعيم من الحياة .
كان نهارهما يبدأ بالسعادة وينتهي بالهناء .. كان نهارهما تشرق في سماءه شمس الانفاق والصفاء والمحبة .

وما ذكرت انا في الايام الاولى شيئا عن كلرتين او عن ابنتها سيرج .. كانت تخشى الذكريات ، كانت تخافها ولا تود ان تفكر . ثم ان السعادة التي قطفت ثمراتها اليائمة كانت عميقة ، فاشت حتى غمر قلبها واحساسها وعاطفها .
كان الماضي في رايها حلما مفرغا .. وكانت الذكريات اضغاث احلام ..

وقد استيقظت الآن فالفت نفسها تعيش في كنف فرونسكي ، وتتم معه
بالحب والوجد والصبابة .

واعترفت فيما بينها وبين نفسها ذات يوم انها مصدر شقاء لزوجها :
ولكنها هزت منكبها وقالت : « وما نفع التندم ! الست مصيبة في قراري
منه ! ألم او فر عليه ضعف ما فيه من اسي » !!

وناجت عقلها في يوم آخر بقولها : « ومع انه فقد الكثير ، الا ان
خسارتي اجسم واعظم .. لقد خسرت ولدي .. ثم خسرت شرقي وكرامتي !
واستعاضت بحب ابنتها من فرونسكي على حبا لسيرج ، فتعلقت
بالطفلة تعلقا شبه بالسعادة .

وذعبت معه الى اوروبا . واقام الانسان في ايطاليا . ولم يطلقها
زوجها ..

فقد رفضت هي الطلاق حتى لا تشعر بانها مدينة له !
ونظر الزوج « الكيس كارنين » فيما حوله ، وآله مصره ومصير
ابنه - آله مصر المرأة التي احب ، ناجى نفسه في اول ليلة علم فيها
برحيل انا بقوله : « تبالي من ابله ! »
كانت تعجب لقده وبنيته القوية ، ونظرته الواثقة وقد تبدل احساسها
شيئا فشيئا حتى اضحت عبادتها له مصدر شعور بالنقص مع انها من
اجمل النساء !

فهل كان فرونسكي سعيدا هو الآخر ؟ هل قره من حبيبة قلبه جلب
ما يشتهي من راحة وهناء ؟

كلا .. لقد كان يفكر دائما بالامه كان يفكر بعزة نفسه وبمستقبله
المحطم . وكان يقارن بين ما استحوذ عليه وما تخلى عنه ، فتراع ، ولكنه
يكتم ما اعتلجه ويسدل ستارا على ما اخترع في فؤاده ..

وايقن وهو يقلب الفكر في احدى خلواته ، ان الانسان يخطئ حينما
يتراعى له ان في تحقيق المنى سعادة الرجل او المرأة .. فثمة امور اخرى لا
يتم هناء الانسان الا بها ، لا يهتدي اليها بعد تأمل وتفكر ..

فهل مثلا سر في اول الامر لفصم علاقته بالجيش ، ولكنه ما كاد
يبتعد عنه حتى احس بفراغ في حياته لا سبيل الى ملئه .

وهو جلد ساعة خيل اليه ان الراحة من العمل قد نهيات له ، ولكن
تقاعدته من كل نشاط انقلب في روح وجيز الى عذاب وجعل يقرأ ، وجعل
يتبع اخبار السياسة ، وجعل يرسم ..

ورسم صورة للحاضنة الصبية التي جلبتها انا لرعاية الطفلة - وكانت الفتاة مليحة على جانب كبير من القسامة .. فحركت الغيرة في قلب انا انهماك فرونسكي في رسم صورتها ..

وكانت غيرتها سحابة في سماء سعادتها ، وكانت سحابة ما عمت ان اتسع وكبرت وتضخمت !

واصبح في ديدنه في تلك الشهور - نقلب وتبدل وتلق داخل - فرعان ما سُم ما اخذ به نفسه من الرسم والتصوير !

وانتهى به الامر الى شعوره بالملل الشديد في هذه المدينة الايطالية .. ولما افضى لانا بما خامره صدره ، شاطرته هي شعوره بالملل . وانفق الاثنان على الرجوع الى بطرسبرج .

تقلب كارنين في احضان الحيرة ساعة تأكد مما شاهده وسمعه ان المطلوب منه ان يطلق سراح زوجته ويعطيها كامل حريتها . واستولت عليه الحيرة :

لقد مضت انا في سبيلها ، فادرت مع خليلها ، ذهبت بعيدا .. فلم يئس فقد تجعد احساسه ، وتوقف ذهنه من الحركة !

ولكنه عاد الى طبيعته ، والى حياته ، والى افكاره القائمة السوداء عندما استوضحت المريبة منه عما يجب ان يرتدي سرج من الملابس ، وعما يستحسن ان ياكله ويشربه .

لقد تعقد الموقف ، وتراكت المحن على راسه فاحنى هامته واحنى كاعله ، ولبت ينتظر مستسلما للضربات التالية :

ما اكثر ما استغرق في الفكر بعد ان عاد اليه رشده ، وما اكثر ما عجب لشدوده - فكيف يأول صفحه ونقمة ا كيف يأول شفقتة وقسوته! ثم .. كيف يفسر حبه الشديد لابنة زوجته النغلة !

وبذل كارنين جهد الجبارة لكي يظهر امام الجميع بمظهر اللامبالاة . ففي البيت كان يتصرف امام الخدم بهدوء وثقة كان شيئا لم يحدث . وفي مكتب الوزارة كان هذا الوزير يدبر امور وزارته بجد ودقة .

الا ان النفس البشرية لا تتحمل اكثر من طاقتها . وكارنين انسان كغيره من الناس ، له في نفسه نواح قوية ونواح ضعيفة ..

كارنين القوي الارادة ، تحمل المصيبة ، غير ان صانع لياب جاء مرة الى بيته يطالب بانعان ملابس زوجته فحطم مجيئه مقاومة كارنين فانهار الرجل ، واستحوذ الضعف على هذا الانسان . وامتنع عن الجميع ولم يعد

يقابل احدا وود من وراء ذلك ان يتفادى ما خيل اليه انه يراه متجسما في
عيون الناظرين اليه من نظرات الاحتقار والاستهجان .

كان شهيرا يحترمه الناس بقدر ما يخافونه وبقدر ما يحسدونه .
ولكنه طفق يرى ان خوف الناس منه انقلب الى شغاة ، وحسد
استحال الى سخرية ..

ولفت حوله فما وجد الصديق الذي ياتمه على سر ويشركه في هم .
ومع انه امر الا يدخلوا احدا الى بيته الا ان الكونتس ليديا ايفانوفنا
ضربت عرض الحائط باحتجاجات الخدم وهرعت اليه في حجرته ذات يوم
او في ذلك اليوم الذي كان يتخبط اناءه في افكاره ويتصور من الامة .
ولما رفع اليها رأسه ونظر مغضبا صاحت بصوت متهدج :

« علام كل هذا الاحتجاب ؟ او انت الرجل الوحيد الذي يصاب
بالكارثة ؟ »

فاجابها بجفاء : « انني لست محتجبا عن احد بل اريد الخلوة
استشفاءا من وعكة طارئة ! »

فهزت رأسها وتمتمت بصوت مهموس : « يا لك من رجل مقبون !
كان الاولى بك ان ترعى مركزك ومكانتك وانسانيتك » .

وخالسا كارئين النظر فرأى فايقن انها صادقة في شعورها معه ،
وانها تكاد تستسلم للكآه واستأنفت المرأة حديثها قائلة ويخلق بك يا
صديقي ان تتجمل بالصبر والايمان ، فلا ترخ العنان لاشجانك .. لا انكر
ان رزاك باهظ لا يحتمل ، على ان لكل داء دواء .

ولان الرجل وهتف بصوت حزين : « حطمتني الكارثة يا عزيزتي
فلمسيت شبح رجل ! انني الان اخاف من كل شيء بل من نفسي فما
العمل ؟ »

« سؤال لا جواب له .. استمر ، تكلم ، ففي الكلام تفرج ، وفيه
سلي القاطط المكروب » .

وتأكدت با عزيزتي انني لا آسف على شيء فقدته ، لان ما فقدت لا
وجود له في رأيي واحساسي ! الا ان ما يكظني هو نظرات الناس وهمساتهم
.. قد يكون فيما أتخيله ظن لا صحة له بل وهم ورجم بالغيب ، على اني لا
املك نفسي من الاعتقاد ان الناس لا يعتنون اليوم بشيء قدر اعتنائهم
ياخباري ؟ »

« على رسلك يا كارئين ، ان الناس في شغل عن حوادث غيرهم ، وفق
ان كل من سمع بقصتك ، واحاط بما ابدته من شهامة وترفع وشجاعة ،
لا يسهه الا الثناء عليك واظهار اعجابه بك وبرجولتك » .

ولوح كارنين بيده في وجه المرأة ، كأنه يامرها بالسكوت ، فلما قطعت حديثها قال محتدما :

« مالي ولهذا الكلام ابتها الكونتس .. على اني اود ان اطعمك على مدى شقائي وتعاستي . وهل يمكن المخلوق ان يتحمل اكثر من طاقته ؟ هل يمكن له ان يصمد تحت وطأة هم ثقيل ثقل الجبال ؟ الا فاعلمي ان الاسبى جسيمة واني ملزم برعاية شؤون بيتي ، والنظر في اعمال الخدم ، ومربية سيرج ، ان سيرج غلام رزين محتشم ، ولكنه رقيق مرهف الحس ملهم العاطفة يتالم فيكتم » ويحزن فيبكي في الخفاء !

فقالَت المرأة وهي تتأوه : « ترفق بنفسك ، ارحم هذه النفس يا الكيس لا تسرف في باسك فلك اصدقاء كثيرون ، وانا اولهم فاتزع من فكرك امور المنزل وتدبيره وانترك الامر لي انا ، قال : « اجل لا بد لمنزلي من امرأة تقوم على شؤنه ، فهل تفعلين ذلك ؟ »

قلت : « حبا وكرامة ، ساكون شقيقتك المخلصة » .
ونهض كارنين من مكانه فصافحها ولمس جبينها بشفتيه امرابا لها عن شكره وتقديره .

سبت هذه المرأة المريقة في الحساب الكريمة المحتد ، على مخافة الله ، كانت تقيّة ورعة .

وبعلت على مثر شاب ، ذاق من الحياة ما زهده بالمرأة المستقيمة . وقد رأى في زوجته ما تفره منها ، وهجرها ولم يتقض على زواجه منها اكثر من شهرين !

ولم تعرف لهجران زوجها سببا .. وتلبثت تنتظر عودته .. فلما اخلف الفتى ظلها ، طوت نفسها على نفسها ، وطمست صورته التي حفرها الحب في قلبها الفتى ، واتجهت بأبصارها الى عالم آخر .

وما لبثت ان خصت احدى المؤسسات الخيرية بنشاطها وخدماتها ، وكان ذلك نذيرا بتحويل خطر في حياتها وفي ضياعها - فقد علقت بالعائلات النبيلة ، وكلفت نفسها بالاختلاط بأفراد هذه الاسر ، واصبح المرء يجدها في كل حين في بيت من هذه البيوت !

وكان كارنين اكثر من حومت حوله المرأة الفاشلة في حياة الزواج ، ولا عجب ، فكارنين وزبر خطير بتعنى كل انسان ان يحظى بقربه ، ويفوز بنظرة من عينيه . وقد احبته ايضا لتمسكه بحبل التقوى . فلما اصيب بما ادمى قلبه وحطم شعوره رجحت في قراراتها كفة السرور على كفة الاشفاق ، فهي تستطيع الآن ان توثق الاواصر .. وقد فعلت ذلك ونبعت فيما اقدمت عليه كما رأينا .

وتناهى اليها بعد حين خبر اوبة انا وعشيقتها الي بطرسبرج ،
فطارت-نفسها شعاعا ، وخافت ان يكون رجوعهما ابلانا بابتعادها عن
الرجل الحزين الكسيس كارنين لهذا عزمت عزما اكيدا ان لا تألو جهدا في
الحؤول بين كارنين وبين امراته .

وظفقت مند حلا في المدينة تراقبهما وتحصي كل حركة يقومان بها . .
طفقت تسجل كل ما تراه وتسمعه من اعمالهما . . ولما درت انهما يزعمان
مفادرة المدينة الي مزرعة فرووسكي في الريف ، سكن خوفها ، وانفتحا
اضطرابها ، وقرت عينها - لقد احتفظت بكارنين ، ولا تريد شيئا آخر !
كما ان الحق والانصاف يملئ على كل انسان ان يعترف لها بان قلقها كان
ايضا بسبب اشفاقها على الرجل من ان يزيد وجود امراته الفاجرة في المدينة
من حرجه وشقائه !

ومضت الايام والكوتيس ليديا ابغاثوفنا تدير شؤون البيت .
ولكنها فوجئت في صباح يوم مشؤوم بكتاب يصلها من انا كارنينا ،
فلما فضته وقراته .

عزيزتي الكوتيس ابغاثوفنا :

« لولا ما السه فيك من الاخلاص ومخافة الله ، والتفاني في خدمة
الانسانية العذبة ، لما تجاسرت الي الاتصال بك . . »

ان ابني سرج يعيش في كنف ابيه كما تعلمين . . وانا ام يا سيدتي ،
وانت امراة ، والمرأة تقدر شعور الام المحرومة من رؤية ابنتها ، لهذا
ابتهل اليك ان تاذني لي برؤيته - مرة واحدة فقط . . ومن بعد ، سابتعد
عنه ، وعن المدينة ، وعن الناس قاطبة .

كان في وسمي لو شئت ، الظفر باربي باتصالي بالكسيس ، بيد اني
وددت ان اجنبه العذاب والالام ، فاخترتك انت . واملي وطيد ان لا تردني
خائبة فتضطربني الي الاتجاه اليه مباشرة . والرجاء ان تنبئيني عن الكيفية
التي اتمكن بها من الاجتماع بابني - هل آتي ؟ ام ترسلينه الي ؟ ام ترثانين
مكانا آخر ؟

لا اتوقع رفضك يا سيدتي ، واثق ان كارنين لن يبخل علي بهذا
اللمتس فهو كما اهدده دوما ، كبير القلب كريم النفس .
« هذا ، وانتي انتظر ردك على احر من الجمر » .

« انا »

تأملت المرأة في معاني الرسالة ، وفكرت مليا ثم اندفعت الي كارنين

في غرفته . فلما ابصر بها قادمة ، وقرا في صفحة وجهها ما انباه بخطورة
المسألة ، فقال :

« تكلمي يا عزيزتي ، ماذا جاء بك ؟ »

قالت : شر .. قد تراه كبيرا ، وقد تستصغره ان كنت حليما ..
ويعلم الله اني لا اتوخى الا خيراك وراحتك ، كما اتمنى دوما ان ابعدك عن
كل ما يذكرك بمصيبتك ، على ان غيري من الناس لا ينشد الا رعاجتك
وصمتت المرأة وتاملت في الوجه المقطب لترى تأثير كلماتها في صاحبها .
ثم استتلت : « وانني اليوم استلمت رسالة من انا .. لقد اتت المدينة .
وهي تطلب .. »

ولم يدعها كارنين تتم ، بل اختطف الورقة من يدها وهو يرتجف ،
ولونه يمتقع ، وتلاها وقال بصوت حزين :

« كنت انتظر كل شيء يا كونتيس ، كنت انتظر هذا . »

وران الصمت على الاثنين . وعاد كارنين فقال : « وليس من حقي ان
اردها .. ليس من الانسانية في شيء ان ادراها عن ابنها ! »

قالت : « ما اعلم نفسك ايها الصديق ! ما اتقى قلبك واصفى حسك !
الا تجد للشر اثرا في القلوب ؟ الا ترى النواحي المظلمة في النفوس ؟ سقيا
لك ، سقيا لك ! »

قال : « .. اخطأت .. فالشر كامن في كل قلب ، وانني اراه والمسه
غير آني لا اقبله بالمثل ، بل اسحقه بالتسامح ، وعلى هذا فليست ارى من
العدل في شيء ان .. ان .. »

وتوقف ذهنه بفتة ، وانحبس الكلام في حلقه .. ورمق محدثته بنظرة
استفالة ، قالت هي على اثرها :

« ان كلامك عجيب .. وفي رأيي انا ان للصفح حدودا ، وللنسيان
مدى لا يتجاوز .. لقد تهتكت انا وارتمت في حماة فاجرة .. على انها لم تر
رحمتك بقدر ما تعشقت في نفسها قسوتها .. لقد قابلت الكرم بالفسد ،
.. وها هي تؤم بطرسبرج لتذكر الناس بحبها ، وخيانتها .. فلماذا رجعت ،
التسرف في ابلامك ؟ »

وهز كارنين راسه ، وبادل المرأة نظرات الحيرة والتساؤل ، ثم اجاب :
« كلامك حكمة وصواب ، على اني غفرت و عفوت ، ولن ارجعها
بالحجر الاول ، دعم ، سواي يفعل هذا ، ولتات الى البيت ، لتات فتجتمع
بإبنها . »

قالت : « امناكد انت من اخلاصها لابنها ؟ .. فعاذا يقول الغلام ساعة
يرى امه ؟ ألم تقل له انها ماتت ؟ »

قال : « ما اصعب الامر ! اجل ، كيف ؟ »
 قالت : « فعلام عولت الان ؟ فكر مليا . »
 قال : « لا استطيع ان افكر ، فراسي متعب ! »
 قالت : « ارى ان تردها ، وتفهمها انك لا ترغب في تحقيق امنيتها ..
 فهي امرأة فقدت القيم الانسانية ، حتى انهارت في قراراتها ، المحبة السامة
 .. ابعت اليها بمن يخبرها بقرارك ، وجنب نفسك ، وجنب طفلك كل هذه
 الآلام والاحزان .. ولذني ، لذني اكتب اليها ! »
 قال : « اكتبني .. اكتبني .. »
 وسارعت المرأة بتسويد رقعة صغيرة . فلما قراها كارنين لم يعترض ،
 بل تجلد طاقته ، وامر بارسالها .

رفض كارنين رجاء زوجته ، وكان يعرف ان ردها خاتبة هو بمثابة
 طعنها في صميم قلبها ، والعجيب في امر الرجل انه شعر بكثير من الندم لما
 قام به ، وطافت في مخيلته صور من الماضي ، وراى زوجته ، وراى نفسه ،
 واحصى اخطائه وزلاته ، واخذ على نفسه جموده وشلوذه ، واعترف فيما
 بينه وبين هذه النفس الحائرة انه حثها بسلوكة على الانحراف والوقوع ..
 كما تذكرك ، تصرفاته المدهلة بعد تكشف الحقيقة .. ولقد جاءت انا
 الى بطرسبرج وجاء معها فرونسكي . جاء بعد غيبة طويلة في فتدق عظيم ،
 فاحتل فرونسكي حجرة خاصة له ، وخصص انا وطفلة والريبة بجناح
 قائم يدانه .

وما ان ارتاح فرونسكي من عناء السفر حتى قصد منزل شقيقه
 فالتقى هناك والدته .

وقد سرت امه كثيرا عندما رآه مقبلا .

ولما خاطبه شقيقه لم يبرع شعوره بل فاتحه دون مواربة بما عرفه
 الجميع من علاقته باننا . وقطب فرونسكي حاجبيه وورمق آخاه بنظرة قاسية
 واجاب :

« لا تزع يا اخي ، فهي بمثابة الزوج ، ولن اعتم ان ابني عليها فسي
 القريب العاجل .. اما الان فانا اطلب اليك ان تشرح الامر لوالدتي ولزوجك »
 فقال شقيقه : « على اني اتعيب الموقف ولا اود ان اير الاضطراب في
 بيتي ، فوالدتك تأبى لك ما يضر بك ! »

فقاطعه فرونسكي محتدما : « لا احفل الناس اذا كنت واقفا من
 صواب صلي . بيد اني استهتت بالناس فلن ارضى للدوي ان يصعروا لي

ولها خدودهم . واعلم اني احتم عليكم جميعا ان تعاملوها معاملتكم لزوجتي ،
والا فسيتهي ما بيننا بالقطيعة » .

واستمع الاخ الاكبر مبهوتا ، وائر الصمت ، ولعله صمت مكرها حتى
يبقى على صحة اخيه ، فهو يعطف عليه ووجهه .

وعندما رجع فرونسكي من ايطاليا كان ينظر بشوق الى اليوم الذي
يستعيد فيه مركزه في الحكومة ومكانته في المجتمع . .

ولكن الابواب التي كانت مفتحة المصاريع اغلقت دوله الان ، وان
المنازل التي كان صاحبها يمشون في وجهه لم تعد ترضى بمقدمه . وايقن
انه طمس اسمه بعمله ، كما طمست انا اسمها .

ولم يحتف به احتفاء صادقا الا الاميرة بتسي - وقد رحبت به ايما
ترحيب ، واعربت له عن سرورها بمقدم انا ، ولكنها لما درت ان الطلاق لم
ينم بين الزوجين ، انتحلت شتى الاعذار لتذهب في سبيلها .

بيد ان هذه الاميرة التت بالفندق بعد بضعة ايام واجتمعت الى انا ،
وجاذبتها اطرافا من الحديث المتكلف . ولم تنسى بتسي ان تنوء بفضلها
وبشجاعتها ، وباقدامها دون مبالاة على زيارة انا .

كما انها حرصت على التحدث عن الطلاق ، فقالت :

« لا تنظني بي الظنون يا انا ، فانا لست بالمرأة التي تنقيد بعقل هذه
الترهات ، غير ان الناس تختلف با عزيزتي ، وانا واثقة ان جميع صديقاتك
سينتجنن زيارتك ولن تعود المياه الى مجراها قبل وقوع الطلاق ، وحدث
يضمني على علاقتك بفرونسكي صفة قانونية »

وقد اصفى متفكرا متمنعا ، وادرك ان كل محاولة يبذلها لادخال انا
في المجتمعات سيكون مآلها الفشل والاحفاق . وبالرغم عن ذلك رأى ان
يبذل وسعه ، وان يشرع في اقتناع ذويه واهليه بتقبل انا .

وبدا فرونسكي محاولاته بزوجة اخيه ، فقد جاءها ذات يوم وابتدورها
بما خالج صدره ففكرت المرأة ثم ردت عليه وجهها بتضرج :

« لست في شك قط من انك تحبني وتحترمني كما وانك تعلم مدى
تعليقي بك ومحبتني اليك . فاعلم اذن اني ما اعترضت على علاقتك بآنا ،
وما حاولت التنكر لك او اسداء النصيح او زجرك بكلام معسول ! »

وصممت المرأة وتنهت منفعلة ، ثم تابعت تقول :

« انا يا عزيزي اقدرك واعجب بك . وانا ايضا لا ادخر وسعا في
ارضاك . ولكني لا استطيع ان البى طلبك هذا . لا استطيع ان اصادق
انا فازورها وتزورني ، واخذ بيدها فاقودها الى اندية الطبقة الراقية . .

انتي ام ولي ثلاث فتيات ، ولغتياتي مستقبل ، ولا ندحة لي من درء كل ما
يشين ، عني وعنهن » .

وهب فرونسكي واقفا وصاح وهو بصرف باسنانه :
« تيا لك ! تيا للنساء جميعا ! اكلكن نقيات نقيات : اكلكن ظاهرات
ورعات ؟ او ليست هي افضل من اكثركن ؟ »
فقالت فاليا لاهثة : « حنانك با الكسي ، لا تغضب ، لا تنقم علي »
قال :

« لست بغاضب عليك بل انا حائق على نفسي وعلى هذا المجتمع
الزائف الناهش المترص .. انا حائق على كل من يدمي النبل والشرف ،
لان كل مدع منهم لا يمت بصلة الى هذه الصفات .. انتي ذاهب الان الى
غير رجعة ولن اري احدا منكم بعد اليوم » .
راى الشاب كل شيء ، وانقر بعد اخفاقه انه لن يشي احدا من موقعه ،
وان انا لفظتها المجتمعات ، وانه هو نفسه امسى منبوذا .
سرعان ما استسلم للياس والقنوط ، عندما زادت انا نفسها من الامة ،
بما شاب طباعها واعمالها في الآونة الاخيرة من تبدل عجب مدهل .
وشك وارتاب ، فهي تحنو عليه ، حتى لكأنها خلاصة الحب وجوهره ،
وهي تربأ بنفسها ، وتمتنع عنه ، وتزور ، حتى لكأنها كرهته وعاقته .. ثم
انها تبدو احيانا مهمومة مستخرقة في فكر حزين ممض .. فعماذا يعتدل في
صدرها يا ترى ؟ اترى هي ما جرى ؟ ام هي تحلم بامر آخر ؟
وتسأل الفتى ، الا انه لم يهتد الى جواب .
انا امرأة وام ..

وما رجعت الى بطرسبرج الا بحافز من شوقها الى ولدها .. لقد
نسيته وقتا في غمرة فرحتها بفرونسكي .. ونسيته او تناسته اندفاعا وراء
عاطفتها الجديدة - عاطفة الامومة التي اذكتها المولودة الطفلة .
ولكنها امرأة وام ..

وكأنت كلما اقتربت من بطرسبرج ازدادت انفعالا وتهيجا .. وكأنت
تترنم باسم سرج ، تهمس به وكأنه موجود بقربها .
ودنا القطار من مشارف المدينة ، فتطلعت كأنها تتوقع ان تجده في
استقبالها ؟

على انه لم يدر في خلدها انها قد ترد خائبة متى طلبت رؤية الغلام ..
ومضى يوم ، يومان وثلاثة ايام وايقنت مما شاهدت وسمعت ، انها امرأة
نبذت كما تنبذ النواة .

وروادتها نفسها على الذهاب الى منزلها ولكنها تهيبت الموقف وآثرت
الانتظار والترقب .. فمن يعلم قد تصادف زوجها قد يقصدها الخدم ،
انكتب له رقعة تنضرع اليه فيها ان يشفق عليها ؟ اتلازم الطريق حتى ترى
سرج صدفة ؟ وهل يجديها ذلك نفعاً ؟ وماذا يقول سرج متى قلت ذلك ؟
ونهاى اليها خبر الكونتس ايفانوفنا ، وادركت انها المرأة التي يتسنى
لها مساعدتها ، فبعثت اليها بتلك الرسالة ، رضيت ان تستعطف امرأة
غريبة في امر لا يبنى سواها لكي تتمكن من رؤية ابنها .. فماذا كانت
النتيجة ؟

لقد جاءها جواب المرأة الجاف ، جاءها فحطم قلبها .. انهم يدفعونها
دفعاً عن ابنها .. فمن اين لهم الحق ؟
وتأملت لوحدها ، تأملت دون ان يشركها احد في المها .. انهم يدفعونها
دفعاً عن ابنها .. فمن اين لهم الحق ؟ من اين ؟
ولم يكن حبيبها يدري شيئاً من محاولتها ، فقد كتمت عنه الخبر
خيفة ان يلد منه ما يחדش احساسها ويضاعف في عذاب نفسها .
كانت تحب فرونسكي ، ولكنها ادركت وهي تشق طريقها الى بطرسبرج
ان حبها لسرج يربو كثيراً عن حبها لفرونسكي ، كما ايقنت وهي تستعبر
ان الفرق بين الحبين هو الطهر - حب طاهر .. وحب فاجر .. واشفقت
على نفسها ان هو سخر منها ومن حبها لولدها ان ينقلب هواها الى كراهية .
لهذا الترت الكتمان .

بكت انا ساعة لتت رد الكونتس ورفضها ، ولكنها لم تلبث ان نعتت
نقمة شديدة ، وجعلت تتسائل متوهمة الصدر عن قحة المرأة الداخلية
وجرائها ...

ثم جعلت تحدث نفسها وتقول :

« اما كفاني ما لقيت ؟ ... انهم يبحثون عما يقهر سرج ويعلده ..
ولكني ام وساناوم ، وسأفهر هذه المرأة الشيطانة ! »
وصادف بعد يومين عيد ميلاد سرج ، فاستيقظت في ساعة مبكرة ،
وخرجت الى المدينة فابتاعت ما يحبه سرج وما يطلب اقتناؤه . ثم رجعت
ادراجها الى الفندق فتناولت طعام الافطار ، واستدلت على محياها نقايا
اسود ، واستقلت العربة متوجهة الى منزل زوجها .

واخذت تنزع الى الله ان تصل في ساعة يكون فيها زوجها مستغرفاً
في النوم ، ويكون الخدم منهمكين في غرف اخرى ، حتى لا تضطر الى شراء

ضماثرهم بالمال ، او ان تكذب فتزعم - دون ان ترفع النقاب الذي تلمت به - انها امرأة موقدة كرسول في امر من الامور ، وان هذا الامر يتعلق بسرج ابن سيدهم وبعيدة السعيد !

ووصلت فرعت باب الحديقة ، فجاهها البواب ، فحيته بكلمة لطيفة واسقطت في يده قطعة من الفضة . ونظر الرجل مشدوها ثم حنى راسه ، وفتح الباب ..

ولما دخلت سألها عن بغيتها ، فهزت كتفيها وانفلتت في المرمرية مهرولة .. واقتحمت الباب ، فواجهها الخادم الشيخ وكان يحبها ويحترمها - ولكنه لم يعرفها ، بل سألها مستفهما : « الك حاجة يا سيدي ! »

فاجابت وهي تحاول ان تبدل من صوتها وتغير نبرتها :
« انسى موقدة من قبل الامير سكاروف ، او من قبل ابنه الفلام ، لاقدم لسرج هدايا العبد السعيد ! »

قال : « بيد ان سرج لا يزال نائما ، فهل لك في الانتظار ؟ انتظريه ريشما يتنبه من رقاده ؟ »
فهزت راسها موافقة .

وتلبث الخادم الشيخ يختلس اليها نظرات المشكك المرتاب ..
.. كان كل شيء باق على ما هو عليه .. كانت الارائك والمناضد والصور في مكانها المهود .. وكان بيتها . الا انها نزلت عنه بمحض ارادتها .. فهل هي نادمة ؟ هل تولتها في تلك الوهلة موجة من ندم على ما انحرفت عنه ؟

لا احد يعلم .

ولكن الدموع تحجرت في مآقيها ! وسها عن بالها ما جاءت من اجله ، وغاب عنها انها متتكرة ، وانها يجب ان تبقى كذلك حتى تتمكن من رؤية ولدها ..

وطلبت من الخادم دون وعي منها ، ان يعينها ، على خلع معطفها .. فانحنى لها الخادم باحترام ومد يده فتناول المعطف الذي نفضته عنها بسرعة ، ووضعها في مكان من الردهة الكبيرة ، ثم انثنى يردد :

« الرجاء ان تنتظري بضع دقائق .. »

وحملق فيها ، واجفل ، ونكص الى الوراء - وكأنه يرى شيئا !
لقد عرفها الرجل من حركاتها ، لقد عاش طويلا في هذا البيت ، عاش فيه قبل ان تقدم اليه عروسا لسيدة !

وانحنى منبر الانفاس ، وخطبها بصوت متهدج : « انا طوع امرك يا

سيدتي ، ليمَ لم تكشف لي عن شخصك ؟ ليمَ لم تطلعينسي على رغبتك ؟
ولكن .. »

وظنت انا ان الرجل فطن بعد ان رجب بها واعتلر ، الى اوامر
سيده ، والى اوامر سيده الجديدة - الكونتس - ظنت ذلك ، وحاولت ان
تقول شيئا ، ولكنها اثنت بسرعة البرق ، وانشات تعدو ، ثم صعدت في
الدرج المفضي الى غرفة ابنتها .

وتعقب الخادم خطاها منبهرا الانعاس يلهت من نير السنين .. تبعها
وهو يقول : « على رسلك يا سيدتي ، انتظري قليلا ، انتظري ، ريثما اتبه
سيدي الصغير الى مقدمك .. »

استمرت تعدو مهرولة ، وهي تصيح :

« لا .. لا .. لن تمنعي ، لن يمنعي انسان ، ولن يجروُ على ذلك
احدا ! »

دلقت الى المذبح ، وكانت لحة ، لحة هائلة !

رات ابنتها . يفرك عينيه بيديه الصغيرتين .

لفاض قلبها بالعاطفة الحبيبة ، فاض كلمة واحدة :

« سيرج .. »

ورددت الكلمة : « سيرج .. »

كان صوتها خافتا لم يسمعه احد ..

وقالت للمرة الثالثة : « سيرج .. »

وتضاهل فرونسكي في حينها ..

لم يبق الا سيرج .

يا لام ..

ولكن العاطفة مدببة ، تفيض لم ينضب معينها .. فهل يبقى كذلك

بعد ساعة !

وخاطبت نفسها : « انه نحيل شاحب .. لماذا اصابه ؟ لم حل به

الهلأل ؟ هل يعدبونه ؟ هل يضطهدونه ؟ ولكنه سيرج ، اليس هو ؟ »

ولاحت من سيرج التفاتة فابصر والدته ، وندت من صدره صرخة

تصجب ..

لقد تبين فيها المرأة التي رامته وحديث عليه ، ولكنه حملق مشدوها ..

انها هنا ، وما قيل له عن موتها فكذب ..

ودلت منه انا ، وقالت وهي تنسج : « ولداه .. »

وقال الغلام « اماء .. »

وأحتضنت طفلها بشدة ، وانكمش هو في احضانها مسرورا سعيدا .
وهتف ثانية : « اماء .. »
وقبلها : وانغمضت هي بعينها !
ونبر الصبي بقول بعد لحظات : « اماء .. » واقبل عليها يتحسس
وجهها ويتعمق :

« ان اليوم عيد ميلادي ، وكنت متأكدا من مجيئك .. »
ولبتت تنظر الى الوجه الملائكي نظرة منهومة .. واستخرطت في البكاء .
فهتف يقول منزعجا : « ماذا يبكيك يا امي ؟ ماذا آ ؟ »
فقال وقد زادها قلقا : « انتي ابكسي من سروري بهذا اللقاء ، فلا
تبئس يا سريج ، لا تشك بي ، فانا امك ، افيديك بروحي .. »
دعني اساعدك في ارتداء ثيابك .. من يساعدك الان من من الناس آ ؟ »
وخنقتها عبرة ، فامسكت .

واقبل سريج عليها ، وجعل يتكلم بمرح ، وبضحك ويقرر ، وقد بان
في امائره نور هو ولا شك نور الهناء والسعادة لظفره بأمه ا .
وقالت انا : « وماذا قالوا لك عني ؟ هل اخبروك اني مت ؟ »
قال : « لم اصدق كلامهم ، بل انتظرتك طويلا » .
قالت : « احقا كنت تنتظرني ؟ »
قال : « نعم ، وكنت متأكدا من مجيئك يا امي » .

وجاء في تلك اللحظة الخادم الشيخ ففتح الباب بهدوء ورأى الام
تحضن ابنها ، فدمعت عيناه وقال :

« لا ، لا استطيع . وسارجع بعد قليل ا »
وكان جميع الخدم قد سمعوا بمجيء الام ، فتولاهم الاضطراب
والخوف ، واشفقوا ان تبقى الام ، فيراها سيدهم في الساعة التاسعة .
عندما يلم بغرفة ابنه .

وما كان من المربية الا ان اندفعت الى حجرة سريج ، وكان الغلام عندما
دخلت بروي لأمه حكايات عما يفعله ، وكيف يمضي وقته .. وكانت تصفي
اليه .

على انها كانت تفكر بالساعة الرهيبة ، ساعه انصرافها - وكانت
تشعر بانها ستموت حسرة متى ذهبت دونه ..

ولما دهمتها المربية لم ترفع بصرها ، بل لم تشعر بوجودها الا عندما
قبلت المرأة ذراعها ، ورحبت بها حامدة الله على سلامتتها .
وحاولت ان تقول كلمة اخرى ان تقول - وداعا - ولكنها لم استطع

.. على ان الطفل قرا الكلمة منطبعة مع الالم على اساربرها .. فعبس قليلا
واغرورقت عيناه بالدموع ..

وقالت بعد ان استجمعت قوتها : « اذكرني دائما يا سرج ،
اذكرني .. »

« كلا .. كلا .. لا تذهبي بل امكثي معي ! »

« كلا اني مضطرة يا حبيبي الى الذهاب . »

« لا ، لا تذهبي فابي لن يأتي الآن ، ثقي من ذلك .. »

« سرج .. هو ابوك ، فاحبه احبه كثيرا ، لانه خير مني ، وافضل
واحسن ، فانا اسات اليه واضرت به ، اما هو ، فقد كان نبيلاً كريماً ،
وسوف تعلم ذلك بعد ان تكبر وتبلغ طور الشباب . »

فهتفت سرج معارضا : « هذا لغو ، وهل هناك من يفوقك با اماه ..
هل هناك من يفوقك في حبه لي .. »

ونشج الطفل والقي راسه الجميل على كتفها ، فدابت حشائشها
وتعمت متلوعة : « حبيبي .. حبيبي .. حبيبي .. »

وقبلته مرارا . « وفتح الباب ، ووقف كارنين على عتبة ، وهو لا
ينظر ولا يسمع .. وجمد الطفل مأخوذاً ومشت انا بثودة ، حتى اذا ما
مرت قريبا من زوجها ، احنى راسه ببطء ووقار ..

وشعرت بالنفور الشديد ، وعجبت كيف طاعها على قلبها توصية
ابنها بوجوب محضر ابيه كل حبه ووداده .

وانفلتت من الباب بعد ان اختطقت من الارض رزمة الالعاب والهدايا
التي احضرتها معها لسرج .. وقد حملت الرزمة بيدها ، وهي لا تدري من
امر حركتها هذه شيئا .. ووقلت راجعة الى الفندق ..

رغبت انا عن شوق في رؤية ابنا ، وسعت الى بطرسبرج ، وفي قلبها
حنين عظيم اليه ، ولكنها لم تقدر ما سيصيبها عقب ذلك ، لم تتكهن بذلك
التأثير المخيف الذي سيطر على احساسها ساعة تفارق ولدها للمرة الاخيرة .
وظفقت تحدث نفسها وتقول :

« يا لشوقي ! لقد ذهب مني ، لم اعد ام ، لم اعد له ام .. لقد انتهى
كل شيء ، ورجعت الى عاري .. انني الآن وحيدة كما كنت قبلا ! »

وجادتها المرية بطفلتها ، وقبلت انا ابنتها بحنان ، ولكنها ابقت ان
حبها لسرج يفوق كثيرا حبها لهذه الطفلة .

لقد كرهت اب سرج ، بيد ان حبها لسرج تضامف حتى ملا عليها
حياتها ..

وفوق ذلك فالملابس التي جاءت فيها هذه الطفلة الى الحياة تخلف كل الاختلاف ...

وفطنت ، والفكر يطوف بعقلها في افق فسيح ، الى محفظة الصور ، فاستخرجتها وجعلت تقلب الصور المثبتة داخلها ، وتتأمل في وجه ابنها .
ووقع طرفها على صورة لفرونسكي ، فتناولتها وحددت عينها فيها وفكرت ، اليس هو السبب فيما حصل ؟ في كل ما حصل ؟ .
ولكنها ملت الطرف في تقاطيعه ونظراته التي تنم عن شهامة ورجولة .
وشعرت بحب جارف لم تشعر بمثله منذ حين .

ونساءلت عن مكانه ، وتساءلت عما عسى ان يفعل متى رجع ، وعما هو فاعل الآن . وحدثت نفسها وعقارب الشك تلسعها في قلبها فقالت :

« ترى أين هو ؟ وكيف يرضى ان يتركني لوحدي ؟ »

ولكنها نسيت في غمرة تفكيرها ان فزونسكي لم يبارح حجرته ..
قلما تذكرت ذلك ارسلت من يستدعيه اليها . فرد عليها بان لديه ضيفاً عزيزاً هو الامير باشفين ، وانه لن يلبث ان يلم بها في جناحها مع الضيف الكريم ان سمحت واذنت ..

فقطبت انا ، وخيل اليها ان فزونسكي يتحاشى الخلوة معها حتى لا تخرجه باسئلتها .. وداخل روعها انه كف من جها ، وانه لا يلازمها الا محاملة واشفاقاً . واستعرضت مخيلتها جميع ما مر بها في خلال الايام القليلة المنصرمة .

وتزأى لها ان جميع الحوادث التي وقعت تؤيد شكوكها ، وان فزونسكي طلق في الايام الاخيرة بجنح الى الكلب والراوغة ، وانه جعل يتهرب منها .

لقد غزا رأسها فكر قائم قلب الشك يقينا ، فصاحت متسخطة :
« وبله ، اجدر به ان يميظ لي اللثام عن جبه ، حتى لا يسرف في تعديبي .. اجدر به ان يرفق بي فلا يتناهي في الايامي » .

وتساءلت عما يخلق بها عمله ان تحققت الظنون وهدرها فزونسكي .. ولما استحوذت عليها الحيرة ، طار صوابها ، فقررت الجرس بشدة . ولم تنتظر مجيء الكروية بل اسرعت الى المرأة تتزين وتضفر شعرها . وما عتبت ان تلفعت بابهي حللها ، وكأنها تزعم ان توقعه في جبالها من جديد !
ورجمت بعد قليل الى ردهة الاستقبال وجلست تفكر . وما هو الا قليل حتى قرع الجرس فهبت واقفة ، ونحتت الباب وقلبا يخفق بشدة .. ودلف الى القاعدة رجلان ، كان اولهما الامير باشفين ، وكان الثاني فزونسكي .

فهشت انا في وجه الضيف ورجبت به اجمل ترحيب . ولما جلست
معه اختلست النظر الى فرونسكي فالفته منهمكا في تأمل صور سرج التي
نيتها مبشرة على المائدة .

ولم يلبث فرونسكي ان اتخذ له مجلسا بجانبها ، وخاض معهما
في حديث السباق ، ثم في حديث الحل والترحال ، ثم جالوا وصالوا في
كلام كثير عن اوربا ، وحواضرها ، ومدنها وملاهيها .

وكان فرونسكي طيلة ذلك ينظر الى ساعته . ولما تأهب الضيف
ليذهب ، دعته انا الى الرجوع في المساء لتناول طعام العشاء معهما .

وقد قبل الامير دعوتهما مسرورا ، ومضى في سبيله ، وهو ينظر الى
فرونسكي متسائلا . وقال له الشاب قبل ان يخرج من الباب :

« اسبقني يا عزيزي ، وسالحق بك سريعا » .

ولما غاب شيخ الامير عن ناظرها ، تقدمت انا من فرونسكي ، وامسكته
من يده ، ونظرت الى عينيه باحثة عن شيء ، وفكرت .. فكرت كثيرا !
واخيرا قالت باغراء وتوسل :

« ابق ، ابق قليلا يا حبيبي .. هل اسات صنعا في دعوته الى العشاء ؟
قال : « كلا ، بل انك احسنت بلفتك ولباقتك » .

ومال اليها ووجهه يطفح بشرا . وضغطت انا على يده وقالت وهي
تدني وجهها من وجهه :

« اي حبيبي فرونسكي ! اباق انت على عهدك ؟ اتي برمة بحياتي ، ولا
يزيل سمي الا ثقتي بحنانك وحيك .. فمتى تسافر ؟ » .

فرمقها بعين مستشفعة واجاب : « لن نمكث هنا طويلا . فلا ترتاعي
يا انا » .

وابتعد عنها ..

فارتاعت ، الا انها كتمت شعورها ، وادارت له ظهرها ، وهي تقول
بحفشاء :

« فاذهب اذن .. ان صاحبك في انتظارك . اذهب .. لا تتأخر ! » .
ودارت على حين غرة وحدجته بنظرة غريبة . لم يمكث فرونسكي من
شدتها ان ارتعش وارتعد .

ولكنه احنى هامته قليلا ، ومضى لا يلوي ..

رجع فرونسكي بعد ساعات الى الفندق فلم يجد انا ، بل قيل له ان
سأل عنها انها غادرت المكان مع سيدة المت بها بعد ذهابه .

فدهش وتساءل من هذا الشذوذ الذي لاحظته في حركات انا وتصرفاتها في الاونة الاخيرة ، وعجب من خروجها وتأخرها لم فطن الى تلك النظرة المريبة التي حدجته بها .

وقر رايه بعد افعال الفكر على مجابتهها بظنونه فلزم قاعة الاستقبال الصغيرة وقد آلى ان ينتظرها حتى يفصل في المسالة .

ورجعت انا بعد ساعة طويلة ، ولكنها لم تكن وحيدة بل كان برفقتها عمتها العانس الطامنة في السن الاميرة اوبلنسكي . وكانت هذه المرأة هي التي قدمت الفندق بعد ذهابه .

وتجاهلت انا ربةك فرونسكي واضطرابه ، وجعلت تثرثر بحديث فكاهة وفرح ، وتصف ما قامت به عمتها في ذلك اليوم .

ولم يخف من فرونسكي انفعال انا وتهيجها ، فأيقن انها تبطن سرا دفيئا . فحاول ان يخلو اليها ، وحاول ان يستدعيها الى مخدع نومها ، لكنها تجنبت طاقتها ولم تحفل اشارته او ابعاده . .

وعمل صبره وشاق صدره . ونفاهم الخطب في نظره ، وعظمت ريبته ، وخيل اليه في تلك الدقيقة انه لا يعرفها الا في تلك الدقيقة ، وانه لم يحبها منذ زمان ، بل احبها وفنى فيها في تلك الدقيقة ايضا !

فيا للغيرة ! كيف تحيل موات العاطفة حياة للعاطفة !

يا للغيرة ! كيف تلهف النيران في قلب الرجل ، وكيف تدكي بذلك عاطفة حبه .

لقد جن جنون فرونسكي ، وكاد لولا بقية عقل ان يرتكب خطأ بحضور الاميرة المعجوز ، فهو يبغى المعرفة ، وهو يود ان يحيط علما بحقيقة ما فعلته انا في ذلك اليوم ، وكانه لم يصدق ، او كان ريبته التي علمها مرح انا قد حشته على وجوب التاكيد من انها لم ترتكب امرا اذا !

احبها في الماضي واجتهه . .

وقل حبه لها في الحاضر ، ونما حبه له .

عليه هذا الجمال ، وخيل اليه انه لم ير مثله من قبل .

نهاية حبه بل نهاية حياتها ، توسلت بالدهاء - الدهاء الفريزي - الدهاء الذي استعاضت به المرأة عن الضعف - ورمت انا سهمها فأصاب . وجاء في تلك اللحظة رسول للاميرة بتسي بعثلر بالثيابة عن سيدته لاضطرابها الى التخلف وعدم الحضور ، ويرجو من انا ان توافيها الى بيتها :

وها هو يتحرق لكشف الاسرار !

غير ان انا اعتذرت للرسول وبينت له من الحجج ما اقنعه ، فأجابها وهو ينحني باحترام :

« فان شئت وشاء اصدقوك ان تشهدوا الليلة « باتي » في دار الاوبرا فياستطاعتي ان اتدبر لكم مقصورة خاصة » .

فقلت انا وعيناها تلعمان : « ان من دواعي سروري ان اذهب . واني الان اود ان استبقيك لتناول الطعام معنا ! » .

فحلق فرونسكي بعينه غير مصدق اذنيه - ماذا الم بها فجعلها تلح على رسول بتسي بالبقاء وتناول العشاء ؟ ثم ماذا الم بها وحداها على قبول الدعوة الى الاوبرا ، وهي تعلم عن يقين بانها ستلتقي بالطبقة العليا التي تجاهلتها وتجنبتها ولم تحفل بمقدمها الى بطرسبرج ..

ورأت الحيرة مرتسمة في عينيه ولمع بريق عينيهما ونظرت اليه بتحد نظرة تجمع فيها مرح وقنوط ، كما اثبتق منها شرر عجيب اخافه واذهله في وقت واحد ! واتقد الموقف حضور الامير ياشفين . ولم يعتم الجميع ان احاطوا بمائدة الطعام واقبلوا على الاكل بليتهمونه وعلى الخمر يرشوفونه ..

وعبت انا مقدارا كبيرا ، وطفقت ترنو الى الامير ياشفين بنظرات مدله مغرية ، ولم تبخل على الرسول بمثل تلك النظرات .

وكنتم فرونسكي ما في قلبه من غل ما لبث بعد فراغهم من تناول الطعام ان اصطحب الامير الى حجرته حيث جلسا بدخان وبتحادثان .

وصعد بعد حين قالني انا متلعة بفستان قشيب صنع في باريس خصيصا لها . كما انها زينت راسها الجميل بقطعة من الحرير المطعم . وآتراً ان بسالها قائلاً : وهل تزمعين الذهاب الى دار الاوبرا ؟

قلت : « نعم اني ذاهبة . فعماذا يخيفك ؟ » .

قال : « لست بخائف بل متعجب ! »

فأفضت من نهكمه وغضبه وقالت : « انني مصممة على الذهاب فقد مضى علينا زمن ونحن نحيا في عزلة » .

فنهفت وصوته يكاد ان يكون اقرب الى صوت زوجها يوم اهاب بها ان ترعوي ، قال : « انا ا فكري .. ماذا اصابك ؟ » .

قلت : « اجدر بي ان اطرح عليك هذا السؤال » .

قال : « ولم تتجاهلين متمعدة الحقيقة الجلية ؟ الا تبصرين ما ينطوي عليه ذهابك الى الاوبرا من خرق واف ؟ » .

قلت : « انني ذاهبة مع الاميرة ! »

فلوح بيده واستتلى وكأنه لم يسمع كلامها : « تعقلي يا انا ، فانت .. انت .. » .

فعارضته محتدمة ، وصاحت : « كفى ، كفى ، وأعلم اني لا اتردد عن اتيان ما آتيت لو القيت نفسي منجرفة بذلك التيار الكريه الذي جرفتنى به الحياة مع زوجي لسنتين وسنين ! » .

ونظرت اليه ، ونظر اليها ، وتابعت بصوت عميق :

« اي الكسي فرونسكي .. ان الامر الذي يعيننا بالدرجة الاولى هو هل يشج بيننا حب ؟ هل تصل بين قلوبنا عاطفة ؟ هل يربط روحينا اخلاص حياتنا الان ، هذا هو الهواء الذي نتنفس ، والضياء الذي تبصر الدنيا من خلاله ، اما الناس الذين يتبعون المادية ، مادية السفسطة والهذر وقلّة الحذر في ما يقولون وفي ما يفعلون ، فلنسا تقيم اهم وزنا ! وسابقى معك لانى اهو اك » .

وصعد فيها طرفه الماخوذ - انها بارعة الجمال ، ان كل جزء في قدها يسبح حمدا لمن سكبها في هذا القالب ، ولكنه كان متأثرا من شدوذاها ، فقال بامتعاضة :

« وهل لي حاجة الى اثبات صدقنى ومحبتى ، الست الان عاشقا يضرع الى محبوبته ان تعدل عما وطدت النفس عليه فلا تذهب الى الاوبرا ؟ » .
فقالت : « انت غامض الليلة يا فرونسكي ، ولست ارى في ذهابى ماخذ او سبب .. فالامير ياشفين صديق امين ، والاميرة العجوز افضل من سواها ، فماذا في ذهابى معهما ؟ » .

وذهبوا الى دار الاوبرا ، ذهبت انا بصحبة الامير ياشفين ورسول الاميرة بتسي ، وتبعهم فرونسكي بعد ساعة . فلما غشى المكان كانت الأنوار تشع متوهجة . وكان الجميع بصفقون بحماس منقطع النظر للممثلة المغنية .

واجال فرونسكي طرفه في الحشد فشاهد وجوها جميلة يعرفها ورأى رجالا كثيرين كانوا فيما مضى يخطبون وده . ولاحظ ان الكثيرين والكثيرات يتجهون ابصارهم الى احدى المقصورات ، فأيقن انها مقصورة انا ، فنسوب اليها نظره من وراء المنظار الكبير ، ورآها .. رأى رأسها الصغير الجميل ، وتبين افتراواتها الساحرة العذبة ، واستطاع ان يلمح الشعلة التي أبتثقت من وجهها ، وكذلك الهالة الساطعة التي احاطت ذلك الوجه الغائن .

ومع ذلك فقد خيل اليه ان جمالها فقد كثيرا من رونقه السابق .

فجأة استرمى انتباهه حركة غير عادية في المقصورة المجاورة لمقصورة انا ، فركز منظاره عليها ، وتعرف على من فيها - وكان فيها عائلة من العائلات الوثيقة الصلة بانا ، وكانت ربة تلك العائلة قد همت بمعطفها ترتديه بعصبية

ظاهرة ، بينما وقف زوجها ، وهو يحاول ان يهدىء من لثرتها .. وخرجت المرأة ، وتلكا الزوج وجعل يختلس النظرات الى وجه انا في ضراعة واستجداء . ولكننا تجاهلته لثت تجاذب اصحابها اطراف الحديث ، وان بدا جليا انها ومن معها كانوا قد اصابهم قلق واضطراب لما حدث في المقصورة الجاورة .

وعجب فرونسكي ولم يفهم ما حدث ، بيد انه ايقن ان المرأة التي تجلس في تلك المقصورة تعمدت ان تلحق الاهانة بانا .

وشاء ان يعرف الحقيقة ، فسارع الى مقصورة شقيقه ، فالتقى زوجته على باب المقصورة ، فصافحها ووقف يحادثها .

وقالت فاريا : « يا للمرأة الوفحة ، لقد ارتكبت امرا دنيئا .. » .

قال : « وماذا حدث ؟ »

قالت : « اما سمعت ؟ »

قال : « كلا ، لم اسمع ، فماذا جرى ؟ »

قالت : « كانت انا كارثينا تتجاذب اطراف الحديث مع السيد كارناسوف ، عندما هبت زوجة الامير واقفة وتقهوت بمباراة نابية ، ووصمت انا بالنقصية ، ثم غادرت المكان .. » .

ففكر فرونسكي مليا ، وبينما هو ينصت الى فاريا ، دنا منه شخص وطلب اليه ان يلم بامه فهي ترغب في رؤيته .

فعمسى دون ان ينطق بكلمة ، ودخل على امه فحياها وسألها عن حالها ، فقالت وهي تنظر اليه نظرات ذات معان :

« اراك مبتعدا عنها ، فلم لا تذهب اليها ؟ اما ترى جمالها الفانس ؟

اما تراه يزري بجمال المغنبة الاولى ؟ ! » .

فقال محتدا : « اقصري ، اقصري .. »

قالت : « هذا لسان حال الجميع ، وانا اردد كللمات الناس ، ليس الا ! » فظلت فرونسكي حوله ، ثم غادر امه وهو يكاد يتفجر من الغيظ .. وقد نغم على انا مجيئها الاوبرا ، وسخط كثيرا لرعونتها .

وسارع متجها الى مقصورتها ووقف لتقاءها . فلما رآته قالت ساخرة :

« ها انت قد جئت اخيرا ، ولكن .. ولكن .. » .

وأطفئت الاوتار ، فعاد من حيث اتى ..

وحانت منه التفانة بعد حين فالغى مقصورة انا خالية فنهض من مكانه وغادر الدار مسرعا ، وانطلق الى الفندق وقلبه يفيض الما وحررة .

ودخل قاعة الاستقبال الملحقة بجناح انا ، فراها تجلس على الاربكة

بملايس السهرة ، وقد شخصت الى الامام بطرف شارد بانس .
 ورائه انا فتللمت . وهتف هو بصوت شديد : « انا .. » .
 ووثبت من مكانها قائلة : « فرونسكي ؟ انت السبب .. » .
 قال : « بل انت .. انت مجنونة .. الم ابتهل اليك ان لا تذهبي ؟ انم
 اضرع ان تمكثي معي هنا ؟ » .
 قالت : « اواه ! ما ابشع كلام هذه المرأة الوقحة .. لقد قالت لزوجها :
 ابتعد .. ابتعد .. لا تجلس قريبا من هذه المخلوقة اللطخة ! »
 قال : « او تقيمين وزنا لثرترة بلهاء ؟ »
 قالت : « اني اكرهك .. اكره بروذك وجمودك ! » قال « برودي
 وجمودي ؟ »

قالت : اجل .. لو كنت تحبني لما ذهبت الليلة الى دار الاوبرا ..
 ورئت اليه بطرف مخضل ، فكاد دمه يسيل من عينيه وشعر
 بالتماسة ، ورئى لها ، وجعل يلقي على مسامعها كلمات الحب .
 وهدات انا ، فدنئت منه وقبلته .. ونامت في تلك الليلة قريرة العين
 ناعمة البال .

* * *

كانت داريا واولادها الصغار قد توجهوا الى قرية ليقين زوج كاترين
 ليقضوا مع الزوجين جانباً من فصل الصيف . وهناك بلغهم نبأ رجوع
 فرونسكي وانا الى مزرعته . فازمعت داريا ان تزور انا . ومع انها كانت
 تعلم بقصة فرونسكي وشقيقتها ، وما تبع تعرف الشاب بانا من حوادث
 صرفته صرفا عن شقيقتها ، الا انها لم تر في كل ذلك ما يعيقها من زيارتها .
 ووصلت داريا بعد مسيرة نهار كامل في العربة ، فاستقبلتها انا اجمل
 استقبال وقبلتها وهي تقول :

« ربما عجبت يا عزيزتي لما اظهره من سعادة وهناء ، وبالرغم مما لحق
 بي من مناصب .. الا فالي ان العصا السحرية قد اصابت قلبي . فنجوت
 من حياة مرهقة ممضة مقيتة ، لاطفر بحياة هائلة سعيدة » .
 واختلست الى شيفتها نظرة متأمل . وقالت :

« وهذا يملا قلبي سرورا يا انا . بيد اني ظالما تساءلت ان سبب
 امتناعك عن الكتابة الي ، فلماذا يا ترى لم تكتبي ؟ » .
 قالت : « تساليني لماذا ؟ اعلمي اني لم اجرؤ على الكتابة » .
 قالت : « لم تجرئي ! وهل تخافين مني ؟ »
 قالت : « وكيف تنظرين الى حالتي ؟ وماذا تظنين اني جديرة بفعله ؟ »

« لا أريد أن أبدي رأيا ، اني احبك وقد احببتك دائما .. »
وترقرقت الدموع في مقلتي انا ، فنكست رأسها وظهر عليها التردد ،
وما ليثت ان قالت : « مهما رأيت في فأنا جد مغتبطة لقدومك » .
ورأت داريا دموع صديقتها ، فتألزت كثيرا ومدت يدها فريبت على
صدرها وهي تقول : خففي عنك يا انا ، اصبري ولا تستسلمي للياس » .
فابتسمت انا وقالت : « الا تستطيعين ان تمكثي معي بعض الوقت ؟ »
« كلا يا عزيزتي ، فاني لا يمكنني ترك اطفالي لوحدهم » .
فأمسكتها انا من يدها ومشت معها الى ردهة الاستقبال ثم جلست
بجانبها على اريكة وثيرة وجعلت تحدثها وتسالها عن شؤونها . وما ليثت
داريا ان حدثتها عن بنيتها وبناتها ، وعن توبة زوجها - شقيق انا - وطفعت
بعد ذلك تسالها عن حياتها في الريف وعن مدى شوقها الى ابنها سيرج .
وشاءت انا ان تحول دفة الحديث فقالت : « لكم كنت اتعنى لو
دهوتكم الى قضاء بضعة ايام معنا في مزرعة فرونسكي » ..
وتصاعد الدم بغثة الى وجهها لدى ذكرها اسم عشيقها .
واجابت داريا بلسان متلعثم دل على حيرتها :

« هذا جميل ولكن .. ولكن .. » .

وسارعت انا تقول : « انني اهدي ، واردد اقوالا لا تتحقق ، ولعل
زيارتك المفاجئة جعلتني اتخلى عن وقاري . اما ما اود ان ابيته لك ، فهو
انني امرأة اختارت ما رآته مناسباً لها حتى تقضي ايامها في عيش حلو » .
وجاء فرونسكي فاصطحب المرأتين الى الحديقة ، ثم استقلوا زورقا
صغيرا رادوا به النهر . وقد سرت داريا من المناظر الخلابة التي شاهدها ،
كما ان فرونسكي وشخصيته الجذابة ساهما كثيرا في مضاعفة سرورها .
ولم تملك وهي تتأمل في الشاب ، ان ناجت نفسها بقولها : « انه نعم
الشاب جميل ، ولا شك ان انا مملودة في تعلقها به » .

ورجعوا من النهر فجلسوا في الحديقة ثم جلسوا خلالها وانتهم فرونسكي
فرصة ابتعاد انا عنهما فاتشأ يحدث داريا ويقول : « انك كما اتق صديقة
مخلصة لانا ، وتقدرين مصاعبها ، كما تقدرين موقفها الحرج بالنسبة
للمجتمع » .

فقلت داريا : « اجل انني صديقة ومحبة ، ولكن .. »

فقاطعها قائلا : « واشعر اني المسؤول عن كل ما لحق انا من مكروه ،
وهذا بضاعف همي وبضيف الى حملي الثقلا كثيرة » .

« لا تكن مسرفا في التشاؤم يا صديقتي ، انك شهم ، بيد ان غلوك في
تحمل المسؤولية خطأ لا يبرره شيء . »

« كلا ، بل انا اللوم .. واعلمي ان انا تعيش في جحيم من الفكر » .
 بيد انكما غادرتما بطرسبرج وخلصتما من تلك الهمسات المجرمة التي
 فتحت كلوم انا ونكات جروحها ، وان اتتما ثقليتما عن المجتمع دون ان
 تاسقا على ذلك ، حزتما الراحة النفسية والهدوء والاستقرار .
 « اصبت يا داريا ، واصدقك ان انا قد تغيرت كثيرا منذ مجيئنا ،
 وهي تبدو الان منشرحة مفتبطة .. فهل تدوم سعادتها ؟ وهل بتركنا الناس
 وشأننا ؟ لم ، هل نستطيع نحن ان نستمر وان ننجب الاطفال دون ان نشير
 ضجة حولنا ؟ وكيف لنا ان نعلمنا ان تكسو اطفالنا بالصفة الرسمية ، الصفة
 التي تبعد عنهم العار والشنار ؟ - والقانون يا داريا ، القانون مقبة لا يسما
 نخطيه : ان لي ابنة من انا ولكنها في نظر القانون ابنة الكسيس كارنين ؟
 وان انجبنا غدا وادا اخر ، فهو ايضا ابن الكسيس كارنين ، وهو على ذلك
 لا يحمل اسمي بعد موتي ولا يرث مالي » .
 « واننا لو ابينا من الهناء اكمله ، فسيفقنا دالما امر ، سنفسر الى
 الصلة الرسمية التي اوجبتها التقاليد ، واحالت منها حقيقة معترفا بها
 في كل مكان » ..

وتأوه فرونسكي وصمت ، لم استثلي ؛
 « انت ولا شك تقدرين هذه الوضعية .. واني كلما فانت انا بهذه
 المسألة ، يتأجج نار غضبها ، فتثور كائرتها .. فانا لا نود ان نرى الحقيقة ..
 وانا احبها ، ولكن الحب ليس كل شيء ينبغي لرجل ان يعنى به في حياته .
 واجابت داريا : « اصبت ، واني اترك على كل ما ابدت ، ولكني لا
 اجد الوسيلة الكفيلة بوضع الامور في نصابها ، فماذا تستطيع ان تفعل
 بربك ؟ قل ، الديك رأي ؟ » .

صمت الشاب وبان الحزن في تقاطيعه .
 قال : « اجل ، علي انا ان اتدبر الامر ، عليها ان تحصل على الطلاق ،
 قبل ان ارفع الى القيصر رجائي باقرار شرعية ابنتي والحاكما بعائلتي بصفة
 رسمية .. ولا يتطلب هذا الامر جهودا كثيرة ، فكارنين مستعد لتسهيل
 الطلاق ، ويتحتم على انا ان تطلب اليه ذلك في خطاب ترسله في القريب
 العاجل .. قد انجني عليها ان طالبتها باتباع هذه الخطة ، ولكن لا بد مما
 ليس منه بد ، ان لك دالة الصداقة عليها ، فاختمي بها وكلمها ! » .
 قالت : « ساقفل ذلك ، لن اناخر » .
 قال : « اشكر لك عطفك واخلاصك يا سيدتي » .

في تلك الليلة وقبل ان تلوذ داريا بفراشها جاءت انا الى حجرتها بملابس النوم وجلست بجانبها . وكانت قد اعربت لها قبل ذلك عن رغبتها في التحدث اليها في ساعة يخلوان فيها الى بعضهما البعض .

فلما جاءت في تلك الهدأة من الليل ، احتارت في امرها ولم تدر من اين تبدأ الحديث . كان رأسها مغمما بالفكار التي ازمنت ان تفضي بها الى داريا . على انها ما كادت تخلو حتى للمجم لسائها واختلط تفكيرها ، فجعلت تحدد امامها وتحاول جاهدة ان تركز تفكيرها على نقطة واحدة .

ورات اخيرا ان تبدأ بالسؤال عن كاترين شقيقة داريا ، فتساءلت ان كانت كاترين غاضبة منها ، وان كانت تكن لها الكراهية والاحتقار .

وقد اجابتها قائلة : « انها لا تكرهك ، غير ان مثل هذه الامور لا تنسى بسرعة ، ويتعلم على الانسان ان يفتقرها بسهولة » .

قالت : « اصبت ، على اتي لا الام على ما حصل ، ولا ادري من هو الموم .. ولا ادري ايضا ان كان من الواجب ان نلوم احدا .

قالت : « قد تكوني محقة في تفسيرك ولكن الانسان ضعيف لا يتسنى له معالجة الامور بمثل هذه الطريقة الفلسفية » .

« وكيف تعيش كاترين مع زوجها ؟ اسمعده هي معه ، اموفقة في زواجها منه ؟ » انها سمعده كل السعادة واخال ليفين انبل رجل عرفته في حياتي .

« وهذا من دوامي سروري يا عزيزتي ، فكاترين حسناء جميلة تستحق كل خير » .

« دعينا من حديث لا طائل تحته ، واخبريني عن نفسك ، فقد تحدثت مليا مع فرونسكي اليوم ، وطرقتنا موضوعا حساسا يتصل بك » .

« وما رايتك لي ؟ ماذا ترين في حياتي ؟ »

« وهل استطيع ان اشرح هذا الموضوع الشالك بسهولة وارتمجال ؟ »

« لا تهابي ولا تفهمي ، وقولي رايتك الصريح بايجاز » .

« وفري علي يا انا ما احب ان اخوض فيه ، ولديني اثبتك بحديثي مع فرونسكي ؟ » .

طلب ان احقق الطلاق .. وهل تظنينني لا اطمح ببصري الى بلوغ هذه النتيجة ، هل يخيل اليك اتي اطيق مواصلة هذه الحياة الشاذة بعد الذي امتحنت به في بطرسبرج ؟ لقد تجنبتني الجميع هناك ووصل الامر بتسي نفسها - وهي احط مخلوق على وجه الارض - الى تجنبي والتهرب مني » .

« ان فرونسكي يا عزيزتي متوجس وهو يبغى استكمال سعادتته

بزواجه منك طمعا في استرداد اعتبارك ورميتك في تعزيز وضعيتك ابنتك .
« علي اني اكثر من خضع له النساء ، فماذا يبغى اكثر من ذلك ؟ » .

ان فرونسكي شريف مخلص وهو يربا بنفسه عن ان ترضى لك بالامتحان والشقاء ، وفوق ذلك فهو ، شأنه في ذلك شأن كل اب ، ينظر الى المستقبل ، ويعمل لخير اولاده ، اليس الفتاة ابنته ؟ ثم الا يأمل في مزيد من الاولاد ؟ .
« كلا ، كلا ، فهذا امر دونه خرق القناد ان انجب اطفالا اخرين لقد قال لي الطبيب ذلك واكده » .

« فما رأيك بشأن الطلاق اذن ؟ » .

« ارجوك يا داربا ان تكفي على التلفظ بهذه الكلمة » .

« ولم ذلك ؟ اتوكل الصراحة ؟ » .

« كلا ، ولكني لا ارى لمشكلتي مخرجا ، اني كالفريق لا تنفعه قطعة من خشب » .

« اي ! ابك وعكة ! ام هل انحرف تفكيرك الى اتجاه اخر : الا تطلبين الزواج من حبيبك ؟ الا ترغبين في ذلك » .

« انها الحقيقة الخالدة في نفسي ، واني افكر في هذا الامر اثناء الليل اطراف النهار ، ولا استطيع للنوم سبيلا الا متى تعاطيت المخدر .. وفوق ذلك تقى ان كارئين قد عدل عن منح الطلاق وذلك بتأثير تلك المرأة التي هيمنت عليه وعلى منزله في الاشهر الاخيرة » .

ففكرت داربا قليلا وقالت : « علي ان هذا الاحتمال لا يمنعه من المحاولة » .

قالت : « ان كل محاولة من هذا النوع ترجع علي بالمذلة اني متى اكتب له ، اكتب كارهة مرعبة وَاكون بمثابة المرأة التي تعترف بذنبها .. ولو سلمنا جدلا انه لم يرفض بل لبس طلبى بداع من الشهامة والشفقة ، فان اكون من ابني ساحرم منه ، سيحال بيني وبينه ، وسيراض على احتقاري ولمي .. اني احب سيرج واحب فرونسكي ! » .

وانتصبت واقفة وجعلت تدرع الغرفة بخطوات سريعة تدل على انفعالها . ولم تلبث ان تمهلت امام داربا وقالت وهي تحدجها بنظرة براءة :
« انهما الشخصان اللذان احبهما واؤثرهما .. انهما الشخصان اللذان افكر فيهما .. وكل واحد منهما يحاول ان يقصي الاخر عن حياتي .. وانا اعلم علم اليقين انه يتعذر علي نيلهما معا والحصول عليهما في آن واحد .. وما دامت هذه الامنية بعيدة كل البعد عني فلم يعد لي في حياتي هدف او مطمح ، وليجر ما يجري . فلست ابالي ! » .

« انا ... »

« انك طاهرة القلب يا داريا صافية الاحساس ، ومن الحال ان تفهمي ما اقامسيه ، من الحال ان تدركي ما اعانيه » .
وعادت فجلست بجانب داريا ، وتناولت يدها بلطف ، وقبلت وجهها وانشأت تقول :

« انت مستغرقة في الفكر ، فترك عميق الغور .. واخشى ان يكون احتقارك لي قد تضاعف .. فلا تغطي ، ولا تحتقربي ، فانا ناعسة عائرة ، انا شقية لاغبة .. انا امرأة وجدت لاشقى ، وما وجدت الالاموت شقية ! » .
واجهت انا ، ثم استخرطت في البكاء . واندفت خارجة ، وولجت فرقتها فجمعت دواءها المشتعل على المورقين ، وما لبثت ان استلقت على فراشها واستسلمت للرقاد .
وقلت داريا في اليوم التالي راجعة من حيث انت .. رجعت الى بيت ليفين وهي تحمل في ذهنها من الذكريات ما لا يزول او يمحي .

★ ★ ★

تعاقت الايام ، وولى الصيف ، وانقضى جانب من الشتاء وما برح فرونسكي وانا يقيمان في الريف ، كما كانا يعيشان منذ اشهر ، دون ان يتخذوا الخطوة الحاسمة التي تقرر مصيرهما .
وفي نوفمبر من ذلك العام عين موعد الانتخابات المحلية في ولاية كازنسي حيث تنتشر املاك ليفين وفرونسكي واوبلنسكي وسواهم .
وقد اهتم الجميع لهذا الحدث وتوافد الناس الى الولاية من المدن الكبرى . وشاء فرونسكي ان يشارك في الممعة مؤيدا احد المرشحين ، وهو صديق حميم له . وافضى لانا بما عول عليه . غير انها عارضته بشدة ولم ترضخ له ، وحصلت بين الاثنين مشادة عنيفة كان لها اسوأ الاثر على فرونسكي .

واصر فرونسكي على الذهاب ولما سافر ودعته انا بهدوء لم ينتظره . ولم ترد على كلمات الوداع التي سؤالا لبقا عن موعد اوبته .
فتجاهل السؤال وتعنى لها ان لا تضجر من الوحدة اثناء غيبته .
وذهب فرونسكي وهو يحدث نفسه ويقول :

« لا ، لا ، كل شيء الا هذا .. اتي اقدم لها ما تريد ، واضحي من اجابها بأكثر مما تريد ، خلا حريتي ! »

الا انه كان يعلم علم اليقين ان اشتراكه في معركة الانتخاب كان في الحقيقة بحافز من الملل الذي شاب حياته في الريف وكذلك بدافع من رغبة في الظهور امام نفسه وامام انا بمظهر الرجل الحريص على حريته واستقلاله .

وبينما هو في اليوم السادس منهمك في الاحتفال بفوز صديقه ، وقد احتشد قوم كثيرون في قاعة كبرى ، اذ برسول من قبل انا ياتيه ويعطيه كتابا منها .

وعلم فرونسكي قبل ان يقرأ الكتاب ان انا تمنعه فيه على امتداد غيبته وتطلب اليه الرجوع دون ابطاء .

وقال يخاطب نفسه : « طفلي في خطر الموت ، وانا محتاجة تود ان تقيم الدنيا وتقعدها بحثا عني .. وانا محتار .. فالى اين المصير ؟ وما هي النتيجة ؟ » .

وناء كاهله بهذا العبء ، ويرم برما شديدا ، ولكنه رأى انه مكره على العودة دون ابطاء . وهكذا استقل القطار في طريق العودة .

قبل ان يذهب فرونسكي في سبيله مغضبا ، عقب المخاصمة التي شجرت بينهما ، شعرت انا انها ان استمرت تخلق المتاعب كلما اعرب عن رغبته في السفر ، فسياتي ذلك الوقت الذي تفقده فيه السى الأبد ولهذا عزمت عزمًا أكيدا على ضبط مشاعرها وكبح جماح غيرتها .

بيد انه ما كاد يغادرها في ذلك اليوم ويوعدها بتلك اللهجة الجافة وينظر اليها تلك النظرة القاسية حتى استعرت نار جفونها ، فلم تقو على كتمان ما بها بل لدرفت دموعا غزيرة .

وأيقنت ان نظرته كانت صرخة تمرد - فهو يسترد حرته ، وهو يصير على استعدادها .. وله ملء الحق فيها :

واستعرضت في مخيلتها ما جرى بينهما ، وما وقع في تلك المرة بتفكيرها على كل صغيرة وكبيرة من تصرفاته معها في الاونة الاخيرة ، ان حبه لها قد ذاب .

وشغلت نفسها بأمور كثيرة حتى لايمضها التفكير ، وتعاطت كميات كبيرة من المورفين المخدر اثناء الليل حتى يخف لها تحت تأثير هذا العقار اقر رابها اخيرا ان تفعل المستحيل للحصول على الطلاق من زوجها ، فهذا اسلم سبيل .

ومضت الايام ولم يرجع فرونسكي ، وانقضت ستة ايام ، فطارت نفسها ولما اصابته طفلتها الحمى اهتمت في العناية بها ، بيد ان ذلك لم يشغلها عن قلقها وتوجسها .. وما عتمت ان كتبت له رسالتها المقتضبة ولما جاءها الرد في اليوم التالي ، وفيه اعتذار رقيق ، واسباب أوجبت

تأخره ، خالجه شعور بالندم شديد واشفقت ان يقدفها لدى اوبته بتلك النظرة المخيفة التي رمقها بها يوم سفره .

واحست انا وحزنها يتكالف انها امست حملا ثقيلآ على عاتق فرونسكى
بل كابوسا شديدا يضغط على صدره باستمرار .

بيد انها لم تقم وزنا كبيرا لهذا الامر . بل جلست في تلك الليلة
الموعدة وقد تزينت بابهى حلقها واقبلت على كتاب تقرا فيه ، وهي تصفى
لاذنى حس ويخيل اليها كلما حرك الريح بابا ان فرونسكى قد وصل ، فتهب
واقفة ، ويتصاعد الدم الى وجهها !

وجاء اخيرا ، فارتعدت بدنها ، وانبهرت نفسها ، وخافت من لقائه ، كما
خافت من فراقه . . ونقعت في قراراتها على الطفلة ، فقد استرجعت صحتها
بسرعة ، وربما ادخل ابلاها الريبة الى قلبه ، فنسب اليها انتحال الاكاذيب
لحثة على العودة فلما سمعت صوته يحدث الخادم ، زایلها شعور اخر الا
شعور الحب والشوق ، فهولت اليه ، وهتفت باسمه محتفية .

وسالها قبل ان تدنو منه عن الطفلة ، فصددها السؤال ، فقد كانت تود
من صميم قوادها ان يسالها قبل كل شيء عن نفسها وعن حبها .
ولحظ هو خيبة الامل التي ارتسمت على اثارها ، فتدارك الامر
وسالها عن حالها . فانبسطت اساريرها ، وتناولت يده ووضعته على قلبها
.. فادرك ما تعنيه ، وابتسم وقال :

« هذه من دوامى جدلى يا انا ، ان قلبك يخفق لى ! » .

ورمقها بنظرة متاملة متفحصة ، فخيل اليها ان فى عينيه لرجا . . .
واقشع جلدھا ، وارتعدت فريصتها .

ولم ير هو ما اسابها ، بل مضى ينظر الى صغبرتها ، ووجهها وهندامها
ولم يسه الا الاعتراف بانها اجمل النساء واكثرهن فنة . . ولكن ، الم
يعلمها الم يبرم بالحياة معها !

على انه اعترف فيما بينه وبين نفسه انه لا يزال كلفا بها مولعا
بشخصها . . ولهذا استجاب لدامى المتعة ، فقضى معها هزيعا من الليل .
وسر فرونسكى ، ورجع اليه كثير من حبه لانا ! بيد انها حطمت فى
لحظة ما بنته فى ساعة ، فقد سألته عن وقع كتابها على نفسه وهل اغضبه
فيه لهجة صارمة او كلمة نابية !

وقطب فرونسكى ساعة حديثه انا بمثل هذا الكلام ، واعترف بانہ
اشمأز من الكتاب ، وانه اعجب للتناقض الوارد فيه ، فهى تهيب به فى اوله
ان يرجع لان ابنته مريضة ، ثم تخطر في نهايته بانها قادمة للبحث عنه ان
تخلف !

وشعرت انا بالكتابة - انه لم يصفح عنها - وعجلت تقرر : « ولكن
الطفلة كانت مريضة » .

قال : « ولا شك في هذا ابدا ! »

قالت : « بل ترواب وتظن بي الظنون ! »

قال : « كلا .. كلا .. اتما انا احيانا آخذ عليك تشبثك بأمور صعبة

التحقيق - فثمة واجبات تقتضي التفرغ لها ولكنك لا ترغبين في ان اتسوم
بواجباتي ! غير اني ارى ان تقصر الان وتكف عن هذا الكلام ! »

ولماذا نفعل هذا ؟ لماذا لا نتحدث فنفهم ما استعصى على الفهم ؟ .
وقد اضطر الى السفر الى موسكو ، فاذا حصل ذلك ثارت ثائرتك .
فلم ذلك لماذا لا تكبحين جماح انفعالك ؟ الا تستطيع ان اتمتع بحريتي ؟ .
« اراك سئمت الحياة معي ، وها ائتدا تنسج على منوال غيرك ،
فتنتحل الاعذار لتسافر ! » .

« اشرعت من جديد لتصقين التهم يا اتا ؟ »

« واعلم اني مرافقتك الى موسكو ان حدثتك نفسك بالسفر ! »

« في هذا سروري كله .. بيد ان علينا قبل كل شيء ان نسوي الامر ..

نسويه بحيث ... » .

فقاطعته : بحيث تستقيم الحياة اليس كذلك ؟ ساسمى الى تحقيق
الارب الاكبر ، ساكتب الى كاترين في امر الطلاق .. اما الان فتق اني ذاهبة
معك الى موسكو ! » .

« ولم التهديد ، الا تعلمين اني اكثر منك رغبة في ذلك ؟ »

وابتسم والتمعت عيناه .. ولم تكن نظراته جامدة في هذه المرة بل
انطوت على شيء يفوق الجمود والبرود ، شيء يتعداهما ويدهما .. انطوت
على كراهية انسان لآخر - كراهية منشؤها الاضطهاد والاسراف
في الاضطهاد .. بل منشؤها التنكيل بالمشاعر والاحاسيس !

ورأت عينيه ، رأت ما ائبثق منهما ، فالتامت وارتاعت .. وفهمت ان
الحظ ولي الى غير رجعة .

ولكنها كتبت الى زوجها تطلب الطلاق .

وفي اخر نوفمبر سافرت مع فرونسكي الى موسكو .. وعلقت تنتظر
رد زوجها بفارغ الصبر .

وعاشا في منزل صغير في موسكو ولبثت اتا تمنى النفس وتعلها بالفرج
القريب .

علقت تحصى الساعات والايام . علقت تعلم في اليقظة كالنمام .

ورأت نفسها زوجة لفرونسكي . ورات نفسها كما كانت من قبل .

معززة مكرومة مبيجة ؟

شاه القدر كما علمنا ان يعقد ليفين على كاترين .. ومع ان الفتاة

أغرمت بفرونسكي ، الا ان هذا القدر العجيب ادى في اخر لحظة أن يجمع بين
فرونسكي وأنا ، فشهد بذلك لليقين طريق السعادة والتوفيق .

وحملت كاترين وحن وقت الوضع ، ففادرت المزرعة مع زوجها الى
موسكو لتكون قريبة من امها ، وليشرف عليها طبيبها الخاص .

والتقت ذات ليلة بفتى احلامها الاول - فرونسكي - في بيت صديقة
لها . . . فلم ييدر منها ما ينم عن انفعالها ، بل حبه وصافحته بهدوء وثقة
كما لو انها صادفته لأول مرة في حياتها . .

وشاءت الصدفة ان تجتمع في ليلة اخرى بين فرونسكي وليفين وستيفان
اوبلنسكي شقيق انا . وكان ليفين في تلك الليلة كريما سمحا .

وقد اقبل ستيفان يحدث فرونسكي ويساله عن شقيقته ، ثم عطف على
ليفين يقول متسائلا : « او لم تجتمع بعد الى شقيقتي انا ؟ ألم تحدثها في
حياتك ؟ » . فاجاب ليفين : « كلا ، وهذا لسوء حظي » .

ونفض فرونسكي وهو يقول : « فلنذهب اليها اذن ، ستر بمقدمنا » .
ولكن ليفين احس ببعض الندم عندما استقل العربة مع صاحبيه ،
وتساءل عن وقع هذه الزيارة على زوجته ، وتساءل ان كانت زوجته تقرأه
على عمله متى اخبرها بذلك . .

وكان اوبلنسكي فطن الى ما اعتزل في قلب ليفين فسارع يقول حتى
يصرفه عن هواجبه : « ان من دوامي فخري ان تجتمع الى شقيقتي انا ،
وما اكثر ما طلبت داريا مني ان اجتمع بها ، انها امرأة مذهشة ، ذكية ،
جميلة ولا شك في انك ستعجب بها بالرغم من آلامها واسقامها ، وبنوع خاص
في هذه الايام ! » ماذا تعني بقولك ؟

« اعني انها تكابد الامرين في السعي وراء غايتها وبلوغ وطرها واقتناع
زوجها بمنحها حريتها . . لقد وافق كارنين ، الى ان العقبة الكدباء القائمة
الان هي ابنتها سيرج . . وما من سبيل كما ارى الى تمهيد الطريق ، وحل
العقدة العسرة . . ان اتا لن نعتم ان تنزوج من فرونسكي متى صودق
على طلاقهما ، ولكن هذا امر يطول ، فالاجراءات مضية هنا ، وتمتعط . .
بل اكاد اقول انها تشابه مع الزمن . . على ان الامور ستستقيم عقب
انتهائنا من هذه الاجراءات » .

« انها تنتظر الطلاق وتعمل من اجله كما قلت ، فماذا يرمضا اذن ،
وماذا يتقل عليها ويكظها ؟ » .

« الناس يا صديقي . . فالانسان مداهن متائق ، ولق ان امر صديقة
لها قد تخلص منها في محنتها . . ولهذا آثرت انا الاحتجاب والانزواء . .
» وما قولك بطفلتها ، اهي متفرقة لها ؟ » .

« كل التفرغ ، ترعاها رعاية حسنة وتنشئها افضل تنشئة .. ثم اعلم انها اديبة وفتاة ، وهي منكبة في هذه الايام على تأليف بحث صاف عن الطفل والعناية به .. » .

ونظر اوبلنسكي مليا الى ليفين ، واستأنف :

« لا تسخر من فولي ، لقد قدمت نسخة مما كتبت الى اشهر اديب في موسكو ، الى « فوركيف » فابدى اعجابا ، وحث انا على اتمام الكتاب في اسرع وقت مستطاع .. لقد اخبرني هذا الاديب ان انا امرأة ذات قلب كبير ، وأعقب يقول : ان القلب الكبير عماد الادب والفن ! » .

« وهل تبغي انا المضي في طريق الكتابة والتأليف ؟ » .

« اراك مسرفا في عدم التصديق ، الا فاعلم ان كل كلمة قلتها لك هي الحقيقة » . وبلغت العربية الدار فترجلوا . وسال ليفين نفسه مرة اخرى وهو يعبر الدهليز ان كان مجيئه عملا لا غير عليه .

ونظر في مرآة كبيرة الى وجهه ، ليهت معارآه من احمراره .. وتقدم في الدهليز ثم انشئ وراء اوبلنسكي وفرونسكي فصعد في درج هريش فرش بالبسط . ولما وصلوا قاعة استقبال متوسطة الحجم ، سال فرونسكي عن انا فأخبره الخادم انها منهكة بالحديث مع « فوركيف » ناشر كتابها .

وتوجه الثلاثة الى المكتبة . ولكن ليفين لم يدخل وراء فرونسكي وسيفان اوبلنسكي ، بل جمعد في مكانه ساعة لمح رسما كبيرا معلقا على الحائط .. نظر ليفين مشدوها الى الصورة الزيتية الرائعة ، وكانت لانا ، وقد ادرك ذلك .. وكان احد فناني ايطاليا قد رسمها اثناء اقامتها هناك . وملى ليفين طرفه في الصورة ولبث يحدق فيها ، وكان جاذبا معنفا تيد لحظه .. وكانت الصورة تنطق وكأنها شخص من لحم ودم .. كانت الصورة لسانا يتكلم ويشرح .. وكانت كأن الحياة تنبعث منها .. وتتل ليفين طرفه من الوجه الى العنق الى الدراعين .. وآمن ساعتئذ انها اجمل من وجد من النساء ان كانت نسخة صادقة عن صاحبها ..

وطرقت سمعه ضحكة خافتة ، فأجفل وانشئ ينظر .. وراى في تلك الوهلة صاحبة الصورة ، راى الحقيقة متجسمة في جسد حي - فيا للفتنة! انها فانتة حقا . . واحنى لها عامته باحترام وتبجيل ، وآمن انه لم يرتكب خطأ بقدمه !

ومدت انا له يدا ناعمة رخصة ، وصافحته بلباقة ، ثم تكلمت معه بضع كلمات .. وما لبثت ان قدمت لاصديقها الكاتب .

وايقن ليفين مما لاحظته من حركتها و اشارتها ، أنها خير امرأة تستطيع ان تتصرف وتتكلم ، انها مثال رفيع لطرز ارفع من النساء !
وسمعها تقول بصوتها الحلو الموسيقي الجرس . « هذا شرف عظيم ..
قدمك افرحي ، فاهلا بك وسهلا .. لشد ما انا مقتبطة ! واصدقك انسى
سمعت بك وعرفت شخصيتك منذ فترة من الزمن » .

وكانت انا اثناء ذلك تنظر الى ليفين تتحول بناظرها الى اوبلنسكي
وفرونسكي . واصفى ليفين ، وزالت هيئته ، وشعر كانه يعرف المرأة الفاتنة
منذ سنين وسنين ... وانبسطت اساريره فاصاح لها معجبا منسرحا .
وقال اوبلنسكي موجها الحديث الى ليفين :

« وما رايك في هذا الرسم الزيتي يا صديقي ؟ »
فالتفت ليفين اليه ، ثم حدد طرفه ثانية في الصورة ، وما ابطا ان قال :
« الحق يقال انها لوحة قلما وجد مثلها في ارتفاعها وروعها وطول
باع راسها .. لا سيما والشبه عظيم الى درجة مذهلة بينها وبين الاصل ! » .
واستدار نحو انا وجعل يحذق في محياها وكأنه يود ان يلتهم هذا
الحيا بعينه ! وتثعب الحديث . ودهشت انا ، واعجبت بالرجل ، وبان
ميلها بوضوح في اساريرها ..

وخاب عن ليفين ما كان يخشاه ، ولم يعد يذكر الا شيئا واحدا - لم
يعد يذكر الا وجوده مع هذه الالهة ..
واستأذنتهم انا في الخلوة بعض الوقت بشقيقتها فدلنوا الى القاعة ،
وذهبت هي مع ستيفان الى مكان اخر . .
وتسائل ليفين عما يتحدث الشقيق مع شقيقته . اترى تحدثه عنه ؟
ام عن فرونسكي حبيبها ؟

ثم اجتمع شملهم ثانية ، وتناولوا سوية شراب الشاي الساخن ، وكان
ليفين طيلة الوقت يتأمل في انا ولا يود ان يرفع عينيه عنها ..
وقد لام نفسه على ما تهور فيه قبل اليوم من اصدار الحكم القاسي
على هذه المرأة الراجحة العقل وجعل يبرر عملها في باطنه ويخلق لها المعاذير
بل انه احس بالشفقة عليها ، وود من صميم قلبه لو استطاع ان يعد لها يد المساعدة .
وذهب الاصدقاء بعد ساعة . وصافح ليفين انا فاستبقت راحته في
يدها ، وضغطت عليها قليلا ، ثم اطلقتها قائلة وعيناها تتلقتان بما يخالج صدرها :
« لقد ادخلت على قلبي المسرة والامل يا سيدي ، واصدقك ان قدمك
كان كتطر الندى ! وارجو منك ان تصف لزوجتك العزيزة حيي وتقديري
واعجابي .. بلغها رأيي فيها ، واخبرها ان لم تجد في نفسها المقدرة على

تسيان ذنبي وزلتي ، فلن ألح عليها بوجوب ذلك .. لان الانسان ما لم يمر
 بطروف قاسية كالتى عرضت لي في حياتي ، فلن يقدر قيمة المغفرة ، ولن
 يعلم انه يتحنن عليه ان يغفر ! « فطاطا ليفين راسه واجاب بصوت رقيق
 « لن انسى قولك ، وسانقل كلماته اليها يا سيدتي ! » .
 واستمع فرونسكي ولاذ بالصمت .. واستمع ورأى ، ولكنه لم ينبس
 ببنت شفة ، وكان يفكر ، وكان يعنى في الفكر ، وكان يحدق ، وكان يطيل
 التحديق .. ولم يعلم احدا ما كان يجول في ذهنه ، وما كان يراه بعينه !
 ولما خرج ليفين واوبلنسكي ، صحبهما فرونسكي دون ان يعا بنظرة
 انا الغضبي المتسائلة !

استقل ليفين عربة بمفرده وتوجه الى بيته .. وشخص الى الامام ،
 وكأنه يرى في ظهر العوزي امورا كثيرة !
 وطلق يردد وهو يفكر : سقيا لها ... « انها امرأة رائعة ، بل انها
 ضوء باهر ! نادرة المثال - جوهرة فريدة يتيمة ؟ » .
 واستعاد ما قالته ، وانغمض عينيه وجعل يتذكر صوتها العذب ويقارن
 بينه وبين لحن موسيقي يضربه فنان على الوتر ! واشفق عليها .. لقد لامها
 فيما سبق ، اما اليوم فهو يحنو عليها ويرثي لحالتها .
 وترجل من العربة امام بيته . ولما دخل اجفل معا رآه من اضطراب
 زوجته وقلقها . وقد اخبرته وهي مطبقة متفعلتها انها انتظرت حضوره طويلا
 دون جدوى .. وتفردت امالته ، فراها فيها انبساط عجيب ، كما راها
 من نظراته ومضة خاطفة تأتي وتذهب ، وكأنها الفكر الطارىء يلم بالفعل على
 دفعات ! وما عتمت ان قالت : « واين كنت ؟ اين قضيت هذا الوقت ؟ » .
 وصمتت حتى لا تخيفه ، ثم ابسمت مشجعة ، وكأنها تطمئنه وتحنه
 على الاعتراف ! ولم يكن منه الا ان اطلعها على اجتماعه بفرونسكي ، وما
 تبادلاه من حديث ، ثم اجتماعه باوبلنسكي ، والحاج الاخير عليه بالذهاب
 معه الى منزل آتا .. وتصاعد الدم الى وجهه عنا ذكر الاسم ، وايقن في
 تلك اللحظة انه ارتكب خطأ فاحشا بذهابه الى ذلك المنزل .

وجحظت عينا كاترين ، وحسبته بنظرة ناربة - لقد ذهب اذن الى منزل
 انا كرتينا .. واستعدت المرأة الادبية رباطة جاشها في صدرها ، ورمقته
 بنظرة هادئة وكأنها تقول : « استمر .. استمر .. قل كل شيء ! »
 واستتلى ليفين : « وانا اذ لبيت رجاء ستيفان اوبلنسكي ، كنت على
 يقين من انك لن تغضبي ، لو توقي من رجاحة تفكيرك واعتزازي بركونك الى
 والى حرصي وشرفي وحبي .. » . قالت : « وكيف الفيتها ؟ » .
 قال : « انها على جانب كبير من الحسن والدمائة .. انها شقية وارثي
 لها من كل قلبي » .

وأفاض في شرح المقابلة ، ثم حذلها عن الصورة الرائعة ، وعن الشبه العظيم بين الاصل والتقليد .. وما لبث ان نقل اليها كلمات انا لها ..
وقالت كاترين بعد فراغه من حديثه : « اجل .. انها امرأة طيبة ، ولكنها كما قلت ، تستحق الرثاء والشفقة ! »

ولما اركن ليفين الى عودة المياه الى مجاريها ورأى من زوجته اتزاناً ، قبلها في جبينها ودخل الى مخدعه ، فخاع ثيابه واستبدلها بملابس النوم . وعاد ادراجه فدنا منها . ولكنه اجفل مما رآه في عينيها . فثريث وحاول ان يتكلم ، غير انها تطلعت في مكانها ، وبكت !
ولهفت نفس ليفين ، فأقبل عليها يقول :

« على رسلك يا كاترين .. ما الم بك ! لم تبكين ! .. »

فأجابته وهي لا تزال تشرق بدمامعها :

لقد وقعت في حبالها .. في حبال انا - تلك المرأة الشيطان .. تلك الانثى التي خلعت العذار واركتبت المعاصي !

فصاح ليفين بصوت متهدج .. اقلعي .. اقلعي .. بالله عليك ان تكفي عن كلام لا طائل تحته ! » قالت : « اجل ، لقد كلفت بها وشفقت ، واني اقرا ذلك في عينيك ، اني ارى كل شيء .. ولا اجد مندوحة من السر ، سأسافر غداً ، سأرجع من حيث اتيت ! »

ومضت الساعات ، وعادت المياه الى مجاريها بين الزوجين ، ونامت كاترين قريرة العين مطمئنة الى زوجها واخلاصه . ونام هو دون ان يفكر بشيء ..

اما في الصباح ، فاستفاقت كاترين وقد جاءها المخاض . ووضعت مولوداً ذكراً وطارت نفس ليفين فرحاً ، ونسي انا ، ونسي كل شيء يتعلق بها ، وما عاد يفكر الا بوليدته ، بابنه ..

ابتسمت انا ساعة انفردت بنفسها ، فقد فهمت من نظرات ليفين وكلماته انه وقع في حبالها ، فسرت واغتبطت - فهي اذن ساحرة كما كانت في كل حين ، والا لما تسنى لها التأثير على ليفين والسيطرة على حواسه ومشاعره .

فلما ذهب نسيت امره ! ونشأت تناجي نفسها وتقول : « ما دمت مالكة فتنتي وسحري ، وما دمت متمكنة من قوة تأثيري على الرجال ، سواء منهم العزاب والمتزوجون ، فلماذا اشعر بفرونسكي يتحرر - رويداً رويداً من قبضتي ! انه يحبني ، ولا اشك في حبه قط . »

ودمعت عيناها . ولكن قرع الباب ارجع اليها نفسها الشاردة ..
لقد قفل فرونسكي راجعاً - وجفقت دمعها على عجل ، وتصنعت

الإنكباب على القراءة ، حتى لا يلحظ شيئا من حيرتها وحزنها ، وحتى لا يغطن الى حقيقة مشاعرها . وبعد ان حياها ابتدراها بالسؤال عن رأيها في ليفين ثم اقبل عليها يحدثها عن مغامرة الامير باشفين في النادي .
فانقبضت اساريره واجاب : « انا حر في ما افعل يا انا ، فلا تحاولي المكث معه الكي تتأخر عن الاوبة ! الكي تتركني وحيدة لا يؤنس وحدتي انسان ! »

فانقبضت اساريره واجاب : « انا حر في ما افعل يا انا ، فلا تحاولي ان تقيدي حريتي ! »

وراجع نفسه فابتسم ، وكأنه ينبغي وضع حد للمشاجرة التي بدت طلائعها فعد لها يده ، ودنا منها . . فسرنا حركته ، ولكنها التكتمت على نفسها متجهة ، وكان نفسها ظمئت الى الشجار ، او كأنها ارتضت على تبادل التهم وتاجيج نيران الخصام !

ولما رأى ازورارها انشئ الى ناحية بنظره وجسده ، حتى لا ترى ما كسا وجهه - وعادت انا تقول بنفس اللهجة العاتية العاذلة :

« انت حر ، لا شبهة في ذلك ، ولكنك اخذت في المدة الاخيرة تنتهز كل فرصة لتذكيري بحقك في حريتك ! »

وصمتت وكأنها تستعيد درسا ، واستأنفت بعد قليل : « انت عتيد ، وهذا ما يعكر صفو الجو بيننا . . »

واخفت وجهها في راحتيها وهي تنتحب . . ونار شجنه ، وتلعج حزنه ، فهم بها يتودد اليها ويربت منى ظهرها ، ويقبلها . وما عتم ان قال :
« انني لك محب صادق ، ولا ارجب في مغادرة المنزل ، تقى مما اقول يا انا ، واطمئني الى حبي ! »

قالت : « لست في شك من اخلاصك ، غير ان هنالك اشياء اخرى . . »
فنهتف متبرما مللا : « استحلقتك بالله ان تطلعي على كل شيء . . »
اطلعي على ما يخلق بي عمله ، اطلعي على ما تسكن له نفسك وتقر روحك . . اني على تمام الاهبة للقيام باي عمل تكمن فيه سعادتك وهناؤك . . ويكون فيه خلاص لك من بلبلتك وقلقك ! »

قالت : « ارجوك ان لا تضطرب ، فانا مخطئة بتسرعي ، وقد اثرت على حياة الوحدة والانفراد . »

وتناهى شعور انا بالحزن . . انه اضحى اكثر برودا وجمودا من ذي قبل ، انه يتكلم معها ويفكر بامر آخر . . لقد افلت من قبضتها ، وتلاشى حبه ، وخسرته . . وايقنت والاسى يحز في صدرها ان النهاية بدأت منذ الليلة ، لقد بدأت نهاية حبه ، ولعل حياتها قد ازفت ايضا !

الشقية المعذبة .. بدأت تتذوق ثمرات خيانتها لزوجها .
الناصة العائرة الحظ .. طفقت تترفض على اوار .. انا كارينا
المرأة الفاتنة .. رات الآن انها تنحدر ..

وتدهورت حالة ستيفان شقيق انا ، واصبح على شفا الافلاس .
ان مرتبه كبير يسيل له اللعاب ، ولكنه لا يكفيه وبكفي هائلته .. والغاية
التي يملكها لم تعد تدر عليه المال الكافي ايضا ، فقد اصرت داريا زوجته على
اخذ حصتها من الربح . لهذا لم يبق له مخرجا من مازقه الا التوجه الى
بطرسبرج والسعي لدى اولي الامر ، عله يظفر بزيادة في مرتبه تسد تلك
الثغرة التي لم نغنا تنسج على مر الايام .

واصنفي بعد ذلك بصبر وجلد الى تقرير معلول تلاء كارنين على مسمع
منه من الازمة الخائفة التي استفحل امرها في البلاد واستشري شرها .
وما عثم ان انتهر فرصة انقطاع كارنين عن الكلام حتى يادره قائلا :
« لعة مسالة اود ان احدلك عنها ، وانت تعرفها ، انها بخصوص انا
الختي » :

وصمت ستيفان وتامل كارنين ، فشاهد ما شابه من التبدل العجيب
ساعة طرق سمعه اسم زوجته .. شاهد الحياة نفر من وجهه شاهد امثله
تختلج ثم تحمد ، وكأنها تموت .

وقال الزوج الملهوف بصوت عميق حزين :

« وماذا تريد مني ؟ قل ماذا تريد ؟ »

اريد تسوية فاصلة بانه ، تسوية تضع الامور في موضعها ، وانسي
اشرع اليك لا بصفتك سياسيا ووزيرا خطيرا ، بل كرجل طبيب القلب ،
كمسيحي لا يخلو قلبه من كلمة المغفرة والصفح .. كرجل يشفق على امرأة
خاطئة ، ويساعدها .

« وبأي طريقة يمد لها مساعدا ؟ »

« لو شاهدتها ، لرثيت لها ، ولبكيت حزنا عليها .. انها معذبة ،
معذبة يا صديقي . »

« خيل الي انها نعم في احسن حال من العيش ، أفلم تتل ما صببت
اليه نفسها أفلم تظفر بمتغاياها ؟ »

« اقصر يا كارنين ، وجنبنا كلاما لا طائل تحته ، جنبنا النقاذق
بالتهم فما مضى قد اتقضى ، واثت ادري من سواك بما تنشده انا وتبغيه ،
انت تعلم انها تريد الطلاق ، فامنحها وطرها ، انلها ما تصبو اليه نفسها ،
لا تقف حجر عثرة في طريق سعادتها ! »

ان انا كما اعتقدت ابت الطلاق ورفضته ، ورفضها مسبب عن
اصراري على الاحتفاظ يا بني ، وهذا ينهي المسالة .

وتحرك في مكانه حانقا مغيظا .. وسارع ستيفان يقول :
« لا .. لا .. أرجوك ان تنفزع بالحلم يا صاح ، فالسألة لم تنته بعد ،
وإذا اصحت لي اطعنك على الحقيقة وعلى رأيي .. لقد انفصلتما عن
بعضكما البعض واظهرت أنت رغبتك في الطلاق ، واحتفظت هي لك في قلبها
بالشكر والثناء بل ان علو نفسك أذاها في شعورها بانخفاض نفسها فالتكفات
وعاشت في معزل عن الخلق . بيد ان الإيام ، والخبرة اظهرا جليا ان حالتها
لا تطاق . »

فرد عليه كارئين بجفاء واقتضاب :

« لا ابه لها .. لا احفلها فحياتها - حياة انا شقيقتك لا تعينني في
قليل او كثير ، حياة انا لا قيمة لها في نظري ! »
قال : « ذرني اصارحك بعدم تصديقك .. اني لا اصدق قولك ! ان
حالتها لا تطاق انها بالعقم ، وشقاؤها لا يفيد احدا . هي تستحق كل ذلك
وتعلم انها تعاقب على ما جنحت اليه ، ولذلك لا تطالبك بشيء ، وتجهسر
بانها لا تجسر على مطالبتك باي امر من الامور .. ولكن .. انا كلنا .. جميع
ذوي قرابتها .. محبوبها .. فلا تتركها لوحدها وافعل ما من شأنه ان يخفف
عنها عبء خطيئتها ! »

فقاطعه كارئين قائلا : « بترأى لي انك تعمل بموجب خطة حتى
تشرعني بانني المخطأ المذنب ! »

فهتف الآخر : « اواه ! كلا ، كلا .. اني لا افعل ذلك ، وحاشا ان
افعل ! فافهمني ، أرجو ان تستوعب كلامي - ان ما ابغى ايضا لك هو
ان حالتها امست ميثوسا منها ، وانك الانسان الوحيد الذي يسمعه ابعاد
الموت عنها ، ولن تفقد شيئا ان فعلت ، وانك لن تضار ان عمدت الى انقاذها
من برائن الاسى والياس . »

فقال كارئين : « لا اتكر ما ابرمت على نفسي ، بيد ان ذلك جرى منذ
مدة طويلة ، وكنت اظن ان مسألة ابني قد قررت الامر وبتت فيه ..
وبجانب ذلك كنت اظن ايضا ان انا سمحة كريمة ... »

وصمت كارئين بفتنة ، وتقلصت عضلات وجهه ، وعض على شفته .
وقال ستيفان : « انها تترك الامر لكرمك انت ، انها تفوض مستقبلها
اليك .. اي الكسيس كارئين : انت نبيل كريم ، انت انسان تحتفظ بقلبك ،
فضع نفسك في مكانها لحظة واحدة - ان مسألة الطلاق بالنسبة اليها ، هي
مسألة حياة او موت .. ولو انك لم تبد استعدادك لحلها من رباط الزوجية ،
لما قفلت راجعة الى المدينة ، ولظلت في الريف .. ولكنك وعدتها ، وقد بعثت
اليك برسالة ثم جاءت الى موسكو . وها هي الان تعيش هناك ، وتنتظر
على احر من الجمر كتابا منك يضع حدا لاسقاطها .. »

ومثل انا في حياتها ، كمثل محكوم بالموت ، وضع الحبل في عنقه منذ ستة شهور ، ولا يزال موضوعا .. وهو لا يعلم مصره ، يقولون له : لقد عفونا .. ثم يقولون : لا .. سوف تموت موتا ابديا ! فكُن رحيما يا الكسيس اشفق على هذه المحكمة ، وثق من مقدرتي على وضع الامور في مواضعها ! »

وقال الكسيس كارنين باشمزاز : « دعك من هذا الكلام .. ولعلني وعدت بما لا يحق لي ان اعد به ! »

« قال فانت تنكث بالوعد اذن .. انت تتراجع منكصا ! »

قال « لم ارفض مطلقا ان افعل كل ما هو جائز ممكن ، بيد اني اود ان افكر واقلب الراي ! »

فوثب ستيفان من مكانه ، وهتف : « كلا .. لا اصدق انك انت الذي تتكلم ! انها شقية ، كاشقتي ما تكون عليه امرأة ناعسة ، ولا يسعك الرفض ، .. »

قال : « لن ارفض بقدر طاقتي ، ولكني كمؤمن يخاف الله ويهتدي في حياته بتعاليم الدين ، لا استطيع ان انهج نهجا مناوئا للدين معارضا لتعاليم الانجيل ، منافيا لحكمة السماء ! »

« بيد ان مجتمعنا يوافق على الطلاق ، كما ان الكنيسة ترى احيانا ان الموافقة خير من المعارضة ! »

« ان الطلاق مقرر ، ولكن ليس بالمعنى .. ليس بالمدى .. »

اف ! انت غيرك اليوم ! الم تكن انت الذي عفوت وغفرت ؟ الم نحمد فيك هذه الخلة ، وتكبر علو نفسك وشهامتها ! الم تعرب عن استعدادك للتضحية بكل شيء في سبيلها ؟ الم نقل واثت تخفض رأسك احتراما ومهابة : - اذا اخذ انسان سترتك ، اعطه عباءتك ؟ والان .. »

فعارضه كارنين بسرعة وقال : « ارجو .. ارجو منك ان تكف عن هذا القول .. » وانتصب واقفا ووجهه ينضج بالالم الهائل واتم :

« ارجوك ان تنتهي هذا الكلام .. فانا لا اتحمل المزيد .. لا »

وهتف الآخر ، وقد اخافته حالة كارنين : اواه ! اصفح عني ، اصفح عني اتكأت جراحات قلبك .. »

ومد يده اليه متوسلا واستنلى : « اني رسول .. مجرد رسول .. وما على الرسول الى التبليغ ! ولا مندوحة لي من اطلائك على كل شيء ، حتى تكون على بينة من امرك ، وحتى تفعل الواجب »

وصافحه الكسيس كارنين ، وتردد هنيهة وقال : سأفكر في الامر ، وسأحاول ان اجد الهدى والرشاد .. وبعد غد اعطيك قراري الاخير ! »

لم ينس ستيفان اوبلنسكي واجبتك نفسه حين الهمك في بطرسبرج في مشافله الخاصة ، وفي مسألة طلاق شقيقته من زوجها ..

لم ينس ان لجسده حقا عليه ، لهذا اسلم نفسه بعد ان انتهى من
مقابلة كارولين للخمر ، فعاقرها ، ثم ذهب مع بعض الأصدقاء الى حانة
يجتمع فيها رهط من العشاق ، فجلسوا واستمروا يشربون ويقصفون
الى ساعة متأخرة .

وقضى محبة النهار التالي وهو ينتقل بين منازل معارفه ، فيتكلم
معهم تارة عن آثا ومشكلتها ، وتارة اخرى عن مشاكله ومطالبه ان توسم في
اهل المنزل الذي يزور ، المقدرة على اسداء العون !
ولم يسأم حديثه احد ، فهو لطيف دمث ، وهو محدث ذلق اللسان ،
وهو يعرف من اين تؤكل الكتف .. فضلا عن ذلك فالجميع يعرفونه ،
ومعظمهم ينتمى اليه بواشحة من القرابة ..

لكي تسير حياة زوجين نحو الانفاق التام او الفرقة الدائمة ، يجب
ان يكون هناك اما انقسام كلي بين الزوج وزوجته او انسجام وانفاق
وولام ..

وكثير من العائلات تبقى لسنين عديدة ملازمة لوضعية واحدة مع ان
الرجل وزوجته يشعران بأن العلاقة بينهما يجب ان تتحل ..

ولقد احس فرونسكي وآثا بان الحياة في موسكو شر لا يطاق في فصل
الصيف ، لان الحر خائق ، والغيار يملأ الدنيا والهواء فاسد ، نثنس ،
ولكنهما رغم شعورهما بحميم موسكو لم يرتحلا عنها ، بل لازماها ، ومكثا
فيها ، وما مكثهما وبقائهما الا لاتساع شقة الخلاف بينهما ، وتصدع بناء
الالفة ، وانهايار اسس المودة والمحبة ! اما الماراة المتبادلة بين احاسيسهما ،
والتي مزقت شمل حبهما ، فلم يكن لها اي سبب ظاهر ، وكل سعي بذل
احدهما لاحلال التفاهم محل التنارع باء بالفشل .

كانت آثا ترى ان فرونسكي كله - برمته - بعاداته ، وآرائه وافكاره ،
ورغباته ومزاجه الروحي والنفسي والجسدي - يمثل شيئا واحدا
فحسب - حبه للنساء ، وان هذا الحب يجب ان يتركز فيها هي وحدها
.. اما حبه يضعف وينضائل ، اما وغرامه تخمد جذوته ، وتنطفئ
وقدته ، فهذا ولا جرم عائدا الى تقسيم قلبه ، ومنع جزء من حبه لغيرها
من النساء !

واستمر اوار الغيرة في قلبها - ولم تنشأ غيرها من امرأة معينة ، بل
كانت غيرها من تناقض حبه لها .. ولانها تركز غيرها على شيء معين ، فقد
كانت تتمسك بكل شيء لنتنقل بغيرها اليه .. فكانت كلمة واحدة تكفي
لتحويل اتجاه غيرها من اليمين الى الشمال !

فمرة نعتت على النساء الوضيعات اللاتي كان يقضي معهن بعض

اوقات الفراغ قبل تعلقه بها .. ومرة تقمت على نساء المجتمع اللاتي قد يلتقيهن .. وانها توصيه دائما بالتوجه بفؤاده ناحية الاميرة الحسنة « سوروكين » !

وتعق اليوم في اعماقها ابذانا بحلول النكبة ، واوحت اليها الارواح الشريرة نيات الاستسلام الى الالم والياس . وجردتها غيرتها من كل صبر . واخذت تضع على عاتقه المسؤولية كلها ، فهو المسؤول عن قلقها واضطرابها ، وهو المسؤول عن تأخر اجراءات الطلاق .. هو ، هو .. انه المسؤول عن كل شيء ! - عن عزلتها وبرمها .. عن تمنع زوجها وتردده .. عن ضيقها بموسكو .. فلو احبها كما احبها قبلا ، لشعر معها وحنا عليها ، وساعدها واتقدها .

ثم .. انه مسؤول عن بعدها عن ابنها سرج - ابنها الذي اخذت كفة حبها له ترجح على كفة حبها لغرونسكي !
ووصل بها الامر الى حد جعلها ترى في لمحات حنائه القصار نوعا من الغش والرياء .. ولم تقل هذه اللحظات التي كان حبهما فيه ينتعش بعد مرات من انفعالها وعصبيتها ، فهي ترى من خلال عطفه ومحبتة ، ظلا من اعتداده ومرحه وثقته بنفسه ، لم تمهدجا فيه من قبل واخذت الآن تحز في صدرها وتمغث في قلبها .

انتظرت انا عودته من حفلة اقامها له زملاء واصدقاء .. وكان الفسق يضح الاقن بنوره الارجواني ، والريح راكدة دافئة واربع الورد يعبق في الحديقة ويفعم رائحته الصدور .
انتظرت اوبته في حجرة مكتبه . وكانت تزرع ارض الغرفة جيئة وذهابا وتفكر بمشاجرتها الاخيرة التي وقعت بينهما في اليوم الماضي ، وتستعيد الى مخيلتها دقائقها واسبابها .. وايقنت لدى استعراضها للاسباب ، ان الموجبات تافهة لا تستحق الانتفاخ .

ولما عاد بعد ساعات طويلة ، تجنب اثاره الموضوع من جديد .
وها هي اليوم تشعر بوحدة قاتلة ، لقد غادرها ومضى . رجس في ساعة الظهيرة . ثم لم يلبث ان انصرف ثانية ، بعد ان حياها مودعا تحية جافة لا تخلو من لهجة سخرية !
وشعرت بانها الملومة على ما حصل ، وآلت على نفسها ان تفعل المستحيل حتى تعود بينهما المياه الى مجاريها الطبيعية ..
وانشأت تحدث نفسها وتقول : « انا وحدي الملومة .. فانا منغلطة ، عصبية ، حادة الطبع .. انا ذات مزاج ناري .. انا غيورة .. ولكني سألاني

الامر ، وسرحل سوية الى الريف ، فهناك استطيع ان احيا بسلام
وسكينة !

واستعادت بفتة كلماتها لها ، واتهامه اياها بالشذوذ وغرابة الاطوار ،
وانشأت تغمغم وهي تحرق على الارم :

انني اعرف ما يعني ، هو يعني اني اؤثر طفل غيره على طفله - فماذا
يعلم هذا الرجل من حب الام للطفل ؟ وماذا يعلم عن حبي لسرج الذي
ضحيت به على مذبح حبي له - لهذا الرجل انه لا يرغب الا في قهري وطمع
قلبي !

« استحيل على الركون الى الهدوء ؟ اأفنت زمام ارادتي من يدي ؟ »
واغمضت عينها « انه صادق ، انه شريف انه يحبني ، وانا احبه
وقريبا يتم الطلاق . فماذا اروم غير ذلك ؟ بيد اني لا ابغي الا هدوء الفكر
والوثوق من اخلاصه . هذا كل ما اطلبه ، وبعد ذلك لن الوم الا نفسي على
كل حادث وكل شجار وخصام .. اجل يخاق بي لدى عودته ان اعترف له
بذنبي ، ولو كنت غير مدنية ، ثم اقتعه بالسفر غدا ، بالرحيل من هذه
المدينة ! »

ولكي تهرب من افكارها ، امرت باعداد الحقائب تأهباً للسفر الى
الريف ..

ورجع فرونسكي في الساعة العاشرة .
واستقبلته انا بوجه طلق واسارير منبسطة . فتألفت عيناه بشرا ،
فهو يحب ان يراها منشرحة ، وهو يخاف من الشجار ، ويمقت سوء
التفاهم . ولما لمح الحقائب هتف مجبوراً : « ماذا ارى ؟ هيا ، هيا ، هذا
جميل ! »

« وقالت ! نعم ، يجب ان تذهب ، هناك ما يعيقك عن السفر ؟ »
قال : « انها امنيتي الوحيدة ، انتظريني ريثما استبدل ثيابي ،
وسنتب في الامر . امري الخادم ان يجلب لنا الشاي ! »
وفادرها الى حجرته .

وعندما استتب بهما المقام في القاعة الصغيرة ، طفقت تقص عليه
حوادث يومها وكيف هبط عليها وحي السفر فابتاعت الحقائب ، واعدت
العدة واتخذت الالهة .. وستأنفت جادة : « ولم الانتظار هنا ؟ لم الانتظار ؟
الا يتحقق الطلاق ونحن في القرية ؟ اني لا ارجب ان اسمع المزيد عنه ، وليجر
ما يجري ، فان تحقق الطلاق ، فنعم الخاتمة ، وان تمرقل ، فلا يخلق بنا
ان نحني هامتنا استسلاماً وبأساً .. الا توافقني ؟ »

قال : « اجل .. »
وتفرد في وجهها مضطرباً قلقاً ، وما عثم ان سالها عن موعد السفر .

فأجابت بسرعة : « متى .. متى .. غدا .. كلا ، بل بعد يومين ،
بعد غد تكون قد أكملنا الأهبة . »
قال : « لا بأس .. ولكن ، علي أن أزور أمي بعد غد ، فقد وعدتها
أن امرج عليها يوم الأحد »

وأصفر وجهه قليلا ، فقد أدرك أن اتنا ستثور الآن وتعكر صفوه .
وكان قلقة الشعلة التي الهبت شكها . فتخرج وجهها وابتعدت عنه ..
وفكرت بالأميرة سوروكين ، فكرت فيها وفي أمه ، فهي تعلم أنهما يقيمان
سويا في ضاحية من ضواحي موسكو المتطرفة .
ولكنها كتبت ما خالجهما وقالت متسائلة :

« ألا يمكنك التعمجيل بزيارة أمك ؟ ألا يمكنك الذهاب إليها غدا ؟
قال : « كلا ! فالاعمال التي كلفتنى بها أمي لا تنتهي اليوم »

قالت : « فلن ترحل إلى الريف إذن ! » قال : « لماذا ! »
« لن أرحل .. فإن أردت ، فليكن ذلك يوم الاثنين ، والا .. »
« ماذا دهالك ! وما معنى هذا الكلام ! »
« لا معنى له في نظرك لأنك لا تأبه لي ولا تحفل بمشاعري .. لأنك لا
تكثر بحياتي ، ولا تود أن تفهمني ! »
وأحست بغلظتها الشنيعة .
وضاق صدر فرونسكي فقاطعها بصوت اجش : « هذا لا يطاق .. »
وانتصب واقفا ودنا منها ، فحدجها بنظرات صارمة صاعقة ؟ وأردف
يقول :

« علام تفعلين كل هذا ! لماذا تثقلين علي قوة الصبر والإيمان في قلبي
أن لكل شيء حدود ، وللصبر والإيمان أيضا حدود وسدود ! »
فتفتت مزمجرة : « وماذا تعني بكلامك ؟ »
ونظرت إلى الكراهية الساحرة التي بدت في عينيه ، نظرة رعب وولع
قال : « أعني ، أود أن أقول .. »
وتوقف وأنه عدل عن فكرة وما لبث أن قال :

« ينبغي سؤالك عن شيء .. ماذا تريد مني ؟ افضحي ، ابيني ! »
فقالت : « ماذا أريد ؟ أو ما أستطيع أن أريد ؟ لا أريد إلا شيئا واحدا
أن لا تهجرني كما تراودك نفسك ، أما ما لا أريد فهو أمر ثانوي .. أريد
الحب وهذا قد غاص .. وأذن لم يبق ما يستحق الالتفات ؟ »
واستدارت نحو الباب وصافحت فرونسكي : قفي .. قفي !
وامسك بها من يدها .

واستلتي « لم كل هذا الغضب والتشاجر والتناحر ، الأني أزمع أن

أؤخر السفر ليوم أو يومين آخرين ؟ أقلت كذبا ؟ الخلفت بشرني ؟
قالت : « أجل ، لقد فعلت .. والرجل الذي يعيرني بأنه ضحى كل شيء في سبيل ، هو ولا غرو أحط من الرجل لفاقد شرفه ! »
فأجاب وهو يندفع خارجا :

« لقد نغد الصبر ، ولم يعد في قوس الحلم منزع .. اواه ..! .. »
وخرجت اتا في الره وهي تتمتع والهة :

« أنه يكرهني .. ويحب امرأة غيري .. اني انشد الحب ولكن لا اجده .. لقد انتهى كل شيء اذن .. انتهى كل شيء ! »

وعرجت على حجرتها ونظرت الى المرأة ، وتساءلت :

« يجب ان ينتهي كل شيء .. فكيف ؟ كيف ينتهي ؟ »

ودخل فرونسكي ، فتقدم منها ، وامسك يدها بلطف وقال :

« اتا ، لنذهب بعد غد ، لقد وافقت »

فلم ترد عليه .. وسالها : « فما رايك الآن ؟ »

ورفعت اليه وجها خضيبا بالدموع ، وما لبثت ان زفرت زفرة

محرقة ، وقالت وهي تكاد تغص بريقها :

« اهجرني .. اتركني .. فانا امرأة ساقطة .. سأرحل غدا ، وسأفعل

اكثر من الرحيل .. ولن اجرك معي الى الهوة ، بل ازمع ان احرك ، فاذهب

في سبيلك .. انت لا تحبني ، اذهب .. انت تحب سواي ! » وتضرع اليها

فرونسكي ان تهدأ ، واكد لها ان غيرتها لا أساس لها من الواقع ، وأنه

يحبها ، ولن يبرح بحبها ، وان حبه لها تضاعف في الآونة الاخيرة !

وقبل يدها ، واستطرد وهو يضمها اليه :

« انا ، لماذا لا تشيرين ما يمرض نفسينا ؟ »

وانجهت اليه ببصرها الطامع ، فرات الرقة تنبثق من عينيه ، وخيل

اليها انه يبكي ، وشعرت بيدها تبللها دموعه .. وتبدلت اتا في مثل لمح

البصر من الغيرة الهوجاء الى الرقة والحب ..

واحاطت عنقه بلذاتها ، ونعمرت وجهه الجميل بقبلاتها .. قبلته في

وجهه ، ثم نقلت شفيتها الى عنقه ورأسه ، وقالت :

« حبيبي .. حبيبي اواه ..! .. »

شعرت اتا بتجدد في نشاطها ، وانبعاث جديد في حياتها ، فبكرت

بالنهوض في صباح اليوم التالي ، واقبلت على امتعتها وملابسها تنضدها

في الحقالب . ودخل عليها فرونسكي ، وقال بعد ان حياها :

سأذهب على التو لارى امي ، وانهي جميع الامور المعلقة معها . »

ولكنها كتمت ما خالجهما ، ودلفت معه الى غرفة الطعام . ولما جلسا

الى المائدة ليتناولوا طعام الافطار ، قالت اتا وهي تزوي بين حاجبيها :

« لكم أصبحت هذه الغرف مقبنة لدي ! ولهذا ترائي اتشوق الابصار الى مغادرتها غدا .. »

وتغيرت نظرتها بغتة ، فطبقت .. وكان ذلك لان الخادم دخل في تلك الدقيقة يطلب الى فرونسكي ان يوقع على ايصال برقية وصلتته من بطرسبرج ! ولما ذهب الخادم سألته مشككة :

« ومن البرقية ؟ من اخيك . »

« وما منعك عن اطلاعي عليها ؟ »

فدها فرونسكي الخادم وامره ان ياتي بالبرقية . ثم التفت الى انا وقال : « رغبت في كتم خبرها ، حتى لا اخدش مشاعرك . » « اهي بصدد الطلاق ؟ »

« نعم . » وتناولت انا البرقية بيد مرتعشة ، وقرات الكلمات المخيبة لاملها . وما ابطات ان قالت بصوت عميق ثابت :

« انهيت لك البارحة ان الطلاق لا يعنيني في قليل او كثير . »

« ولكنه امر لا بد لنا منه يا انا ، فما بالك لا تكثرين به ؟ الا يصيب اولادنا العار الابدي ان لم نقترن وان لم نعشن سوية كزوجين صالحين عاديين ؟ كسائر ازواج ؟ »

فقلت محتدمة : « لن انجب المزيد من الاطفال ! » « وهذا امر يؤسف له »

« انت تريد الطلاق من اجل الاطفال ، ولا تبغيه من اجلي انا .. »

« من اجلنا جميعا .. ثقي من قولي .. آمني بي .. ماذا اصابك ؟ » ونظر الى اصابعها المنقبضة على فنجان القهوة - ورات في عينيه اشعزازا ونفورا ، فسارعت تقول :

« لا ابالي رأي امك ، ولا الفتاة التي تعد العدة لزفها اليك ! »

فقال مشدوها : « ولكننا لم نطرق هذا الموضوع ! »

« بل انا كنا نتحدث في هذا الصدد ، واعلم اني لا احفل امك ولا احترمها »

« انا احلدي .. ارجوك .. لا تستهيني بأمي امامي .. »

« المرأة التي لا يقول لها قلبها ابن سعادة ولدها ، لا قلب لها »

وحدها بنظرة ناربة ارتجفت لها اوصالها .. واقترق الاثنان ..

غادر هو المنزل ولم يرجع ..

ولما قفل راجعا في هزيع متأخر من الليل ، قالت له الخادمة ان سيدتها تشكو الصداع ، وترغب في الا يزعجها احد ..

وفي المساء ، وقبل ان تلوذ بحجرتها طلبت الى الخادمة ان تقول لسيدتها متر عاد الى البيت انها تألمت من وجع الراس ، وترغب الا يوقظها

احد من نومها .. وقالت لنفسها ساعة استلقت على فراشها : « ان هو ضرب عرض الحائط بكلام الخادمة ، واقتحم على المخدع ، يكون في قلبه حب اكيد لي .. اما اذا لم يفعل ، فمعنى ذلك انه فقد كل حب لي ، ومعناه ايضا انه يتحتم علي ان اتدبر الامر على ضوء الحقيقة الممضة الرمضة ! »
واصفت الى صوت عجلته وهي تقف لدى الباب ، فخفق قلبها خفقة الترقب . واصاحت الى خطاه وهو يصعد في السلالم ، ثم ارهفت السمع الى ما دار بينه وبين الخادم والخادمة .. وعلمت ونفسها تطير شعاعا انه حمل كلام الخادمة محمل الجد والصدق ، فكل شيء اذن اضحى حلما ليلة .. كل شيء غدا اضفائنا تعقبها صحبة محزنة ! وتجسم في ناظرينا الموت كوسيلة لاسترداد محبته ، ولعاقبته على فسوته وغدره ، ولم تعد تكثر بشيء آخر .. فالسفر الى القرية وعدمه سيان .. والظلام وعدمه لا يؤثران .. اما العقاب ، فامر لازم .. يجب ان تعاقبه ، يجب ان نموت حتى تحل به اللعنة ..

ولما جرعت قطرات الافيون لتجع ، فكرت في سهولة الموت .. فهل تشرب ما في القارورة ؟ ان فعلت فلن ياتي عليها صباح آخر ترى شمس .. واستلقت مفتحة العينين ، تشخص الى السقف وتحدث ، وتفكر افكارها المجنونة . وعلمت في الصباح ان الاميرة سوروكين وامها عرجتا على الدار واجتمعنا بفرونسكي ..

وتوجهت الى حجرته ودخلت .. فاخبرها مسرعا بقدم الفتاة وامها ، ثم قال وهو يتفادى نظرات الياس التي رمته بها : « وسنسير غدا ، غدا .. » قالت : « انت ، انت فقط ! »

قال : « دعينا من هذا يا انا » . « انت .. انت تسافر ، اما انا فلا .. »

« انا .. » - وستندم ، ستندم .. ولاذت ساعة ندامة .. »

واندفعت خارجة وصاح : « انا .. »

وعرج وراءها . ولكنه توقف ونكص ، وصرف باسائه .. وانشأ يحدث نفسه : « انها تهددني .. ما غدا ؟ ما هذا الا الجحيم بيته ! لقد بدلت ما في وسمي ، ولكنها لا تود ان تفهم ، والشئ الوحيد الباقى هو الاغضاء » وعاد البيت . وسمت انا صوت الباب يصفق وراءه ، وهدير العربية وهي تتعد به . ونظرت من النافذة ، قرأت رأسه الحمل المتعالي ، وطوحت بنفسها الى الارض معولة ، وصاحت بصوت يديب الجلود :
« يا الهى .. لقد ذهب .. يا الهى .. لقد انتهى كل شيء ! »

ونفضت الى النافذة ثانية ، ثم اندفعت خارجة وصاحت بملء فيها

تستدعي الخادم . فلما هروا إليها ، جلست الى مائدة صغيرة ، وكتبت :
« اخطأت في حقل ، فأرجع ، أرجع ، فلدي ما ابته لك .. أرجع بحق
السماء ، فانا خائفة .. » ثم ناولتها للرجل وامرته ان يتعقب عجلة
فرونسكي ويقدم له الرقعة .

ورجع الرجل بعد ساعة مطاطيء الرأس ، واعد الورقة وهو يعتذر ،
فقد اخفق في مهمته ، ولم يستطع ان يكتشف المكان الذي قصد اليه سيده .
وراودتها فكرة الموت ثانية . ونقمت على نفسها لضعفها وخوعها ،
وقالت : - « انا اللومة ، لقد تطامنت كثيرا واستخديت ! »

وفكرت بغتة بفرونسكي - انه مقيت ، انه كريبه .. وعجبت كيف
هو اه قلبها .. ولكنها فكرت ايضا بالانتقام منه .

وصاحت بالحوذي ان ينثنى الى طريق محطة القطارات الحديدية .
فهى تكاد توقن انه ذهب لزيارة امه في الضواحي ، وستذهب وراه ،
ستجتمع اليه لآخر مرة لتطلعه على كل شيء ، ولتطلعه ايضا على قرارها !
وعادت بعد قليل فامرت الحوذي ان يعرج على البيت .. فقد ياتسى
قبل حلول الظلام .. وعولت ان تنفذ خطتها في الليل ان لم يعد .. عولت
ان تأخذ قطار الثامنة الراجع الى القرية التي تقطنها امه !

وكانت تعلم ان هذا القطار يصل موسكو ثم يرجع من حيث اتى ، ولعل
فرونسكي ياتي فيه . ووضعت بعض الملابس في حقيبة صغيرة ، ودلفت الى
غرفة المائدة ، ولكن رائحة الطعام كانت كافية لجعلها تشمئز من جميع
الماكولات ..

وظفقت تنتقل في الغرف الاخرى ، وهبطت بعد ذلك الى الحديقة
فجاست خلالها ، وهي مستغرقة في الفكر . ولكن فكرها كان لا معنى له ..
وكانت تنتظر .. تنتظر شيئا . وكانت لا تعلم ما هي في انتظاره .
وكانت لا تود ان تعلم .. لقد اسلمت امرها الى القدر .
ولم يعد لها في الوجود وجود ..

خبث الخيل المطهمة ، وانساب العربة وراهها بتمايل ورجحان .
ولو كان للقنوط وزن ، لعجزت الخيل عن السير ، ولتحطمت العربة
شر تحطيم من كثرة ما جلبته انا معها من ياس ومن قنوط ..
انسابت العربة المحملة ياسا ، وطفقت الواهة المضناة تهجس وتقول .
« يم فكرت منذ ساعة بالمرين ا بشعري ا بالخادم ا فرونسكي ا بماذا
فكرت ا » ولمحت شرطيا يجر رجلا ثملا ، فقالت :

انه ابرع منا .. لقد اكتشف العلاج ، اما انا والكوئت فرونسكي فلم
نهتد الى السعادة التي اهتدى اليها الرجل .. »
وتأملت في علاقتها به منذ البدء - ماذا طلب ا والى اي شيء سعى ا .

تساءلت : « أجل ماذا اراد مني ؟ لم يرد الحب بقدر ما اراد اشباع
الغرور . « أجل ان نظرته كآنت تشي به ، كان ينظر نظرة الرجل المنتصر
الذي ظفر بأمניתه .. لقد احبني ، ولكن غروره كان اعظم من غرامه ..
وقد طالما فخر بعلاقته بي .. ولما انطلقت جدوة حواسه ، لم يعد هناك ما
يفخر به ، بل ما يندي له جبينه خجلا .. لقد اخذ مني اقصى ما يستطيع
اخذه ، حتى اصبحت الآن عديمة النفع له .. لقد سئمتني ، ولكنه يبذل
وسعه حتى لا يفضح مله امامي ، فكيدرتني ويشقيني ..

وزفرت زفرة محرقة ، ومضت في مناقاتها البائسة .
« وحيي .. حيي يزداد مع الايام لهيبا ، أما حبه فبمبثر ويتروح
ويلفظ انفاسه ! انني اريد .. اريده لي وحدي .. وهو يذهب وبيتعد
ويزول ، اواه ! ولو فرضنا ان زوجي اطلق لي حريتي ، فتزوجت من
فرونسكي ، لو سلمنا جدلا اني تزوجته فهل تتغير نظرة الناس الي ؟ هل
يتبدل احتقارهم الي احترام ، وزيارتهم الي اجلال . كلا .. كلا .. كل
شيء سيظل على ما هو ، كل شيء حتى شجارتي مع فرونسكي ، لا حتى
غيرتي من امرأة تتعرض لطريقي ! »

وتبعت الي صوت الحوذي ينهبها بالوصول الي المحطة ، فترجعت
مسرعة ، وتلفت حولها ، ثم ابتاعت بطاقة ودلفت الي القطار .
وسرعان ما نسيت انها تجلس مع آخرين ، ولم تصد تشعر بوجود
احد ، وحلقت ثانية في فضاء الفكر .

وقالت امرأة لرنيقتها : ولهذا السبب اعطى الانسان عقلا اعطى العقل
ليتدبر به امره ، وليعالج شئونه ، وليمثل هتمه ! »
وشدهت انا هل استبقيت المرأة بدخلتها ، فاحبت ان ترد على فكرها ؟
وهزت رأسها ، ونغمضت : « لا مندوحة لي من الفرار .. من شيء
صعب » .

ووصل القطار الي القرية ونحفت سرعته . فنهضت انا ومشت
مسرعة ، ثم ترجلت ، وابتعدت عن الزحمة ، كأنها تبعد عن قوم حمل بهم
الوباء ..

وتذكرت بفتة انها ذاهبة لتري فرونسكي في منزل امه ، فاستوقفت
حمالا وقالت تساله :

« ألم يات احد من لدن الكونت فرونسكي - رسول ، خادم ، يحمل
رقعة لي ؟ »

فاجابها الرجل وهو يصمد ليها طرفه .
« الكونت ، فرونسكي ؟ لقد ارسل مند لحظات عريته للإقامة الاميرة
سوروكين وكريمتها » .

فقلت : « من جاء بالعربة ؟ من الحوذي ؟ اتعرفه ؟ »
واسودت الدنيا في عينيها ، وغام نظرها ، واقشعر جسدها ، وقالت :
« لن ادعك تستمر في تعذبي .. لن اسمح لك ان تواصل التنكيل بي ..
ورأتها خادمتان قتلقتنا وحدقتنا في ملابسها .. وقالت واحدة
للأخرى :

« بارعة الجمال .. انها حسناء انيقة ، ولم يتركها الرجال بسلام .. »
ودنا منها ناظر المحطة وسألها مستفسرا عن وجهتها ..
وركض نحوها صبي فباعها شيئا .

وهتفت بمرارة : « يا الهي .. الى اين ؟ الى اين اذهب ؟ »
واستمرت تمشي الى الامام ، واستمرت تتقدم وتوقفت في نهاية
الرصيف . وحدق فيها قوم من المسافرين ، وتهاوسوا . فسارت متعذرة
ولم تلتفت وسمعت صوت قطار آت من بعيد ، وعلمت من هدير آت أنه
قطار البضائع المتجه الى موسكو .

وظفقت تنظر الى الجزء المنخفض من العربات ، وتنامل في المسامر
والسلاسل ، وتحديق في العجلات الحديدية المقترية ببطء ، وكأنها تحاول ان
تقيس بنظرها المسافة بين العجلة والعجلة ! وهتفت : « هناك .. هناك ..
في الوسط . النهاية في الوسط ساعة .. ساطعته الطعنة النجلاء التي
لم يحدها .. سافر من الجميع .. سافر من نفسي ! » وتطلعت الى السماء
ثم الى الأرض ، واثت .

وحاولت ان تشني بنفسها تحت عجلات العربة الاولى ، ولكن حقيبتها
اعاقبتها ، فطوحت بها غاضبة وانتظرت مرور العربة الثانية .. وانتابها شعور
عجيب .. شعرت به يوم اقدمت على القفر من عر شاهق الى اليم في يوم
مضى ، ورفعت يدها فرسمت على وجهها علامة الصليب .. وأرجعتها هذه
الحركة سنين الى الوراء فرأت نفسها طفلة لعوبا .. وتمزق فجأة ستر
الظلام الكثيف الذي حجب عنها كل شيء ، وسطعت لها الحياة بفتنة يكسل
مباهجها ومتعها .. بيد انها ظلت تحديق في العجلات المقترية . وما كادت
العجلات تصل الى محاذاتها ، وما كادت تبصر بالفراغ الذي يفصل بين العجلة
الاولى وما يليها ، حتى شبيبت عنقها في كتفيها وارتمت على يدها تحت العربة .
وفي نفس اللحظة الخاطفة تلك اصابها رعب رهيب مما اقدمت عليه ..
« اين انا ؟ » « وماذا افعل هذا ؟ » وحاولت ان تتراجع وحاولت ان تتفادى
أمرأ . الا ان شيئا ضخما لا يرحم صدمها في رأسها وألقاها على ظهرها ..
وشعرت بعقم المحاولة شعرت بالنهاية . فصاحت : « رب اغفر لي .. اغفر
لي .. » . وتوهج النور الذي قرت من خلاله اسطر الحياة ، ساطعا باهرا ..
النور ، كما لم يتوهج من قبل واضاء لها جميع ما اكتنفه الظلام ، وما عتم
ان اختلج اختلاجة الموت ، وتضائل حتى خمد الى الابد ...